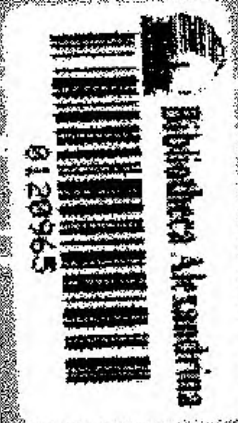


بجمال البنا

مسؤولية
فشل الدولة الإسلامية
في العصر الحديث
وبحوث أخرى

مقدمة ومجموعة من رآى الإخوان المسلمين
سنة العربية قومت سنة ١٩٤٤



دار الفكر الاسلامى

١٩٤٤ شارع النيل - القاهرة - القاهرة

٩٣٩٩٩٤١

بجمال البنا

مسؤولية

فشل الدولة الإسلامية

في العصر الحديث
وبحوث أخرى

دار الفكر الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش - الظاهر - القاهرة

ت: ٩٣٦٩٩٤

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله

هذه بحوث ومقالات يجمعها أن كل واحدة تعالج هماً من الهموم ، وقرحاً من القروح ، وتحدياً من التحديات التي تشغل البال وتنزف الدم وتعرض الخطر وتوحى الأسى والقنوط . ولكن المعالجة تفتح أبواب الأمل وتحدد معالم السبيل وهي تتسم بالمصارحة والمجابهة التي تبعد بها عن الموارد واللف والدوران والحيث على الحقيقة لحساب المصالح المكتسبة والنظم الحاكمة والفهم التقليدي .

وقد نشرت ثلاث أو أربع منها في صحف معظمها أمريكية محدودة التوزيع . وارتوى اثباتها هنا ليعم بها النفع ولتنجو عما يطرأ لما يكتب في الصحف من نسيان .

وبالإضافة إلى الطريقة المتميزة للمعالجة التي تعرض الحالة الواقعة وتكشف وجوه النقص ثم تصف طرق العلاج فإن موضوعاتها تعطى فكرة عن الأهمية العظمى لها . فأى شيء أهم من دراسة أسباب فشل تجربة إقامة دولة إسلامية في العصر الحديث . وأي شيء أجدر

بالعناية من دراسة كبرى الحركات الإسلامية الحديثة - أى الإخوان المسلمين وتحديد ما يكون من الخير أن تقوم به في نداء حار «إخواني الإخوان». وبالمثل فإن الدراسة الثالثة عن «غياب الرؤية الإسلامية» تكشف جانباً من جوانب النقص في المعالجات الإسلامية. وتعرض الدراسة الرابعة «بين التوقع والواقع» محنة الطالب المغترب والعامل المهاجر وتقدم حلولاً آنية وسريعة كما تضع «استراتيجية» طويلة الأمد. وتقدم مثلاً لذهننا في تركيز العناية على القلب والجوهر وليس على القشر والمظهر.

أما مقال «الإسلام خطط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة» فيتضمن الأفكار الرئيسية لكتاب عن هذا الموضوع نأمل أن يظهر قريباً. وهو يجمل أبرز تحديات العصر وكيف يمكن مواجهتها. وهناك فكرة «نحو إطار لامركزي لحماية وحدة الأمة الإسلامية» الذي يدعو لتناسي الخلافات المذهبية في سبيل الوحدة وتدعيم هذه الوحدة بمشروعات تهدف لتعزيز التواصل بين الدول الإسلامية وتحقيق التكامل الاقتصادي بينها. وبعث الكتاب من محاضر قضية «عربية الجيب» ١٩٤٨ صورة لدستور إسلامي وضعه أحد المتهمين فيها أردنا بنشره إيضاح الفرق ما بين تفكير الإسلاميين قبل الحقبة الناصرية وكيف أنه يخلو من التعسف والتعصب ودعاوى «الحاكمية الإلهية»... إلخ مما يوضح أن هذه الأخيرة هي ثمرة مرة للبذرة التي غرسها عبد الناصر في سجنه ونماها حكمه المتسلط وسياساته الفردية المتعسفة.

وثمة بحث موجز عن «الإخوان والعمل النقابي» الذي أصبح ساحة للوجود الإخواني في المجتمع المصري. أفلتت من قيود الحظر المسلطة عليهم وهو وجود يمكن أن يتضمن خيراً للإخوان وللحركة النقابية بشرط أن يتخلى الإخوان عن «النفسية البرجوازية» التي تسيطر عليهم.

والبحث التاسع هو عن بعض العوامل التي تحكم ظاهرة
الصحة الإسلامية ، ولنظ القوة والضعف فيها .

ويجزم الكتاب بوثيقة هامة ومجهولة تبرز رأى الإخوان المسلمين
في الوحدة العربية بتفصيل ، قدمت منذ خمسين عاماً وهى توضح
أن الإخوان يناصبون هذه الفكرة بقوة ولا يرون فيها ما يخالف الأصول
الإسلامية .

وقد يلمس القارئ تكراراً لبعض المعانى وهو ما يعود إلى أن
كل موضوع من موضوعات الكتاب كتب على حدة ، وفى فترات
زمنية متباعدة فضلاً عن أن التكرار يغتفر للداعية ، إذ لا مناص منه
لتركيز وتثبيت المفاهيم حتى لا يذهب بها النسيان والمشاكل الأخرى .

إننا رغم ما انحدر إليه المسلمون من ضعف ، وما يتبعجج به
الطغاه من قوة ، لم نفقد الأمل ، ولم يتطرق إلينا اليأس وكيف نياأس
ولحن نقرأ قوله تعالى ﴿حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد
كذبوا أتاهم نصرنا .. فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم
المجرمين﴾ يوسف ١١٠ .

جمال البنا

١٤١٥

رجب الفرد

القاهرة

١٩٩٤

ديسمبر



مسئولية

فشل تجربة الدولة الإسلامية

فكر العصر الحديث (*)

لا بد أن نعترف - والأسى يعتصرنا - بأن محاولات إقامة الدولة الإسلامية في العصر الحديث قد فشلت^(١) ، رغم توفر بعض مقومات النجاح ، مما يؤكد أنه لا بد من توفر ما هو أكثر منها . وسنستبعد من أسباب الفشل التآمر الخارجي عليها ، رغم تأثيره الكبير ، وأنه هو الذي تعلق عليه أسباب الفشل لأننا نؤمن بأن التآمر الخارجي إنما يحقق غرضه عندما لا يكون هناك شعبية مؤمنة حقاً ومشاركة فعلاً . وهو ما حدث لتجربتي محمد علي وعبد الناصر في مصر ، ومن أجل هذا نجح التآمر الدولي عليهما في « نافرين » و « حرب الأيام الستة » .

والمفارقة أن هذا السبب لفشل مشروع محمد علي وعبد الناصر ، انتفى من مشروع الدولة الإسلامية في العصر الحديث . فهو في معظم الحالات يقوم على قاعدة مؤمنة ومشاركة ، ولكنه فشل لأن إيمان ومشاركة القاعدة وإن كان يحسب

(*) نشر القسم الأول من البحث في جريدة «القدس» اليومية التي تصدر في لندن العدد ١٦٨٩

في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٤ .

(١) قد لا يصدق هذا الحكم تماماً على تجربة السودان . التي تكافح في ظرو قاسية وغامضة .

المشروع من التآمر الخارجى إلا أنه لا يكفل بالضرورة النجاح للمشروع . لأن من المحتمل أن لا يكون هذا الأيمان سليماً رشيداً . وهذا هو ما حدث لمعظم محاولات إقامة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث ، وكان من أبرز أسباب فشلها .

أصولية الدولة الإسلامية .

لقد طعن بعض الكتاب فى « أصولية الدولة الإسلامية » لعل أبرزهم الشيخ على عبد الرازق الذى رزق بسبب كتابه « أصول الحكم فى الإسلام » شهرة كبيرة ومع أن هذه النقطة ليست من صلب الموضوع إلا أنها ترتبط به وتمثل شبهة كبيرة فى أذهان لثيف من المثقفين ويكون من الخير الفصل فيها .

لقد بنى الطاعنون طعنهم على الأسباب الآتية :

١ - أن القرآن الكريم حصر دور ومهمة الرسول فى التبليغ وصرح بأنه ليس له على الناس أى سلطان وأنه ليس مسؤولاً عن إيمانهم لأن هذا ليس مما يملكه ولكنه مسئول عن التبليغ ، وأنه ليس وكيلاً عنهم أو جباراً عليهم .

٢ - لم ترد كلمة « دولة » بالمعنى السياسى الشائع فى القرآن ولكن « أمة » والفرق بين الدولة والأمة كبير وهو يميل لتأييد وجهة نظرهم .

٣ - ما يتطرق إلى أذهان البعض من تعارض بين الرسالة النبوية التى تقوم على التبليغ وتتسم بالحكمة والموعظة الحسنة والإيمان القلبى ، وسلطة الحكم وما يتسم به من قهر [سجون ، بوليس ، جيش ...] .

ولكن يرد على هذه الاعتراضات .

١ - أن القرآن الكريم أصلاً كتاب هداية الى العقيدة . وإذا عالج شيئاً آخر غيرها من تاريخ أو علوم أو جغرافية فمن باب الاستدلال وإعمال الدهن ، وليس من الضرورى أن ينص القرآن على الدولة الإسلامية .

٢ - أن بعض أركان العقيدة نفسها كالزكاة تتطلب سلطة تتسلح بالإكراه

عند الضرورة فضلاً عن نصوص أخرى عن أمور تدخل في إطار الدولة كمواذعة أهل الكتاب ومقاتلة الباغين ... الخ .

٣ - أن التبليغ يدخل فيه الايضاح والتبيين - خاصة وأن القرآن الكريم يغفل ذكر التفاصيل حتى في أخص ما يتعلق بالعقيدة كالصلاة والزكاة ، والصوم ... الخ . ففى هذه كلها لم يضع القرآن سوى التوجيه العام بدون التفصيل الخاص وقامت « السنة » بذلك ولا يعد هذا افتتاتاً على القرآن ، بأى وجه وعندما نصف أمراً ما بأنه « إسلامى » فإن هذا يختلف عن أنه « قرآنى » لأن الإسلام يضم القرآن والسنة أو « الله والرسول » .

وما يمكن أن ننتهى اليه هو أن مبدأ أصولية الدولة الإسلامية ، أو أن الدولة تدخل في اطار الإسلام أمر لا نرى أنه محل جدل ويمكن أن يستخلص من القرآن نفسه ، وإن كانت الدولة الإسلامية الأولى من انشاء الرسول وما يجوز الاجتهاد فيه ليس هو أصولية الدولة الإسلامية ، ولكن تفاصيل وطريقة ونظام الدولة الإسلامية ، لأن معظم هذا من إنشاء الرسول ، ولم يختلف أئمة الفقهاء في أن ما يقوم به الرسول بصفته الأمام أو الحاكم ليس له إلزام ما يقوم بتليغه كرسل عن العقيدة .

وهذا ما يضيق الشقة بين وجهتى النظر وإنما احتدم الخلاف لجهل فريق بأن نظام الدولة الإسلامية اجتهدى وإن كان مبدؤها أصولياً ، وشدة تعصب وضيق أفق فريق آخر يريد أن يجعل تفاصيلها أصولية لا اجتهد فيها .

الدولة الإسلامية تاريخياً .

ونحن نرى أن الدولة الإسلامية ظهرت بالفعل مع بداية وصول الرسول إلى المدينة . وبدأت على يدى الرسول نفسه عندما أشرف على بناء المسجد ، وشارك فيه . والمسجد في الإسلام هو ملتقى المسلمين كما هو مكان عبادتهم ، إذ لم يكن هناك مكان عام آخر غيره للاجتماع واتخاذ القرارات العامة ومناقشتها .

وبعد إقامة المسجد مارس الرسول برضا وتسليم كل المؤمنين : مهاجرين وأنصار

مسؤوليات رئيس الدولة فقاد الجيوش في المعارك وأبرم المعاهدات وتولى توزيع الزكاة والمالية العامة ... الخ . وهذه كلها من صميم اختصاصات رئيس الدولة بحيث لا يمكن القول إنه كان نبياً فحسب أو أنه أوجد « أمة » ، لقد أقام أمة ودولة ... وكان رئيس دولة قدر ما كان رسول دعوة .

وظهر أثر ذلك في أنه عندما توفى لم يعد العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام . وعندما أراد البعض ذلك اعتبروا مرتدين وأعلنت عليهم الحرب وكان لابد من الابقاء على الدولة التي أقامها محمد حتى لو اختلفت شيئاً ما لأن أحداً ما كان يمكن أن يملأ مكان محمد بملكاته ومواهبه وقدراته ، فضلاً عن خصوصيته الفريدة كرسول ونبي وهكذا وجدنا أنفسنا في « السقيفة » وتمت بعد بعض المناوشاتبيعة أتى بكر .

وعندما أحس أبو بكر بمرض الموت ، أهمه أمر الطريقة التي يأتي بها من سيخلفه ، كانتبيعة أتى بكر « فلتة » بتعبير عمر بن الخطاب وكان أبو بكر يعلم هذا وأراد أن يحمي المسلمين من « فلتة » أخرى غير مأمونة والعهد حديث ولم يمض في الحكم سوى عامين . ولهذا أباح لنفسه أن يختار أفضل المرشحين ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن قام بعملية « شورى » طويلة أكدت له صواب ترشيحه وقبول المسلمين له وهكذا ولى عمر .

ونحن لا نعرض الطريقة التي بويع بها عمر كأحدى الطرق التي يمكن أن تستخدمها الدولة الإسلامية في العصر الحديث ولكن لإيضاح ملاساتها . وقد كان عمر هو المؤهل لوضع نظام « منهجى » لإدارة الدولة . وربما لو اختار في حياته ستن ، وليس بعد موته ستة لوضع بذرة أقرب النظم إلى الإسلام .

ولكن الملاسات لم تكن تتطلب ذلك ضرورة . كان النظام القائم يؤدي دوره ويكفى ، ولو اقترح أحد أن تكون ولاية الخليفة محددة المدة كرفض ، لا على أساس أن هذا يخالف نصاً أو يعارض أصلاً . ولكن لأنه لم يكن له ضرورة وكان من المحتمل أن

ينطوى على مخاطر القفلة في وقت بناء الدولة الجديدة . ولعل هذه الأسباب هي التي حالت دون أن ترد فكرة تحديد مدة الحكم .

فكل نظام سياسى هو ابن ملايساته وموقعه وتاريخه . ومن ثم يفترض أن تختلف النظم . وما حدث في خلافه أبى بكر وعمر كان ثمرة واقعية للملايسات والأحداث . وقد كان من أسباب قوة الامبراطورية الرومانية - في فترة ما - أن بعض القياصرة كانوا يتبنون أفضل الشخصيات ويرشحونها للحكم أو يدفعون بها لممارسة المسؤوليات الكبيرة بحيث يكون توليهم للحكم أمراً تلقائياً . وقد تصور جورج برنارد شو في مسرحية « ميجور برنار » مؤسسة رأسمالية لأصحابها مثل هذه العقلية فهم يتبنون أفضل العناصر في الشركة ويدفعون بها لإدارتها .

المهم في هذا أن دولة النبوة التي أقامها الرسول وانتهت بوفاته ، أعقبتها «دولة الخلافة» التي بدأت بأبى بكر وانتهت بعلى بن أبى طالب وقدمت خلال ذلك نموذجاً ثانياً للدولة الإسلامية حتى جاء النموذج الثالث الذى وإن انطلق من الإسلام فإنه بدأ الانحراف عن المبادئ والمثل التي قامت عليها الدولة الإسلامية ، ومن أجل هذا أطلق عليه دولة « الملك العضوض » .

ومع أن الانحراف عن المبادئ والقيم الإسلامية بدأ مع معاوية إلا أن الموجة التي أثارها الإسلام كانت من القوة والعرامة بحيث جاوزت كل ما أوجده الانحراف ، وسمحت بوجود قادة أكفاء وحملت الإسلام إلى إيران والصين والهند واسبانيا . وظلت الدولة الإسلامية مزدهرة كدولة تآكلت فيها معظم مقومات الدولة الإسلامية ولكن الباقى كان يكفى لاستمرار الدولة . حتى دخلها الترك في أيام المعتصم وأوتيت من الداخل . ولكنها واصلت البقاء حتى هاجمها هولاكو وأسقط الخلافة العباسية عام ٦٥٦ - ١٢٥٨ .

ومع هذا فإن فكرة دولة الإسلام كانت قد تأصلت بحيث أنها عندما قضى

عليها في بغداد وجدت ملاذاً آخر في مصر التي نهضت بها ، ومكنتها من أن تحرز أعظم انتصاراتها : الانتصار على المغول والتتار في عين جالوت . والانتصار على الصليبيين في حطين والمنصورة . وكان انتصار المنصورة آخر عهد الدولة الإسلامية في الشرق بالانتصار . ولما جاء نابليون بعد ثلاثة قرون لم يجد من يقف أمامه كما وقف بيبس وقطر وصلاح الدين .

حقاً رفع الأتراك اللواء الإسلامي وأوصلوه حتى أعماق البلقان وأسوار فيينا وحكموا اليونان ، ولكن الإسلام في سلطنة آل عثمان كان رمزاً أكثر مما كان حقيقة .

وفي الوقت الذي كان أبو عبد الله آخر سلالة بني الأحمر يسلم مفاتيح غرناطة لفردناند وإيزابيلا ليطوى آخر صفحة من حكم الإسلام في إسبانيا ، كان كولومبس يبحر ليكتشف عالماً جديداً وكان التجار المغامرون يمخرون بسفنهم البحار السبعة ليدؤوا العهد الأوروبي وينهوا العهد الإسلامي - حتى وإن جاءت النهاية الرسمية لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ولم يكن في الخلافة وقتئذ من الإسلام إلا الاسم .

من هذا العرض يتضح أن الدولة الإسلامية حقاً لم تدم سوى أربعين عاماً . عشر منها دولة النبوة وثلاثون دولة الخلافة ، ولكن هذه المدة القصيرة كانت من القوة بحيث وضعت تقاليد وأرست أسساً وبنت نموذجاً لآلاف عام . بنسب متفاوتة ، وظلت تتأكل مع الزمن حتى انعدمت كلية في العقود الأولى للقرن العشرين وكان إلغاء الخلافة الرسمي تحصيل حاصل .

وفي الوقت نفسه - فإنه يثبت أن الذين يظنون أن ليس في الإسلام دولة ، ويفصلون بين الإسلام وفكرة الدولة يخطئون في الواقع ، وفي الواجب : في الواقع لأن الرسول أقام دولة نسج على منوالها الخلفاء الراشدون وهذه حقيقة وواقع ، وفي الواجب ، لأن هذه التجربة قدمت إضافة ثمينة إلى عالم النظم السياسية ، وكان يمكن لو ألم بها الأوروبيون أن تثرى تجاربهم . كما أنها تمثل ذكرى عميقة في قلوب المسلمين هي محل زهو ، وفخر ، واعتزاز المسلمين جميعاً ، لأنها بدأت على يدي الرسول نفسه وأشترك فيها صحابته الذين يتمتعون بكل الحب والتقدير ، وأنها تمثل تجربة الإسلام

لوضع نظام حكم لا يقوم على الغلبة أو القوة ، أو الثراء أو الأرستقراطية ومحاولة ابداع حلول انسانية لإصلاح السلطة التي هي مفسدة بطبيعتها . ونجحت التجربة في ذلك ، وإن لم تستمر سوى أربعين عاماً .

دعوة وتجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث .

في أشد ساعات الليل الطويل الذي أطبق على العهد الأخير للخلافة ، انبثق شهاب كان يؤذن بالفجر . كان هذا هو « جمال الأفغانى » الذى دق الدقة الأولى لإيقاظ المجتمع الإسلامى الغارق في سباته . و اراد جمال الأفغانى « دولة » أو « كومونولث » يقوم على أسس اسلامية ويستلهم قيماً اسلامية وكانت وسيلته لذلك إثارة النخبة التى يكون عليها أن تصل إلى الحكم بمختلف الوسائل ، بما في ذلك الثورة .

لم يعيش جمال الدين ليرى صدى صيحته المدوية . ولكن الصيحة كان لها آثار أشهرها ما انتقل إلى محمد عبده . ولكن أهمها - فيما نحن بصدده - هو ما وصل إلى حسن البنا ومجموعة أخرى من المفكرين والدعاة الإسلاميين وقطع في معظم الدول الإسلامية ، وكانت قد سبقته - كما لحقته - محاولات لتكوين دولة إسلامية .

ففى الحجاز ظهر في وقت متقدم داعية إسلامى اصلاحى أراد انقاذ الإسلام من الخرافات والخزعبلات التى كانت حشو أردية الشيوخ والفقهاء وقتئذ . وتعاون مع أحد الحكام بحيث كفل للدعوة الاصلاحية السيف الحاكم وظهرت الدولة الوهابية في نجد أولاً ثم في الحجاز ثانياً ولكن مضمون الاصلاح في فكر محمد بن عبد الوهاب كان ساذجاً ، فقد ارتبط بتخليص العقيدة معا اعتبره شركاً ، يتمثل في التوسل والشفاعة والقباب واقامة المقابر ... الخ .

أما بالنسبة للدولة الإسلامية على وجه التعيين فلم يكن لديه شيئاً أو لم يعنه باعتبار أن ذلك هو اختصاص الحاكم أما هو - الفقيه - فقد عنى بتجريد العقيدة من شبهات الشرك .

إننا لم نكن لنطلب من محمد بن عبد الوهاب أن يقرأ تاريخ الامبراطورية الرومانية أو الثورة الفرنسية أو يعرف ما قدمه مونتسكيو أو جان جاك روسو . إنه لم يكن محتاجاً لهذا ولا كانت رمال صحراء نجد تحمله . ومع هذا فما كان متصوراً حتى في أشد النظم سذاجة وبساطة أن تبنى دولة بهدم القباب ! كان المطلوب من محمد بن عبد الوهاب أن يجرى توازناً بين تخليص العقيدة من أدران الشرك وتخليص الحكم من لوثات الظلم .

في الهند وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية كان المسرح يتهيأ لظهور دولة اسلامية جديدة تختلف ظروفها وملاهباتها اختلافاً كبيراً عن الدولة السعودية .

فعندما وعدت بريطانيا الهند بالاستقلال ، تهدت لمسلمي شبه القارة الهندية مشكلة نظام الدولة القادمة التي كان المسلمون فيها قرابة الثلث أو أكثر عدداً وكان لدى الأغلبية الهندوسية نزعة عدوانية تجاه المسلمين ، أججها الحكم الاستعماري البريطاني الذي أراد أن يفرق وحدة الهند ، وإن ينتقم من المسلمين الذين كانوا أكبر عناصر الثورة عليهم . فقربوا اليهم الهندوس وقلدوهم المناصب وأحيوا فيهم ذكرى الحكم المغولي للهند وغزوات المسلمين القديمة لها ، فتوجس المسلمون خيفة من أن يحكم الهند حكومة تكون الأغلبية فيها للهندوس المتعصبين .

وكان في الهند وقتئذ عدد من أفضل المثقفين الاسلاميين مثل «أحمد خان» مؤسس جامعة عليكره ، وسيد علي مؤلف كتاب «روح الإسلام» ، ومولانا أبو الكلام آزاد الذي كان يعد أكبر شخصية اسلامية سياسية يأتي في حزب المؤتمر بعد غاندي ونهرو مباشرة . وكانت اتجاهات هذه المجموعة اصلاحية . ولم يكن العيب فيهم الفجاجة أو الجهالة أو ضيق الأفق أو غلبة التعصب فقد كانوا جميعاً من قمة «الانتليجنسيا» الإسلامية الملمة بالثقافة الحديثة ، ولكن الذي كان ينقصهم هو وقدة الحماسة الثورية ونظرية «الدولة الإسلامية» وهذا النقص هو ما استدركه ظهور عدد آخر من القيادات كان أبرزهم «محمد اقبال» المثقف الشاعر - السياسي الذي كان لديه نبع لا ينضب من

العاطفة الإسلامية يكفي لرى الدولة الإسلامية المنشودة . ومثل السياسي المناور محمد على جتة رئيس الرابطة الإسلامية الذى استطاع أن يستخلص «باكستان» من قبضة الهنود والمسلمين التابعين للمؤتمراومثل العلامة المودودى الذى تعمق فى الدراسة الفقهية بحيث استخلص أفضل ما تجود به . وكان هؤلاء جميعاً مكونين تكويناً سياسياً ، وكان أفضلهم هو اقبال الذى توفر له قوة الحماسة وسعة الأفق ، ولكنه توفى فى السنوات الأولى للدولة فلم يتسع له المجال ليؤدى رسالته ، وعلى تقيض ذلك انفسح المجال للمودودى ليقدم نظريته عن الدولة الإسلامية التى كانت أفضل ما يمكن أن يخرج به مفكر سلفى .

إما جتة فقد كان سياسياً مطبوعاً ، كان الإسلام بالنسبة إليه قومية للمسلمين تميزهم عن الهندوس وكانت مهمة الدولة الإسلامية هى الحلولة دون تحكم الهندوس فى المسلمين . فميزتها العظمى سلبية - وكان يكفي أن تقوم الدولة وتضفى حمايتها على المسلمين وتكفل لهم حرية الاعتقاد لتقوم بدورها ، ولم يكن ليرفض بعد ذلك أن تكون أوروبية الهوى . وقد كان هو نفسه «باريستر» بريطانيا ، أقرب إلى البريطانيين منظرأ ، ومزاجاً منه إلى شعب الباكستان .

وظهر وقتئذ مفكر التحق بخدمة باكستان هو الخساوى اليهودى محمد أسد سابقاً ليوولد فايس] الذى آمن بالإسلام عن اقتناع ، ووصل إلى لب وجوهر الإسلام وأصدر مجلة «عرفات» وأخذ يدعو لفكرته عن الدولة الإسلامية - كما يجب أن تكون . واكتشف نفاق السياسيين الباكستانيين تجاه الإسلام . ولو استلهمت باكستان إقبال ومحمد أسد لكانت أقرب إلى الدولة الإسلامية المنشودة . ولكنها استلهمت المودودى من ناحية ، وجتة من ناحية أخرى فوقفت بين السلفيين التقليديين والسياسيين الانتهازيين .

وكما قلنا آنفاً ، فإن المودودى استطاع أن يقدم رؤية سلفية للدولة الإسلامية بأسلوب سهل سائق ، مدعم بالآيات والأحاديث ، مسلح بالأمثلة التى تعين عامة الناس على الفهم .

ولكن هذا الفكر كان ساذجاً ، يفترض أن في النصوص وحدها قوة تهزم الطبيعة البشرية ، وكان يتجاهل التعقيد الاجتماعي ، وما يطرحه العصر من مشكلات وقضايا جديدة بالمرّة لا يمكن للقياس السلفي معالجتها .

كانت قوة فكر المودودي أنه فكر سلفي يتسلخ بأقوال الفقهاء وكان ضعفه أنه أيضاً - سلفي - يتخلف عن التطور .

ولعل باكستان أقدر من أي دول إسلامية أخرى على حل أزمتها ، لأن هذا لا يتطلب منها سوى أن تطوى كتب المودودي وتفتح كتب اقبال وأسد . وأولما بطل من أبطال باكستان لا يقل عن «القائد الأعظم» جثته نفسه والثاني مفكر إسلامي وهب زهرة عمره لخدمة باكستان وقدم أفضل تصور للدولة الإسلامية .

ولكن يظل أمام باكستان - كما يظل أمام الدول الإسلامية الأخرى - ظهور القيادة النابغة ، وهذا ما لا يمكن أن تأق به الكتب - وإن كان من الممكن أن تصقلها - ولكن يأتي بها الله تعالى .

وهذا ما يصلنا بإيران ، لأن الله تعالى أنعم على إيران بهذا العنصر الثمين ، ويسر لها قائداً تبلورت فيه الدعوة للدولة الإسلامية .

ولو أن نهضات الأمم تقاس بحماسة لقائدها ، وطاعتها له ، لحازت إيران الخميش قصب السبق .

ان إيران تقدم لنا صورة ثلاثة لتجربة الدولة الإسلامية توفر لها العديد من مقومات النجاح ، ولكنها مع هذا لم تنجح !

فها هي ذي دولة تتوفر لها كل مقومات النجاح كدولة ، إن لم تكن كبرى فوسطى ، لديها ثروة بترولية تجعلها الثانية في العالم ، ولديها أراضى فسيحة صالحة للزراعة ومعادن ومناجم عديدة وشعب ذكي عريق يحق له أن يفخر - كمهيار - بحضارة الفرس ودين العرب .

وكانت هذه الدولة محل أطماع الدول الاستعمارية في العصر الحديث ، وبوجه خاص روسيا المتاخمة لها وبريطانيا العظمى في ثرواتها ، وحاولا اقتسامها وانتهابها ، فعمدت روسيا إلى استلحاق المناطق المتاخمة لها ، بينما حاولت بريطانيا استنزاف ثرواتها بالاتفاقيات التجارية وكان من هذه الاتفاقيات اتفاقية اجتكرت بمقتضاها شركة بريطانية انتاج وتوزيع «التبأك» وهي المناسبة التي استصرخ فيها جمال الأفغانى المجتهد الأعظم «الشيرازى» الذى أصدر فتوى حرم بها استعمال التبأك فأضرب الناس جميعاً عنه وقيل إن الشاه عندما طلب نازجيلته ، قالوا له لقد حرمها الشيرازى . وكادت الشركة تفلس حتى عرضها الشاه .

وانتهى المملك في هذه الدولة إلى قائد عسكري اغتصب الحكم حتى جاء عليه الدور عندما عزله الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وولوا ابنه . وكان هذا الآن - شاه رضا بهلوى - شخصاً مجرداً من الموهبة مزهواً سطحيّاً اغتر بثروات بلاده الطائلة فأخذ ينفق منها بسفه اعاد إلى الأذهان سفه الخديوى اسماعيل في أيامه . وكان هو وأسرته . نور السلطة ، وبؤرة الفساد الذى أخذ يستشرى ويلتهم ثروات البلاد ، وكان همّ الشاه الوحيد هو أن يوجد لنفسه ولى عهد لكان إيران ببلونه ستفلس ا وطلق زوجاته في هذا السبيل حتى جاءت آخر زوجاته بولى العهد الذى عندما ظهر كان قد فقد العرش ، وأصبح ولى العهد مشرداً طريداً ، كولى عهد فاروق من قبل .

وكان الشاه عازفاً عن الإسلام يستند في حكمه على أسنة الرماح ، وعلى حماية «السافاك» وعلى تأييد أمريكا التى جعلته «شرطى» الخليج وحاول أن يقوم بثورة بيضاء فشلت فشلاً ذريعاً لغلبة الفساد والبيروقراطية .

وكان في إيران «الثلجنيسيا» اسلامية ، مكيفة تكييفاً سياسياً بالنسبة للاتجاه السياسى للمذهب الشيعى الذى يرى في الإمامة ركناً من أركان العقيدة ، مثل على شريعتى وهنرى صدر وبازرجان وغيرهم من الذين أَلَمُوا بالثقافة العصرية واحتفظوا بالأساس الشيعى/ الإسلامى ولكن الشاه ما كان يسمح لهم بالظهور أو يسمح لأفكارهم بالانتشار .

في هذه الملابس ظهر على الساحة آية الله خوميني الذي كان الشاه قد لاحقه بالاضطهاد ثم نفاه ، فمكث بذلك من حرية العمل .

وتجمعت في آية الله خوميني الصفات التي تُكوّن القائد الرمز ، وتجعل الجماهير تعطيه حبها أو حتى هوسها بحيث قدر له أن يكون رمز الثورة التي حان حينها . وما إن غادر منفاه في فرنسا إلى إيران ، حتى تهاوى النظام الامبراطوري الشاهنشاهي كبيت من ورق فهرب الشاه وهرب ضباط السافاك القساة . واستسلمت المؤسسة العسكرية التي كانت أكبر قوة عسكرية في المنطقة تضم جنرالات الجيش واميرالات البحر ونسور الجو ، وكلهم من الضباط المحترفين الذين تمرسوا بالضبط والربط العسكري وتلقوا تدريبهم في الولايات المتحدة . وغصت طهران بالجماهير التي جاءت من كل حذب وصوب للترحيب بهذا الشيخ العجوز ..

لقد قارن كاتب أوروبي استقبال الروس للينين عندما عاد من منفاه في سويسرا عام ١٩١٧ باستقبال إيران لخوميني ، ولكن هيئات هيئات ، فالذين استقبلوا لينين على المحطة كانوا عشرين أو ثلاثين ألف نصفهم من أنصاره ، ونصفهم من المعسكرات الأخرى ، أما عندما جاء خوميني ، فإن الشعب الإيراني بقضه وقضيضه كان في انتظاره .

وبدأ عهد جديد .

وتوفر لهذا العهد معظم مقومات النجاح .

فهو دولة غنية قوية يسكنها شعب مؤمن وثمة نظرية للامامة وهناك زعيم يحرك الجماهير .

من أجل هذا بدا وكأن تجربة إيران أقرب تجربة إسلامية إلى النجاح .

ومع هذا فقد كان مقضياً عليها أن لا تبلغه .

إن القوى الأوروبية لمست قوة هذا النجم الصاعد في سماء الإسلام . فزجت به في حرب لمدة ثمان سنوات ، استنزفت فيها كل ثروات إيران والعراق ، وجزءاً كبيراً من ثروات العرب .

صحيح أن الأمام الخميني أحسن عندما أنقذ الفكر الشيعة من آثار فكرة «غيبة الأمام» وأنه في هذه الغيبة ، لاجدوى من أى عمل . لقد قضى على هذه الفكرة التي كانت تعطى الكفاح أجازة مفتوحة وتعفى أصحابه من العمل ، ولكنه لم يستطع التحديد السليم في فكرة «ولاية الفقيه» بين موروثة المذهب وضرورات العصر . حتى وإن بدت الفكرة «ولاية الفقيه» لازمة مادامت الثورة قد قامت على نظرية فقهية إسلامية .

وكان على شريعتي - انه مفكرى الشيعة - قد وضع حلاً للفكر الشيعة يخلصه من أزمتة ، عندما أوجد فاصلاً بين التشيع العلوي الذي يعود إلى علي بن أبي طالب والتشييع الصفوي الذي يعود إلى الدولة الصفوية التي حكمت إيران في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، واستبعد شريعتي كل التشيع الصفوي باعتباره غريباً على التشيع العلوي وأنه تأثر بالعداوة المريرة والحروب الطاحنة بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية التي كانت تمثل السنة .

ويبدو أن هذا كان أكبر مما يمكن أن يحتمله آيات الله لأنه كان يتطلب عملية جراحية في المذهب تودي بأجزاء اعتبرت من صلبه وهو ما لم يستطعه خميني ، ومن هم بعده ، ممن كانوا أضعف من أن يقوموا بهذا التجديد الجذري .

ولا نستطيع أن نحدد نسبة «إسلامية» الدولة القائمة في إيران اليوم ، وهذا في حد ذاته دليل على غموض هويتها وتميعها .

في الأفغان نجد تجربة رابعة لحكم إسلامي ، بدأ كمقاومة إسلامية للاحتلال السوفيتي ، وانتهى بأن أصبح محوراً لحرب أهلية بدلاً من أن يكون قاعدة لسلام اجتماعي .

هذه البلاد الجبلية الشاهقة التي أهدت للعالم الإسلامي الثوري الأعظم جمال الدين ، والتي هزمت كل من أراد أن يدخلها بما في ذلك الانجليز - تعرضت لاحتلال سوفيتي نتيجة للخيانة من الداخل وتواطؤ الحزب الشيوعي .

أيقظ هذا الحدث الحاسمة الإسلامية وتبلورت فيها روح المقاومة وارتفع اسم

المجاهدين وإنهالت المساعدات عليهم من العالم الإسلامي ، بينما هزعت مجموعات عديدة من الشباب المسلم للمشاركة في الجهاد .

وقد عُلم الآن أن ماقدمته الولايات المتحدة كيداً في الاتحاد السوفيتي ، وليس حبا في الأفغان قد يفوق ما قدمه العالم الإسلامي ، وربما كان العامل الذي كفل للمقاومة الإسلامية النجاح .

وهذا لا يضائل من أثر العنصر الإسلامي في المقاومة ، فلو لم يكن موجوداً وعميقاً في الشعب الأفغاني لما ظلت المقاومة ، ولما انتصرت في النهاية . على أن انتصار المقاومة وطرد المحتل الأجنبي أسفر عن مأساة . ان الفصائل التي قادت الجهاد ، بدلاً من أن تعكف على بناء الدولة التي أحالتها الحرب إلى إنقراض أخذت تحارب بعضاً للاستيلاء على السلطة وتجهز على البقية الباقية من البلاد .

أين هنا الوعي الإسلامي ؟ لقد كان قوياً عندما كان الأمر محاربة الشيوعيين ... الكفرة ... الأجانب .

ولكنه لم يظهر ليحول دون أن تقاتل الفصائل المجاهدة بعضها بعضاً . وأقل ما يقال فيه أنه وعي ناقص .

هذه أربع تجارب لإقامة دولة إسلامية ، توفر لها بعض مقومات النجاح^(١) . فيها جميعاً وجد شعب مسلم يريد من كل قلبه الدولة الإسلامية . وفي دولتين - السعودية ، وإيران - لم يكن العامل الاقتصادي حائلاً أو معوقاً . لأنهما يتمتعان بثروات كبيرة .

لماذا إذن فشلت تجربة الدولة الإسلامية ؟

(١) لم نتحدث عن تجربة السودان التي تكافح بقوة - ولعلها أفضل التجارب - لعدم توفر المواد التي تبني عليها الأحكام . كما لم نتحدث عن مصر لأن دعوة إقامة دولة إسلامية أصبحت بضرية قاضية باغتيال الإمام الشهيد حسن البنا ولا يمكن أن تنهض منها الا عندما يظهر بنا ثاني يبدأ حيث انتهى الأول .

أسباب فشل تجربة الدولة الإسلامية :

كان السبب الرئيسى الذى أدى إلى فشل تجربة الدولة الإسلامية فى العصر الحديث هو عدم تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية التى تميزها عن غيرها وتتضمن مقومات النجاح . مثل هذه الرؤية تكون نتيجة انصهار العناصر العديدة المكونة لها فى بوتقة العقيدة بحيث تخرج سبيكة أصيلة بعيدة عن التلفيق فى الأهداف أو التناقر فى الوسائل ، فوسائلها تؤدى إلى أهدافها ، وأهدافها ثمرة وسائلها ، وهذا وذاك محل رضا وقبول الذين قدمت إليهم .

وبدئى أن الشرط الأول لنجاح أى تجربة جديدة فى عالم النظم هو سلامة النظرية أو العقيدة التى تقوم عليها التجربة ، فلا تجربة بدون نظرية ، لأن النظرية هى محور العمل فهى التى تحدد الوسائل والغايات ، وتعين الأولويات وتحصن أصحابها من الانزلاق أو الانحراف ، فالنظرية الماركسية بدت سليمة منذ أن وضعها ماركس فى منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى أساسها قامت تجربة «الاتحاد السوفيتى» وكانت تجربة مثيرة ، وحققت إنجازات ضخمة ، ولكن ظهر فى سنواتها الأخيرة النقص الكامن فيها الذى لم ينتبه إليه دعاؤها حتى استشرى وأدى إلى نهايتها .

ويعود العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية إلى أن صورة الدولة الإسلامية التى أقامها الرسول ، وسج على منوالها الخلفاء الراشدون كانت قد طمست فى الفكر السياسى الإسلامى ، أو اعتبرت مما لا يمكن تكراره ، وانها أقرب إلى النبوة التى لا تتكرر منها إلى الملك الذى تدور عليه الأمور . وهذه الفكرة نجدها فى بعض كتابات المتقدمين مثل الجاحظ فى «التاج» والطبري فى «الفخرى» ، ولعلهم وجدوا فى قصر مدتها وسمو مثالياتها ما يشفع لهم فى هذا الحكم . وإلا لكان عليهم الاقرار بأن كل ما تلاها - من عهد معاوية حتى عصورهم - كان ملكاً عضوضاً يختلف عن الخلافة الراشدة ، وما كان يمكنهم أن يقرؤا بذلك وأحكام هذا الملك مبسطة وسيوفه مصلته .

وقد حاول الأئمة فى الأيام الأولى للمهد الأموى والعباسى الثورة على نظم الملك

العضوض واشترك في هذه الثورة الأئمة الأربعة : مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل ، وتعرضوا لأشد صور الأضطهاد . وفشلت الثورات التي قام بها بعض الطالبين لأن رجال الملك العضوض كانوا أدرى بفتون القتال ولديهم الجيوش والأموال . وكانت النتيجة أن نفى الأئمة اليدين من موضوع الدولة ، وركزوا جهدهم في العبادات التي لا تدخل للحكام فيها ، وشيئاً فشيئاً زحف النسيان على القيم التي كانت هي سر قوة دولة الإسلام ، ولم تبقى إلا الممارسات الظالمة للحكام . وأصبح أقصى آمال الفقهاء أن تتمسك الدولة « بحفظ الدين » باعتباره المقصد الأول من مقاصد الشريعة أي أنهم عاجلوا الدولة من المنظور الفقهي ، وليس من المنظور السياسي . وهو ما يتفق مع ما اضطروا إليه من اطراح معالجة الدولة معالجة سياسية بعد أن هزموا أمام الحكام واقتصروا على الفقه والعبادات . ولعلهم أرضوا ضميرهم بأن « حفظ الدين » يتضمن فيما يتضمنه الثورة على الظلم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنهم لم يصرحوا بذلك لأن المجال ما كان يسمح لهم بذلك . والتبس الأمر على من جاء بعدهم خاصة وأن المجتمع الإسلامي كان يتدهور بحيث أصبح مفهوم حفظ الدين هو إقامة الشعائر الدينية والمحافظة على ظواهر الفضيلة .

وظل هذا الفهم يتدحرج حتى وصل إلى الدعاة الاسلاميين الذين إما أنهم كانوا فقهاء بالفعل أو أنهم استمدوا أفكارهم من الفقه التقليدي ومن ثم كان الفهم السائد في الدعوات الاسلامية المعاصرة للدولة الإسلامية ، أنها الدولة التي تقيم الصلوات ، وتقوم الإلحاد والبدع التي يدخل فيها تبرج النساء وشيوع الفنون .

وهذا خطأ بالغ تاريخياً ، وأصولياً وعملياً ، أما تاريخياً ، فلا خلاف أن المسلمين الأول ما أقاموا دولتهم وسيروا جيوشهم لحمل الناس على الصلاة وحجب النساء في البيوت . لقد كان الجديد الذي تمزوا به عن أقرانهم العرب ، وعن الفرس والرومان ، ان الاسلام زودهم بالقيم الحضارية التي لم يكن لها حساب عند الآخرين فعرفهم على العدل والمساواة والحرية ، والخير والعمل الصالح ، والايثار والاتفاق ، وكرههم في الظلم والاستغلال والآثرة والبخل والاستعباد للشهوات . وكلل هذا كله بالإيمان بالله ، أصل هذه القيم ، ومبدعها الذي كفل لها القداسة التي تصل للإيمان ،

والموضوعية التي تحول دون التلاعب . وقد لا نجد في كتاباتهم وأقوالهم التي وصلت إلينا شيئاً بهذا الأسلوب ، لأن الأساليب تتبع المهود ، ولكن مضمون ما فهموه هو ما قلناه وهذا هو ما يخرج به أى واحد يقرأ القرآن مجرداً فلا ريب أن قلبه سينخلع مما وضعه من وعيد للظلم والجور واستعباد الناس ، وأن نفسه ستستبشر لما وعد به المؤمنين من نعيم لقاء البذل والتضحية والانفاق والعدل والايثار وستتقظ ذهنه من رواسب الآباء والأجداد والتقاليد والأوضاع وسيسير في الأرض لتكشف له العوالم وآثار الأقدمين .

ولا يمس هذا أن تلجأ النصوص في بعض الحالات إلى تجريد مثل «في سبيل الله» أو «وجه الله» أو «لتكون كلمة الله هي العليا» لأن هذا في النهاية هو ما جاء به الإسلام من فعل الخيرات وتجنب الموبقات . والمقصود بالتجرد ليس هو الفعل ، لأننا لا يمكن أن نقدم لله تعالى ما ينفعه بالطاعة أو ما يضره بالمعصية ، وإنما يمكن أن نتقرب إليه بطاعة أو امره . والمقصود بالتجريد هو خلوص النية في العمل وأن يكون صادقا فلا يتغنى به الكسب الشخصي أو الرياء أو النفاق أو الزهو لأن هذه بالطبع ستكون لها انعكاساتها على سلامة العمل . ومع أننا قد لانجد الصيحات الانتهازية الشعبية الثورية على طريقتنا الخاصة في هذا الزمان ، فإن من يراجع كلام جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي عندما سأله عن الإسلام ، ومن يقرأ كلام قادة الجيش الإسلامي قبيل القادسية للقائد رستم ، يلمس تماماً أنهم فهموا الإسلام هذا الفهم : أنه أمرهم بمكارم الأخلاق ونهاهم عن سفاسفها ، وأنقلدهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، من عبادة الحكام إلى عبادة الله وإن الإسلام «يُحَسِّنُ الحسَنَ وَيُقَبِّحُ القبيح»^(١) . وأن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلامهم^(٢) . وهذه الكلمات المنقولة بنصها تبرز الوجه الاجتماعي والإنساني لدولة الإسلام ، وأنه هو الذي يمثل امتيازها .

(١) وكما لاحظنا في مكان آخر ، فإن النعمان بن مقرن عندما قال ذلك ببساطة «انه يحسن الحسن ويقبح القبيح» حل مشكلة المثزلة بأهون الأسباب وبأفضل الصور .

(٢) هذا ما قاله ربيع بن عامر لرستم عندما سأله «أسيدهم أنت ؟» ، فقال «كلا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أديانهم على أعلامهم» .

يتضح لنا اذن - من الناحية التاريخية - أن صورة الدولة في أذهان المسلمين الأول ، وكما وصفها القرآن الكريم وطبقها الرسول كانت شيئاً مختلفاً بالمرّة عما تركته لنا كتب الفقه الإسلامى عن مضمون «حفظ الدين» وأنه اقامة الشعائر ، ومحاربة البدع .. الخ .

وان عنصر القوة فيها لم يكن فيما جاء به الإسلام من صلاة أو صيام ، فهما في كل الأديان . ولكن في القيم التى أبدعت نمطاً جديداً من الدولة لم يكن للبشرية عهد بها ، وكانت هذه القيم هى التى كفلت للدولة الإسلامية الانتصار والازدهار .

ومن الناحية الأصولية فالمفروض أن «حفظ الدين» لا يدخل في الشريعة ، ولكن في العقيدة ، لأن الشريعة انما تخص المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وما يتصل بالناس وعلاقاتهم بعضهم ببعض . أما ما يتصل بالله فهو إلى العقيدة أقرب وأمس ، وأمور العقيدة من صلاة أو صوم أو حج والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر ... الخ - تقوم على الإيمان الذى يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يمكن أن يدخل فيه قسر . ولما كانت خصيصة الدولة المميزة لها عن غيرها من التنظيمات أنها هيئة قمع ، وان في يدها الجيوش والسجون والمحاكم والبوليس ، فإن هذه الخصيصة لاقية لها في مجال العقيدة ، بل ان أى زج بها في مجال العقيدة سيلوث العقيدة . فهذه القوى ، قوى القمع ، لا تفرس فضيلة أو تنمى إيماناً أو تقتلع شهوة فالشهوات في أعماق النفوس تجري من الانسان مجرى الدم ، واذا أغلقتها الدولة فسيلجأ الناس إلى التحايل ، وفي بعض الدول الاسلامية «المغلقة» يسافر الكثيرون إلى أوروبا شهراً أو اثنين كل عام ليرتوا من شهواتها ويعبوا ما يكفهم جفاف بلدتهم من العام إلى العام . ومن لم يستطع السفر فإن التليفزيون يقدم ما يشبعه .

ومن الناحية العملية ، فإن الدولة هى أعجز الهيئات والمنظمات في مجال العقيدة والفضيلة . فما قامت العقائد بالسيف ولا تبقى بالسيف ، وإنما تقوم بالإيمان ، وتزدهر في مناخ الحرية وتبقى وتتأصل في النفوس بحكم صلاحيتها الموضوعية ، وأنها

تمثل قيم الحب والخير والجمال والعدل والحرية ، وقد انتشر الاسلام في بلاد لم تطأها
خيول الجيوش الإسلامية ، ولكن ارتفعت فيها اعلام الصوفية ، أو المعاملات السمحة
لتجار .. أكثر مما دخلها بالغزو . وقد انحسر الاسلام عن إسبانيا التي فتحها طارق
بن زياد وموسى . بن نصير ، ولكنه ظل في الملايو واندونيسيا التي لم تدخلها الجيوش ،
بل يمكن أن نعود إلى الأيام الأولى للبعثة النبوية فنقول مع عائشة «فتحت المدينة بالقرآن»
وكان هذا هو الفتح الأعظم ، ولم يكن بالسيف ، ولكن بالقرآن .

وقد يذكر هنا أن مما ضلل بعض الدعوات الإسلامية سوء فهم الأثر «يزرع الله
بالسلطان مالا يزرع بالقرآن» وحملهم له على غير عمله والفهم السليم للإسلام يضع
الأثر موضعه ويجعله مخصوصاً بفئات شاذة ، شاردة ، منحرفة ، يكون على الدولة أن
تتعامل معهم بوسائلها .

ومن الأسباب التي أدت إلى العجز عن تقديم الرؤية المنشودة للدولة الإسلامية
أن بعض الذين قدموا هذه الرؤية كانوا من الفقهاء الذين لم يكن أمامهم مفر من الالتزام
بالتصور الفقهي . فتهكذبا تعلموا وعلى هذا شبوا . وكان البعض الآخر من الضباط
والعسكريين الذين هم بحكم تربيتهم العسكرية آخر من يصلح لوضع رؤية الدولة
الإسلامية إلا إذا جعلنا الوطن ثكنة ، والشعب جيشاً . وفي دول قبلية كانت الوسيلة
لتدعيم الدولة الناشئة هي أن يصهر رئيسها إلى القبائل بحيث يوجد نسباً ويضمن ولاء .

أين المفكرون والمثقفون :

لعل جمال الأفغانى كان أقدر الجميع على تقديم الرؤية المثلى ، ولكنه - ربما
لطبيعته النفسية النائرة على الظلم - رأى أن عليه أن يهدم قبل أن يبنى فشغل نفسه
بهدم معازل الحكم المطلق والاستبداد في مضر ، وفارس ورزق حفظاً من النجاح ، ولكن
هذا شغله عن قضية بناء الدولة ، ولم يضع تصوره عن الدولة . ولكن يمكن أن

نستخلص أفكاره الرئيسية من كتاباته ، فهو على نقبض ما ادعى المستشرقون لم يكن يهدف إلى «جامعة اسلامية» أو «خلافة إسلامية» أخرى ولكنه كان يدعو إلى «كومنولث إسلامي» أو حتى غرس الحكم الإسلامي في دولة واحدة تكون البداية وتصور أن السبيل إلى ذلك هي الثورة الشعبية التي تقودها النخبة المؤمنة ، وليس ما يقدمه الحكام . وبالنسبة للحاكم ، فإنه أراد «تاجاً بدون رأس ، أو رأساً بدون تاج» أي ملكاً دستورياً يملك ولا يحكم أو رئيس جمهورية لا يدعى الملك أو التاج .

أما محمد عبده فقد تحول من الثورية إلى الإصلاحية في أعقاب فشل ثورة عرابي ولم يدع يشغل نفسه ببناء الدولة ، ولكن بإصلاح الدولة ، وربما شغل عن هذه أيضاً بتقية العقيدة من الغشاوات التي زحفت عليها .

وقدم لنا «الكواكبي» صورة للفتى شعي للمسلمين في مختلف دول العالم «مؤتمر أم القرى» استعرض وجوه النقص ، وكيف يمكن إصلاحها وكان قد ندد في كتابه الأول «طبائع الاستبداد» بالحكم الاستبدادي المطلق ، ولكن لم يضع لنا تصوراً محدداً للدولة الإسلامية .

وأعاد حسن البنا الفكرة الجهادية إلى الدولة الإسلامية بعد أن كادت إصلاحية محمد عبده أن تنسيتها وأراد صيغة تجمع بين النهج الديمقراطي والطبيعة الجهادية للدولة الإسلامية . والقضية في حسن البنا هي أن اغتياله المبكر - وبدون انتظار - وهو في قمة العطاء ، حال دون أن يقدم اضافته كاملة .

وتوفر للدكتور حسن الترابي عناصر لم تتوفر لغيره فهو أصلاً ابن الأخوان المسلمين ، على يديهم تدرب وفي مدرستهم نشأ . فألم بخبراتهم ثم سارحيث وقفوا ورزق ملكات شخصية ، ومواهب ومستوى ثقافي إسلامي وعصري . ولعله يكون أقرب الزعماء الإسلاميين إلى التصور الأمثل للدولة الإسلامية .

وخلال دراستنا للدعوات الإسلامية اكتشفنا أن زعماء الدعوات الإسلامية الذين يتبعهم الجماهير يصبحون هم أنفسهم اتباع الجماهير ! بمعنى أن الزعيم الذي يتوصل بحكم الدراسة والتأمل وسعة الاطلاع والمقارنة إلى فكر أكثر تقدماً من المستوى

الذى عليه الجماهير أو الحالة النفسية التى تسمح لهم باستيعابه ، يتردد فى اعلانه لأن اعلانه سيكون على حساب الطاعة العمياء والتسليم ، وقد يفسح مجالاً لأعدائه للكيد والنقد . وقد عزل عمر بن الخطاب بعض ولاته لأنه على ما قال - وكرهت أن أحمل الناس على فضل عقله . وهذا ما يؤدى بنا إلى نتيجة قد تثير الدهشة ، هى أن زعماء الهيئات والدعوات الإسلامية قد لا يكونون أقدر الناس على اعلان الصورة المثل للدولة الإسلامية لارتباطهم بمستوى جماهيرهم وفهمها التقليدى ، وان الذى يمكن أن يقوم بذلك هم المفكرون . ومرة أخرى اننا قد نجد المفكرين ولكننا نجد لدى معظمهم وشائج تربطهم بالنظام الحاكم أو الهيئات القائمة أو غيرها من الالتزامات التى تحد من حريتهم . وتصل المأساة إلى قمتها . فعندما نجد أخيراً المفكر الحر نجد أنه لا يستطيع توصيل فكرته إلى رأى العام لأنه مادام حراً فيقلب أن تعزف عنه الهيئات والمؤسسات القائمة ، ومن ثم تقيم حوله سداً من التعتيم ، ولا يستطيع فكره أن يصل إلى الناس أو أن يمهّد الطريق أمام زعماء الهيئات ليجددوا . ونحن من سنة ٤٦ نقول «لا تؤمنوا بالايمان . ولكن آمنوا بالإنسان»^(١) أو «الإسلام يريد الإنسان بينما يريد الفقهاء الإسلام»^(٢) دون أن نجد صدى فى حين أن هذه هى أهم مقاتيح التجديد فى فهم الإسلام .

لأبد من نظرية :

استعرضنا حتى الآن تجارب الدول الإسلامية فى العصر الحديث ، ورأينا أن من أبرز أسباب فشلها العجز عن تقديم الرؤية السليمة للدولة الإسلامية للملايسات التى أحاطت بقياداتها . فإذا أردنا أن نتقل من هذا الشق السلبي إلى شق ايجابي ، فإن أول خطوة ~~هذه~~ - ولعلها أهم خطوة - هى ارساء نظرية إسلامية عن الدولة . وقد أشرنا اشارة عابرة فى فقرة سابقة إلى أهمية النظرية : والأمر يتطلب - فيما نرى - مزيداً من الإيضاح .

(١) أنظر فصل «فهم جديد للدين» من كتاب ديمقراطية جديدة للكاتب وقد صدر سنة ١٩٤٦ ص ٥٢ .

(٢) أنظر باب «عندما تتصافح البلدان» من كتاب «كلا لم كلاه» للمؤلف - ١٩٩٤ ص ٢٤٩ .

فالنظرية هي مجموعة المبادئ والقواعد والتوجيهات التي تنبثق من أصل واحد .
ويتوفر لها بحكم هذا الأصل الواحد التناسق والانسجام ، ويستبعد منها التضارب
والتضاد والتلفيق ، وعادة ما تكون من ابداع عبقرى يرى مالا يراه معاصروه ، ويصل
إلى ما لم يصلوا إليه ، ويستطيع أن يجمع السابقين عليه والمعاصرين له فى صياغة واحدة
محكمة ، ثم يضاف إليه - مع الزمن - أرتال من المفكرين .

نخذ مثلاً النظرية الاشتراكية على اختلاف أطرافها - فقد كان لها دعاة مع
بدايات القرن التاسع عشر ، مثل روبرت أوين وبرودون وفورييه وبلانكيه ... الخ ،
ثم ظهر ماركس وإنجلز وعاصره فى ألمانيا لاسال ولينبخت وبيل وكاوتسكى وبرنشتين
وجاء بعدهم روزا لوكسمبرج وكلارازاتكن ، وظهر فى روسيا القصية بليخانوف -
أول من نقل أعمال ماركس إلى الروسية ، واكسلرود ، ثم مارتوف ولينين
وتروتسكى - وقبلهما - باكونين وكروبوتكين وبعدهما بخارين ومدام كولونتاى . وفى
البحر ظهر كيرهاردى ووليم مورس ومعهم سيدنى ويباترس وب وكون . وفى فرنسا
ظهر جوريس وجيزده وفى ايطاليا تورانى وإنجليكا بالابنوغا وفى بلجيكا والنمسا فاندرفيلد
وادلر ، وفى الولايات المتحدة دانييل دى ليون ..

وكل واحد من هؤلاء الذين ذكرناهم من باب المثال لا من باب الحصر ،
مفكر ، ومؤلف ومجتهد أو قل هو شيخ مدرسة داخل الاطار العريض للاشتراكية وله
العديد من المؤلفات والمراجع والعديد من الدعاة والمريدين ، ولا يقتصر الأمر على هؤلاء
إذ يوجد بجانبهم كتبية من الفنانين والأدباء والشعراء الذين غطوا الساحة الأوروبية والأمريكية
بالكتابات الاشتراكية بحيث تأثر المجتمع الحديث كله بدرجات متفاوتة بفكر اشتراكى .

وجاوزت الاشتراكية الحدود الأوروبية حتى وصلت إلى آسيا وإفريقية فظهر
ماوتس تونج ونهرو وهوشى منه وقضت على المشاعر «الشوفونية» فعندما كانت الحرب
مشتعلة ما بين اليابان وروسيا (١٩٠٤/١٩٠٥) وقف كاثنامى مندوب اليابان يصفاح
بليخانوف مندوب روسيا على منصة مؤتمر الدولية الثانية (امستردام ١٩٠٤)^(١) .

(١) أنظر كتابنا لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة ص ٢٠ .

وخذ الرأسمالية . ففي فرنسا كان لها كيناي ، ثم ظهر آدم سميث وعرضها في كتاب ثروة الأمم ١٧٦٦ عرضاً سائفاً دلل فيه على حسنات حرية العمل ، وسوءات أى تقييد أو تدخل ، وأبرز آليات السوق وكيف تعمل ثم تناول الرأسمالية ريكاردو ، وميل وبثام وغيرهم في بريطانيا ، وعشرات أو قل مئات الكتاب والاقتصاديين في ألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة الخ .

وجاء السياسيون ، فأقاموا الديمقراطية على الأسس الرأسمالية نفسها «الحرية» ونقلوها من المجال الاقتصادى إلى المجال السياسى حيث يحل «الحكم» محل «وازع الربح» والأحزاب محل الشركات ... الخ .

فإذا أريد قيام دولة اسلامية ، فلا بد من نظرية اسلامية تقوم عليها الدولة وتعمل باستلهاها ول ضوعها .

إننا لانكاد نعثر - فيما بين يدينا - على نظير بمعنى الكلمة ، وإنما نجد تلفيقاً يجمع بين أفضل ما فى الرأسمالية والاشتراكية ويوظف أصحابه عدداً من الآيات والأحاديث لمساندتهم .

التلفيق لا يجدى ، ومحكوم عليه بالفشل ، لأنه محاولة للجمع بين الأضداد .

والمبادئ المجردة أيضاً لا تجدى . فمثلاً ما معنى «اقامة ديمقراطية سليمة» التى جاءت ضمن المبادئ الستة لحركة ٢٣ يوليو سنة ٥٢ فى مصر . كيف يمكن اقامة هذه الديمقراطية وماهى هذه الديمقراطية . هل هى الديمقراطية الشعبية التى تدعها النظم الاشتراكية أو هى الديمقراطية البرلمانية التى توجد فى الدول الرأسمالية وماهو الموقف من الأحزاب . ومن طريقة الانتخابات وسلطة المجلس ... الخ . إن جملة «اقامة ديمقراطية سليمة» لا عهدنا فى هذا كله ، ويمكن أن تقوم المعارك حولها وأن يدعيها أهل اليسار وأهل اليمين معا .. لأنه مبدأ مجرد .

ما يمكن أن يسمح به هو أن نظرية اسلامية لابد وأن تختلف عن نظرية ماركسية أو رأسمالية الخ .. ليس فحسب فى اتجاهاتها ولكن فى بنائها نفسه . فكل النظريات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى وضعتها أوروبا ، وضعتها بتجاهل «الله» ، وفى

ظل هذا التجاهل أخذت تترج وتترج وأخذ الفكر يطلق يمينا ويساراً ، بقيم الأبنية ويفرض الفروض ويتقصى الوقائع ويربط بين الأسباب والمسببات ... الخ ، مقيماً كل شيء على الواقع ، مستبعداً تماماً كل ما تشيئه القيم والمثل . فإذا أريد إقامة نظرية اسلامية . فيفترض أن يختلف الأمر . وكما أن منظري الاشتراكية يستشهدون بأقوال ماركس وإنجلز ولا يعاب عليهم هذا ، فإن النظرية الاسلامية لابد وأن تعتمد على شواهد من القرآن والحديث ، ولابد أن يكون «الايان بالله» في عمقها ومصادرها ، والا فانها لا تكون «اسلامية» ولا ينفي هذا أن تستخدم النظر العقل والبحث العلمى في الاطار الواسع للايمان الاسلامى . ومن واجب الباحث المسلم أن يرفض تماماً أى مبدأ أو حكم يخالف العقل مخالفة صريحة ، لأن الاسلام نفسه يأمر بذلك .

ولا يعيب النظرية الإسلامية أن تكون اسلامية أو أن ترصع قصورها بآيات وأحاديث . فالاسلام لا يقل عن الاشتراكية أو غيرها وما يعيب النظرية الإسلامية هو أن تكون مهوشة أو تقوم على مفاهيم تراثية ، لأن النظرية الاسلامية يفترض أن تركز على القرآن نفسه ، وأن يكون القرآن - وليس السنة - هو الأساس ، وإنما أوتى المفكرون الاسلاميون من ناحية أنهم اعتمدوا على السنة بالدرجة الأولى ، ثم على الأحكام السلفية التى خضعت لمناخ عصرها .

واصطحب التعلق بفكر الاسلاف والجري وراء حكم أحد الأئمة بالمعروف عن الثقافات الحديثة بفكرة أنها ليست «اسلامية» وفات المفكرين الإسلاميين المعاصرين أن القرآن والحديث يأمران بالتماس الحكمة حيثما كانت ، وطلبها «ولو في الصين» والمفروض مع هذا الأمر أن يحرص المفكر المسلم - وهو يضع نظرية اسلامية للقبولة - أن يلزم بكل النظم السياسية ، بدءاً من قدماء المصريين حتى النظم السياسية المعاصرة . وعليه أن يعلم أنه وهو يقوم بذلك إنما يطبق التزاماً إسلامياً . وعندما يقول القرآن «إن الدين عند الله الاسلام» فذلك لأن الإسلام يستوعب كل الأديان وعندما تؤمن بأن الرسول هو آخر الرسل ، فإننا نحتوى كل الرسل السابقين بل لعنا نكون أقرب إلى بعضهم من اتباعه مصداق ما قال الرسول عن موسى «نحن أولى به منهم» .

فهذا الفهم الذى يتفق مع أصول الإسلام وأوامره هو الذى يكفل لنا الانمام -

أو قل الاحكام — بكافة النظم السياسية وأبعادها وقضاياها ، وهو الذى يخلصنا من المأزق الذى وقع فيه بعض المفكرين الإسلاميين الذين لم يفهموا «أَلْعَلَّمَ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ...»^(١) . فإن الله والرسول أمرا وأكدا السعى وراء الحكمة والحرص على المعرفة والسير فى الأرض وتعرف أخبار السابقين .

يفترض إذن فى النظرية الإسلامية عن الدولة أن تقوم على نصوص من القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، وأن يتوفر لها إحكام البنيان النظرى ، بمعنى أن لا تكون ذات طابع تلفيقى أو تراكمى ، وإنما وإن اختلفت فى البنيان والاستدلال عن النظرية الأوروبية ، فإنها لا تتناقض معها ضرورة . لأن قاسما مشتركا يجمع بينهما هو العقلانية . والاختلاف هو أن عقلانية الإسلام تمتد إلى ما بعد الحياة الدنيا ، بينما تقف العقلانية الأوروبية عند الحياة الدنيا ، وأن العقلانية الإسلامية ذات صبغة خيرية فى حين أن العقلانية الأوروبية محايدة ، ليس لها لون وقد تستخدم فى الخير ، كما تستخدم فى الشر .

وهناك بالطبع كتابات عديدة عن الدولة الإسلامية وبعضها ثمين ونفيس ، سواء كانت هذه الكتابات تأريخا أو عرضا أو نقداً .

ولكننا قد لا نجد «نظرية اسلامية للدولة» .

فى كتابنا «رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامى»^(٢) . عرضنا نظرية دعوة العمل الإسلامى التى تقدم رؤية الإسلام للحياة — ومن ثم للدولة والمجتمع الإسلامى — آخذة نقطة الانطلاق من الاستخلاف الإلهى للإنسان ، كما جاءت به آيات سورة البقرة (٣٠ - ٣٧) وغيرها ، فقد شاء الله تعالى أن يجعل آدم خليفة فى الأرض وهذه الواقعة تتضمن مبدأين : الأول كرامة الإنسان ، فما كان الله تعالى يطفى على الإنسان كرامة أعظم من أن يجعله خليفة على الأرض ، وعلى هذا فيفترض فى الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى أن تكون كرامة الإنسان بارزة ومحقة

(١) شعار السلفيين ونظرتهم إلى العلم .

(٢) أصدرته المؤلف دار الفكر الإسلامى بالقاهرة - ١٩٩٢ .

في كافة المجالات وهذا أمر لا نكاد نجد له أثراً في تجارب الدولة الإسلامية في العصر الحديث التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذا البحث . والمبدأ الثاني الذي تتضمنه واقعة استخلاف آدم هو العمل ، لأن مضمون الاستخلاف هو استثمار الأرض وإحياء مواتها واستخدام مواردها ... الخ . وتوضح الآيات السبب الذي جعل الله تعالى يستخلف آدم . وليس الملائكة . ان السبب هو أن الله تعالى علم آدم الأسماء كلها أي أعطاه مفاتيح المعرفة والعلوم ولم يفعل ذلك للملائكة فأصبح آدم يعلم ما لا يعلمون ، وأمر الله تعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم لهذا السبب . هذه الواقعة تدل على قداسة العلم والمعرفة وإن رفعة الإنسان ترتبط بها ، وكأن سجود الملائكة لما علم آدم وجهه تصوير لاستسلام قوى الطبيعة ، وطاقاتها لعلم الإنسان .

وفي سياق متصل ومباشر تظهر الآية رفض إبليس السجود لآدم لظنه أنه أفضل من آدم «خلقتني من نار وخلقته من طين» وإن الله تعالى عاقبه بالطرد فطرد من الجنة ونزل إلى الأرض مع آدم ليكون عدواً له ويظهر كنفه تمثل الشر . وقد سمح الله تعالى بوجوده ، بل وباستخدامه لقواه العديدة : لاغواء الإنسان ، ولكن الله تعالى سلح الإنسان بالعقل والدين . وأصبحت الحياة صراعاً بين الخير والشر ، بين الأديان والشیطان . ولا يكون لهذا الصراع من معنى إلا عند توفر حرية الاختيار للإنسان ، «ونفس وماسواها فأغهمها فغورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها» ، «ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين وهديناه النجدين» .

وقد يسخر مفكر «علماني» من فكرة الاستخلاف ويرى أنها فرض لا أصل له ، لأنه لا يؤمن بالوحي ، ونحن نقول له إن مضمون الاستخلاف يتفق مع مضمون التطور والانتخاب الطبيعي الذي جاء به داروين والصراع الجدلي الذي قام عليه فكر هيجل وماركس لأنهما معاً (فكرة الاستخلاف وفكرة التطور والصراع) ينتهيان إلى سيادة الإنسان بحكم ملكاته ومواهبه ، واستطاعته تسخير طاقات الطبيعة ، وهو مايقوله القرآن بلغة الخطاب الديني الذي يختلف عن لغة الخطاب العلمي ولكنه ينتهي إلى النتيجة نفسها . وقد تختلف أدوات البحث في الدين عنها في العلم ولكنها لا تنتهي إلى نتائج تضاد ما يمكن أن يصل إليه العلم اليقيني .

وقد يسأل سائل ، ولماذا هذا كله ؟ والرد لكيلا تكون الحياة تجربة بلهاء ، وليوجد بين الملائكة التي تمثل البراعة ، والشيطان الذي يمثل الشر كائناً يستطيع أن يختار طريقة وان يؤثر الخير على الشر ، ويقاوم الاغراء ويصمد للارهاب ... الخ . وبهذا يصبح لحياته مبرر ، كما يوجد معنى للحياة نفسها .

وما يعيننا فيما نحن بصددده هو الحرية ، وإنها مقوم من مقومات الحياة والمجتمع والدولة في التصوير الاسلامي .

وبهذا نخلص إلى دولة قائمة على الاستخلاف الإلهي للإنسان ، ومنبثقة من طبيعة التصوير القرآني للحياة الإنسانية ، ومقوماتها هي كرامة الانسان والعمل والعلم والحرية ينظمها وينسق بينها العدل .

وقد يوجه نقد كثير لهذه النظرية ، ولكنه لا يدخل فيه أن هذه المقومات ليست من الإسلام ، إنها منقولة نقلاً عن الآيات القرآنية ، وما قدمناه هو تفسير لها . كما لا يمس أى نقد انها في مجموعها أصلي ما يمكن أن تقوم عليه دولة ، وأنها قامت بالفعل في دولة النبوة ودولة الخلافة .

تحديات أمام الدولة الإسلامية :

إذا رفض تصور دعوة العمل الإسلامي الذي قدمنا آنفاً فسيكون على دعاة الدولة الإسلامية مجابهة هذه التحديات :

١ - كرامة الإنسان :

هذه قضية أنسيبت تماماً في معظم الكتابات عن الدولة الإسلامية ، وأحل محلها «العبودية لله» كما انسيبت عملياً في تجارب الدول الإسلامية الحديثة فال مواطن المسلم يكاد يكون «شيئاً» بل ويكاد يكون أرخص الأشياء . ولاداعي للمساحكة فهذه هي الحقيقة المؤلمة الواقعة . ولأبد أن تتغير هذه الصورة ، فتقوم الدولة الإسلامية على أساس كرامة الإنسان التي قررها الإسلام عندما جعل الله تعالى الإنسان خليفته على الأرض ، ولأبد

أن يتم هذا عملياً ، وأن يضم «جسم» الإنسان الذي يجب أن يحفظ من الأذى و «نفس» الإنسان وفكره وضميره^(١) .

ويمكن للدولة الإسلامية أن تسترشد بتطبيقات هذا المقوم في الدول الأوروبية . والنقص الرئيسى في هذه التطبيقات هو أنها ليست «موضوعية» بحيث تنطبق على الجميع إذ يغلب أن يتمتع بها تماماً مواطنو الدولة ، وتتنقص بالنسبة للآخرين .

٢ - قضية الحرية :

لا نجد في الكتابات الإسلامية تأصيلاً لمفهوم الحرية . ولما كان الفهم - السلفى - التقليدى - هو السائد فمن الطبيعى أن يكون هناك عزوف عن الحرية ، وأنها باب البدع والاهواء . وما يتردد في الكتابات الإسلامية الحديثة عن الحرية يجب أن يؤخذ بحذر ، إذ أغلب الظن أن المقصود به «حريتهم» وليس حرية الآخرين . وقد امتحن الفكر الإسلامى في قضية الردة ، كرمز لحرية الاعتقاد فسقط سقوطاً شنيعاً ، وكرر ما قاله السلف ...

ومن لمعلوم ضرورة جحد ...

من ديننا يقتل كفراً ، ليس حد ١١

ولعل الوحيد الذى يمكن استثناءه من هذا هو «الغنوشي» الذى نجد في كتاباته إيماناً بالحرية بالدرجة المطلوبة . وقد تساورنا الشكوك في مدى صدقها الموضوعى . لأن بعض مواقف كاتبها قد تتعارض مع مضمونها . ولكن من حقه أن نذكر له ما سجله عن الحرية .

لقد آن للمفكرين الإسلاميين أن يعلموا أن أفكارهم عن تقييد حرية الفكر - كائنة ما كانت - تخالف - فيما نرى - مخالفة تامة صريح القرآن . وأنهم إذا تمسكوا بها فسيجنونون على الدولة الإسلامية المنشودة ، لأن أى نظام يراد له البقاء ، لابد وأن

(١) لقد عابنا مضمون كرامة الإنسان في كتابنا رسالة إلى الدعوات الإسلامية ، بشيء من التفصيل [ص ٢٦٤ - ص ٢٧٠] . وطبع في رسالة خاصة حملت اسم «وكاثر الأصولية الإسلامية» .

يتقبل الحرية . وقد كان نقص الحرية هو السبب الرئيسى لانهار الاتحاد السوفيتى الذى كان لديه كل شىء - إلا ها .

ويدخل فى مضمون الحرية ، حرية الفكر والاعتقاد وطبع الكتب واصدار الصحف وتأليف الأحزاب والنقابات والجمعيات والنوادي وحرية الاجتماعات العامة والمعارضة السياسية . ويجب أن لا يفتات القانون بحجة التنظيم على جوهر هذه الحريات .

٣ - العدل :

١ . غمور الأحساس بالعدل وضحاكته فى الفكر السياسى الإسلامى ، وفى تطبيق تجارب الدولة الإسلامية - هو من الظواهر التى تستلفت الانتباه . لأن العدل هو رمز الإسلام ، والمفروض أن يكون المسلمون هم أول الدعاة للعدل . وقد نهض الإسلام أول مرة بفضل إيمان «المستضعفين» ولانرى مبرراً لانتقاص دور العدل - أو حتى اغفاله - فى الدولة الإسلامية إلا الطبيعة البورجوازية لمعظم الدعاة الإسلاميين التى تنأى بهم عن قضية العدل .

ويفترض أن يكون العدل أصلاً فى قيام الدولة ووضع القوانين والفصل بين فئات الشعب بحيث يحمى الضعفاء والفقراء والمحكومين من عدوان الأقوياء والأغنياء والحاكمين ، وأى قرار أو حكم يجاى العدل ، يعد هذا طعناً فى «أصوليته» يستوجب نقضه .

٤ - المرأة :

ما من مجال تحكمت فيه التقاليد باسم الإسلام ، كالمرأة . فقد استغلت بعض التوجهات العامة عن الزى والآداب والزينة لإقامة سجن للنساء وإبعادهن عن الحياة العامة وحرمانهن من التعليم والعمل ، فضلاً عن الاختلاط بالرجال . وامتزجت التقاليد الموروثة - بالمبول «الرجالية» .

ولا جدال فى أن المرأة فى الدعوات الإسلامية المعاصرة تتخلف عما كانت عليه

أيام الرسول فهي لا تغشى المساجد لأداء الصلوات والأعياد ، ولا تشترك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما أراد لها الله . ولا تظهر زيتها للفتات الاثنى عشرة التي عددها القرآن ، وقد لا تُمنح نصيبها الشرعى من الميراث . وقد حضرنا ندوات في الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وسويسرا عزل فيها النساء عن الرجال ، أو أقصين إلى مكان بعيد تصلهن بالمحاضرة دوائر تليفزيونية . وقد كان النساء يشهدن الصلوات في المسجد ، ويتحدثن إلى الرسول ، ويتحدث اليهن الرسول وكانت المرأة ترد على عمر بن الخطاب فلا يملك إلا التسليم لها .

ولكن شيئا من هذا لا يرد في الممارسات الحديثة للدعوة الإسلامية . وقد تحكمت عوامل «سيكولوجية» وتقليدية بحيث أصبحت قضية المرأة احدى «عقد» الدعوات الإسلامية ، وأصبح الحجاب رمزا للإسلام !

لقد تحدث القرآن عن الآداب العامة حديثا يعم الرجال والنساء ونهى النساء أن يكشفن عن صدورهن أو أن يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتين ، وهى توجيهاً توحى الحشمة ، قدر ما توحى بأنها قدمت لرى معين وعادات معينة . ومعلوم أن قضايا الزى والأكل والشرب والعادات فى العلاقات الاجتماعية ... الخ . لا تدخل فى باب العقيدة ، وإنما تخضع لمضمون «العرف» الذى اعترف به القرآن عندما نص على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» .

فدائرة الزى تخضع للعرف الذى يتغير بطبيعته مع تغير الأذواق والمفاهيم . أما دائرة الحقوق والواجبات فقد سوى فيها القرآن بين الرجال والنساء بآية صادقة (وهن مثل الذى عليهن وللرجال عليهن درجة) ومعروف أن هذه الدرجة هى درجة القوامة المنزلية التى لا علاقة لها بالحقوق والواجبات العامة التى تحكمها آية المساواة .

ولا يخالفنا شك فى أن هذا الحديث المتكرر عن الحجاب والأهمية المزعومة التى تعطى له^(١) هى من باب الطفولية الفكرية والتشنج الذهنى وأنها من أكبر عوامل تخلف المجتمع الإسلامى وتشويه صورته .

(١) فى بعض الحالات - كما فى كفاح الجزائر ضد الاحتلال الفرنسى - أخذ الحجاب صفة رمزية وأصبح كما لو كان علامة من علامات الكفاح . ويفترض بالطبع أن تنتهى هذه الصفة مع انتهاء معركة التحرير .

٥ - الفنون والآداب :

لم يستطع الفكر الإسلامى أن يحدد موقف الدولة الإسلامية من الفنون والآداب . فقد سبق إلى الأذهان أن هذه الفنون والآداب [سينما - مسرح - تليفزيون ... الخ] تفتح الباب أمام اشاعة الفحشاء والمنكر واستثارة الشهوات . وارتوى أن الموقف «الطبيعى» هو اغلاق هذا الباب ومن ذا يمكن أن يدافع عن اباحة الفحشاء فى دولة اسلامية ؟؟ .

الأمر أكثر تعقيداً ، وله من الأبعاد والجوانب ما يصبح معه التصور السابق تصوراً ناقصاً ... فحتى عندما نسلم بأن بعض الفنون والآداب قد تثير الشهوات ، فإن هذا لا يتطلب بالضرورة اغلاق باب هذه الفنون ، لأن هذا الاغلاق قد يؤدي إلى مفسد أكبر مما كانت موجودة قبله .

وقد يمكن للمفكرين الإسلاميين أن يستلهموا الصورة التى عرضها القرآن الكريم ، وأشرنا اليها للابقاء على ابليس والأذن له فى فتنه الإنسان واغوائه حتى يوم الدين - ليعرفوا أن المجتمع الإنسانى ليس هو الذى تنتفى منه أسباب الغواية ، ولكنه الذى تنتصر فيه الهداية على الغواية ، الإرادة على الهوى ولكى يتحقق هذا يصبح وجود هذه الغواية أمراً لازماً .

كما سيجدون الحل فى الوسيلة التى وضعها القرآن وهى «المقاصة» «واتبع السيئة الحسنة تمحها» «إن الحسنات يذهبن السيئات» وعفو الله تعالى عن «اللمم» على اختلاف فى التفسير تفسح مجالاً كبيراً للتأويل ، والقاعدة التى وضعها الرسول .. «ساعة ... وساعة» .

وهذه كلها «مؤشرات» تفترض وجود أسباب الغواية الصريحة - إن لم تتطلبها - وتحدد الموقف تجاهها ، وليس هو المنع ، ولكن المجاهدة «يُميز الله الخبيث من الطيب» فالأمر اذن أهون مما يتصورون .

وعلى كل حال فيمكن للدولة أن تكل كل ما يتعلق بالفنون والآداب التى يظن أنها من أسباب الغواية والشهوات الى الهيئات المدنية (مجلس محلى - بلدية ... الخ) بحيث

تنقض اليدين منه ، وهو أسلوب موجود في كثير من الدول حيث نجد الأذاعة والتليفزيون إما في يد شركات تجارية أو هيئات مدنية . وأهمية هذا التحول من الزاوية الإسلامية أن الشريعة تفرق بين ما يحدث بين الناس ، وما يرفع إلى السلطان . والحديث معروف «تعافوا الحدود فما بلغنى فقد وجب» . وهناك شواهد أخرى عديدة تدع الحكم على التصرفات بين الناس إما اليهم ، وإما إلى الله تعالى ، ما لم ترفع للحكومة . أما فكرة مصادرة الفنون بحجة اثارها للشهوات ، أو حتى البحث عن فنون بديلة لا يوجد فيها عنصر الاثارة ، فأمر غير مجدية . ففى حال المصادرة سيبحث الناس عن وسائل بديلة . وفى حالة الفنون التى تخلو من عناصر الاثارة ، فإن الناس ببساطة ستجاهلها لأنهم يستطيعون أن يجدوها أفضل فى الكتب . ولديهم القرآن الكريم الذى يمثل قمة الأعجاز الفنى والأدبى ، ولكن البشرية لاتعيش على طعام واحد ولا هى تخلص من نغاذب الشهوات «وخلق الإنسان ضعيفا» .

تطبيق الشريعة :

تطبيق الشريعة من التحديات التى رزقت شهرة كبيرة حتى أصبحت كأنها رمز الدولة الإسلامية . والشريعة - كما نراها - هى جماع القانون فيدخل فيها القانون الدستورى وما يتفرع عنه من نظم الحكم والسلطة والسياسة ، ويدخل فيها القانون الاقتصادى الذى ينظم المعاملات المالية والاقتصادية والانتاجية ويدخل فيها القانون المدنى الذى ينظم التصرفات المدنية على اختلافها ويدخل فيها أخيراً القانون الجنائى . والقانون الجنائى فى الشريعة الإسلامية ينقسم إلى قسمين القسم الأعظم يطلق عليه «التعزير» وهى عقوبات ترك للقاضى حرية التوصل إليها والقسم الأصغر وهو عقوبات نص عليها بالفعل فى القرآن الكريم ، وفى بعض الحالات ، فى السنة ومن ثم يطلق عليها «الحدود» أو العقوبات المقدرة .

فالشريعة مجال كبير لا يمثل القانون الجنائى الا جزءاً صغيراً منه ولا تمثل الحدود الا جزءاً صغيراً من هذا الجزء الصغير ، ومن ثم فإن هذا الدوى الذى تثيره الحدود لا يتناسب مع حقيقتها ، وقد أخذ ، مع المرأة والفنون ، طابعاً نفسياً مزاجياً تعصبياً تجعلها «شعارات» أكثر منها حقائق ، ويعطيتها طابع «التشيؤ» ان لم يكن «التوثن» .

وداخل الحدود نفسها هناك اجتهاد ، فقد يرى البعض أن ليس لشرب الخمر حد ، فلا يوجد في القرآن أو السنة ذلك . وقد وضع الحد في عهد عمر والحدود كما قلنا «مقدرة» ، وقد استبعدنا كل ماقاله الفقهاء عن «حد الردة» إذا أريد بها ردة فكرية لأنها تتعارض مع الآيات العديدة التي تؤكد حرية الاعتقاد في القرآن الكريم .

أما عقوبة الزنا ، فإن الرجم مطبق بمقتضى السنة على أن اشتراط رؤية أربعة للفعل بصورة صريحة بحيث إذا لم يتحقق هذا لدى واحد من الأربعة عوقب الثلاثة بعقوبة القذف ، ومحاولة المحقق ثنى الماعترف عن اعترافه بكل الطرق (وهذا شيء لم يسمع به في أى قانون أو تشريع قبل الإسلام) من ناحية أخرى - هذان يجعلان هذا الحد شبه معطل ، لا يطبق إلا على مثل ماعز الذى يأبى إلا أن يطهره الحد ، ويفرض كل محاولات ثنيه عن ذلك . ولعل هذا هو السبب في أنهم يتألون اللجنة .

النص الحقيقى الذى يعد أكثر النصوص ثبوتاً وصراحة هو نص السرقة . وقد جاء النص في القرآن بتعبير «والسارق والسارقة» ولاحظ بعض المعاصرين أن هذا التعبير قد لا يطلق على من يسرق مرة ، وإنما يطلق عادة على من ألف السرقة حتى أصبح سارقاً^(١) . وهو اجتهاد سائغ فيما نرى وإن لم يطرأ للسابقين ولا حتى للرسول نفسه . ولكن هذه الحقيقة لا تطمن في السلامة الموضوعية لهذه الشبهة ، وإنما هي تثبت شيئاً من اعجاز القرآن ، وإن استخدامه على وجه التعمين - لصيغة ما إنما يعود لاحتمال قبول هذه الصيغة لتأويل آخر قد تمس إليه الحاجة في وقت ما ، أو في ظرف ما . والذى أؤمن به واعتقد أنه يتفق مع روح الإسلام هو أن لا يطبق هذا الحد على كل سرقة أولى ، وإنما ينظر فإذا كان فيها ملاسات تدعو إلى التغليظ فيمكن تطبيقه وإلا فيمكن درسه بشبهة التعبير . على أساس تطبيقه إذا انتفت الشبهة ، بأن عاد إلى السرقة وأصبح سارقاً .

ولحن نؤمن أن فلسفة العقوبة في الإسلام أفضل من فلسفتها في القوانين الوضعية من كافة النواحي فهي شخصية ، بمعنى أنها توقع على شخص الجانى ، وهي رادعة

(١) ويقاس على النص تعبير القرآن : والزانية والزاني .

بمعنى أنها تردع الآخرين وهى ناجزة ومباشرة . ولكن مست كرامة الفرد فالبادىء
أظلم أما قسوتها فلعلها أرحم من السجن الطويل وتقييد الحرية وتعطيل الغريزة ... الخ .
ويمكن انشاء محاكم صلح تطبق مبدأ تعافوا الحدود فيما بين الناس قبل أن تصل
إلى السلطان .

وكما قلنا فى مستهل الفصل ، فإن الشريعة مجال كبير جداً ، ومن الظلم الشديد
أن يرمز لها «بالحدود» كما أن من الظلم للحدود أن ينظر إليها النظرة السلفية التقليدية
الضيقة . ولو طبقت الشريعة حقاً لما كان هناك حاجة للحدود [إلا على سبيل الاستثناء
وبالنسبة لحالات فردية وشاذة] لأن قوام الشريعة هو العدل . وإذا تحقق العدل انحسرت
إلى حد كبير شأفة الجريمة ..

كلمة أخيرة :

إن فشل تجارب اقامة دولة اسلامية فى العصر الحديث يثبت أن موضوع الدولة
أعظم بكثير مما تصور معظم المفكرين الاسلاميين وان من الخطأ الفاحش الظن أن
تعبيرات مثل «الحاكمية الالهية» أو «الجهاد» ... الخ ، تحل المشكلة إنها يمكن أن توجد
حكومة لقبيلة بدائية تسلط السيف على المخالف وتقر بطن زوجته بحجة «لا حكم الا
الله» ! كما لا يكفى مطلقاً ما جاء به ابن تيمية فى السياسة الشرعية . والمآوردى فى
«الأحكام السلطانية» فهذه كلها إنما تمثل رؤية لمناخ معين انتهى وطوبت صفحته وقد
نجد فيها بعض اللسعات ، ولكنها كما قلنا لاتصلح أساساً ولا تكون كافية .

إن الدولة فى العصر الحديث تنظيم معقد جداً وصعب للغاية ، وعلى من يتصدى
له أن يلم تماماً بكافة أبعاده وأن يستفيد فى هذا الموضوع بعلوم الاجتماع والسياسة
التي تعالج «السنن» التي يقوم عليها المجتمع الانسانى وأن يدرس النظم السياسية القديمة
من قدماء المصريين حتى الدستور الأمريكى . وأهم من هذا كله فهم «روح» الإسلام
وقيمه الأساسية ..

إن الأهمية الخاصة للدولة الإسلامية متأثرة من أنها الدولة التي تستلهم قيمتها من الله والرسول ، وبالتالي يفترض أن تتحقق الحب والخير والعدل والجمال وأن تبرا من كل لوثات حكم الطغاة الذين استعبدوا الناس واستحلوا الحرامات وفي الوقت نفسه ، فإنها كدولة لا تستطيع أن تحقق هذا كدولة قمع ، وسلطة ، ولكن كدولة رعاية وتوجيه تحمل «الكتاب والميزان» أى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة من ناحية . وتحقيق العدالة من ناحية أخرى .

وعندما تظهر الدولة التي تحقق العدل في الاقتصاد ، والحرية في الفكر ، والإيمان بالله كأصل للقيم العظمى التي تضبط السلوك ، والعلم كوسيلة للتعرف على الحقيقة ، وتكون علاقة الحاكم فيها بالأمة كعلاقة العامل بالمؤسسة التي يعمل بها - وتتفنى منها كل صور الطغيان والاستغلال ، وبحس الشعب بالعهز والكرامة^(١) .

عندئذ نقول : «هاهى الدولة الإسلامية» .

والا فلا ...

(١) نوجه الأنظار الى أن هذا كله من صميم القرآن والسنة ، وليس مستعاراً من الفكر الأوروبي الحديث ، وإن كان الفكر الأوروبي قد جلاه بما أوتي من قدرات . وعلى كل حال فلسا مصابين بدوئية نجعلنا نتفوق ، أو نعادى كل فكر آخر . فالأصل أن الحقيقة واحدة والأديان واحدة .

أخوانك - الأخوان ...

وجدت نفسى منساقا لأن أكتب هذه الكلمات ...

هل السبب هو الغبار الكثيف الذى يثيره البعض حول الأخوان لاختفاء حقيقتهم ؟ أو تلك الحملة الضاربة ، والتيار المتدفق من الادعاءات الباطلة من أفراد وضعوا فى زمن « حزمى يا بابا » و « تكسب يا خيشة » ! على مقاعد الإعلام العالية ، وأخذوا يسودون السطور ، ويعلنون الأكاذيب ، ويكررون الزيوف والشبهات ، وينقلون الى الناس رؤيتهم عن التاريخ التى أخذوها من مسلسلات جعلت الرافصات بطلات ، والكباريات ساحات كفاح ، وغرست فى المجتمع المصرى صورا وشخصيات لم يكن له بها عهد كالفهوة التى تكون ما بين « الغرزة » والكباريه والمعلم والمعلمة و اللعوب التى تعمل لخداع الأزواج و خراب بيوتهم .. ناهيك بمناظر الشراب وسخريتهم بالمأذون ، وإمام المسجد ..

هل السبب هو أن هذه الهيئة الشعبية الكبيرة العريقة ، لاتجد وسيلة تدافع بها عن نفسها ، بينما تدق الطبول وتتعالى الأبواق وتدوى وسائل الاعلام بكلام حزب دعى لقيط لا يضم الا أصحاب المصالح وأبناء الأكابر ، وليس له من كفاح الا كفاح « الهير » واستغلال النفوذ ووضع الأيدى على الأراضي ، واستقضاء العمولات واستيراد الأغذية الفاسدة ، وتمرير القوانين التى تكبل الشعب من قانون الطوارئ حتى قانون تعيين العمدة وعمداء الكليات وقوانين النقابات والضرائب والتمغيات ؟

هل السبب هو تلك العلاقة الشخصية بينى وبين الأخوان منذ أن نشأت الأخوان وأمضت سنواتها الأولى فى بيت الأسرة ، فتعرفت على الرعيل الأول ونشأت علاقات شخصية اقترن بها قدر من التحفظ .. كنت أصارح به لإمام الشهيد رحمه الله ، كما كنت أكتب به الى من عرفت ممن تولوا منصب الارشاد - كالشيخ الباقورى والأستاذ عمر التلمسانى رحمهما الله ، والأستاذ أبو النصر متعه الله بالصحة والعافية وكانوا جميعا يتلقون هذه الملاحظات بتقدير ، حتى وإن لم يعملوا بها ...

قد يكون هذا كله من الأسباب التى دفعتنى للكتابة عن الأخوان ، وشيخ محنة جديدة تظللهم ، ولكن أهم منها جميعا ، أننى استكشفت أخيرا ، وخلال دراساتى السياسية قسمة جديدة للأخوان تجعل لهم أهمية خاصة بين الهيئات ، لم تحظ بالمعرفة ، حتى من الأخوان أنفسهم ، ومن ثم يتعين اعلانها ..

سواء رضينا ، أو كرهنا ، فإن هيئة الأخوان المسلمين تمثل ظاهرة فى المجتمع المصرى نادرة المثال .. فبقدر ما يهال عليها من ادعاءات ، وبقدر ما تحاول الحكومات - من فاروق حتى مبارك - الحجر عليها وتحريمها ، وبقدر ما أوقعه عبد الناصر بأعضائها فى سجون ومعتقلاته من أهوال تنفطر لها القلوب وتجعل الشبان شيئا ، بقدر ما تزداد قوة .. وفى سجون عبد الناصر نفسه تحول «جيل الثورة» الى جيل الأخوان !

وقد بدأت الصحف أخيرا ترفق ذكر الأخوان بوصف «المحظورة» ! فأعادت الى الأذهان ذكر «المرعومة» التى كانت الصحف تقرنها دائما بإسرائيل طوال الأربعينيات ...

كيف تكون الأخوان محظورة ، وقائد حركة يوليو أفرج عن أعضائها ، ثم ذهب يزور مرشدتها فى بيته ويلتمس تأييده ؟!

كيف تكون محظورة وقد كان لها فى مجلس الشعب أكثر من ثلاثين نائبا .. ولولا التزوير لوصل عددهم فى المجلس الى المائة ؟

كيف تكون محظورة وهى تهيمن على النقابات المهنية ، ونوادى أساتذة الجامعات ، والأئمة فى المساجد .. وقد عجزت الحكومة - بكل هيلمانها - عن أن تحد من نفوذها وتأثيرها ؟

لماذا لانكون واقعيين ونطرح المغالطة والمكابرة ...

من وجهة النظر الشعبية ، ومن واقع ارادة الجماهير .. فإن الأخوان موجودة وليست محظورة .. والأجهزة التى تدعى حظرها هى المفروضة على الشعب .

ولو سألت الأخوان عن سر صمودهم لقالوا إنه الإيمان بالله ، والتجرد وتقبل التضحية وقلما يزيدون على ذلك لأنهم « لايزكون على الله أحداً » . وهو تحليل لانهى ، ونرى بالفعل أنه أحد أسرار قوة الأخوان ، ولكنه لايكشف عن كل جوانب الموضوع .

وزهد الأخوان فى الحديث عن أنفسهم ، أو التفتى ببطولاتهم ، الى درجة يخشى بعضهم الحديث عن بطولات شهداء فلسطين حتى لا يحبط عملهم أو يؤثر على خلوص نيتهم ، هذا المسلك جعلهم يهملون التأريخ لحركتهم أو تسجيل مواقفها ووضعهم فى المآزق الذى وجدت الحركة النقابية نفسها فيه عندما كانت - وهى أكبر الحركات الجماهيرية وأكثرها حيوية - لاتوجد من يعترف بها جنباً الى جنب الحركات الدستورية والنظريات السياسية التى يعنى بها الأكاديميون وتدرس فى الجامعات ... ففى الحالىن : حالة الأخوان وحالة النقابات العمالية ، نجد الاغفال من ذوى السلطان ، والتعظيم ممن لديهم الأضواء .. فى حين أن هاتين الكتلتين هما أكبر تكتلات الشعب وأكثرها تمثيلاً له ، وقد كانت هذه الواقعة هى المفتاح الذى أدى الى استكشاف القسمة الشعبية للأخوان المسلمين .

وعندما ندرس تاريخ ظهور الأحزاب المصرية ، فسنجد أنها قامت على أكتاف مجموعات صغيرة من «الخبة» و «الصفوة» أو «البورجوازية الصاعدة» .. وهو

أمر طبيعي لأن هذه الفئات هي التي في يدها الثقافة ، والمال ، والمناصب ، والمهن ..
فهى المؤهلة للعمل ، وهى التي تملك مقومات نجاح هذا العمل .. أما دور الشعب ،
فأما أنه كان محل تجاهل - كما في حزب الأمة أو الاحرار الدستوريين - وكلاهم كان
يمثل كبار ملاك الأراضي وبعض أصحاب الأعمال ، أو حزب الاتحاد الذي كونه
نشأت باشا رئيس الديوان الملكى بايعاز من الملك فؤاد ، أو حزب الشعب الذى أسسه
صدق باشا فى الثلاثينيات .. بالنسبة لهذه الأحزاب لم يكن للشعب حساب مطلقا ..
أما بالنسبة لحزب الوفد ، أو الحزب الوطنى ، فإن الشعب - ونعنى به الاغلبية الساحقة
عددا والمسحوقه وضعا - من فلاحين يعملون فى الأرض ، أو عمال يشتغلون فى
المصانع ، أو موظفين صغار تطحنهم آلة المدينة وأجهزتها .. هؤلاء لم يكن لهم مشاركة
فعليه فى قيادة الحزب ، بمعنى أن لم يمثل فى مجلس ادارة الحزب عامل أو فلاح أو
موظف صغير ! .. وقد اعتبر وجود « أفندى » « الغرابلى » بين شخصيات الوفد
البارزة أمرا إذا ، ومنع الباشوية بمجرد تقلده الوزارة .. فقيادات الأحزاب - بما فيهم
الوفد - كانت من الفئات البارزة فى المجتمع حتى وان كانت جذورها شعبية كسعد
زغلول ، أو حافظ عفيفى ، أو ابراهيم الهلباوى ... ألغ فان الشقة التى تفصل ما بين
« سعدالله » القروى بن جامع وصيف ، وبين سعد بك عضو صالون البرنسيمة نازلى
فاضل ، وصهر دولة مصطفى باشا فهمى ، شقة بعيدة جدا طمست كل الوشائج
القروية .. وقل مثل هذا عن أخيه « فتحى زغلول » ، أو عن ابراهيم الهلباوى الذى
تزوج من إحدى شركسيات القصر الخديوى ، (وكانت العادة أن يقتص لها ٥٠٠
فدان) .. وترافع ضد فلاحى دلتشواى .. أو حافظ عفيفى الذى بدأ حياته طبيب
أطفال وعضوا فى الحزب الوطنى ليكون فى النهاية مديرا للديوان الملكى ، وأحد أساطين
الرأسمالية المصرية ... فهؤلاء جميعا نشأوا من صميم الشعب ، ولكن طموحهم سار
بهم بعيدا ، ثم جاءت الزيجات والمناصب ، فعزلتهم تماما عن أصولهم .. ونحن نعلم أن
نسبة كبيرة من المديرين اليوم هم أبناء فلاحين ، ضحى آباؤهم بكل شيء فى سبيل
تعليم أبنائهم ، وقد تودى بهم الدراسة الى الخارج والتزوج من فرنسية أو انجليزية أو
أمريكية .. وعندما يعود متأبطا ذراعها ليزور القرية فقد يجد أباه حافى القدمين وسط
الطين ! .

وهكذا ، فإن أبناء الفلاحين لم يؤسسوا الأحزاب الا بعد أن اندمجوا في
البورجوازية الصاعدة وعاشوها ، وانقطعت الوشائج القديمة التي كانت تربطهم
بالقرية ، وأصبحوا رموزا للبورجوازية ، ومن ثم فلم يكن هناك داع لاعمل ،
ولا سيكولوجي لتمثيل الشعب في قيادة الحزب .. وكل ماتريده الأحزاب من الشعب
هو « التأييد » ، وقد قنع الشعب وقتئذ بهذا فأيد الوفد ، وصفق عاليا لسعد زغلول ،
وأطاعه طاعة عمياء خاصة خلال مقاطعة «لجنة ملتر» ، وسار في جنازته باكيا .. كل
هذا دون أن يكون له مشاركة حقيقية في وضع السياسة أو اتخاذ القرار !

وسعد زغلول نفسه كان سعيداً بأن يكون زعيم حزب «الرعا» . ولكنه ما
كان ليقبل أن يكون احد الرعا زميلاً له في مجلس ادارة الحزب .

حتى العمال أنفسهم عندما كونوا حزبا ، لم توانم الشجاعة لأن يضعوا عاملا
رئيسا له ، واختاروا البرنس عباس حليم رئيسا لحزب العمال !

كان هذا هو الدأب المقرر والمألوف حتى جاء الأخوان فغيروا ذلك تغييراً جذرياً

كان رئيسهم معلما في المدارس الابتدائية ، وظل معلما حتى استقال بعد خدمة
قاربة عشرين عاما دون أى ترقية ! وأطلقت عليه صحف الوفد «معلم خط» وقامت
الهيئة التأسيسية ، ومكتب الارشاد ، على عناصر شعبية خالصة من مزارعين أو صغار
المهنيين والموظفين ، ولم يكن فيهم «بك» أو «باشا» !

وقد استغرب الضابط « جمال سالم » قاضى محكمة «الثورة» التي حاكت
زعماء النظام الخاص في أعقاب المحاولة الملققة لاغتيال عبد الناصر بميدان المنشية ١٩٥٤ أن
يكون رئيس النظام الخاص - وهو يوسف طلعت - نجارا .. وسأله : أنت نجار وتحت
يديك مهندسين ومحامين ازاى ؟ فقال له يوسف طلعت : إن سيدنا نوح كان
نجارا ...

وهي محاولة تمثل المنطق الطبقي والمنطق الدينى ...

وأعتقد أن الذنب الكبير الذى لم يفتقره المجتمع السياسى المصرى للأخوان هو أنهم وضعوا نجارين وفلاحين ومعلمى الزامى وصغار موظفين فى مناصب قيادية للعمل العام^(١) وأرادوا لهم أن يناقشوا باشوات مصر .. أعضاء كلوب محمد على وصالونات الارستقراطية حيث تسوى الأمور بين «الاكسلانسات» من صاحب سعادة أو صاحب دولة ، وبك أو باشا ، ومالك الأراضى أو رجل الأعمال ، وحيث يوجد من المتمصرين مايعدل المصريين ، أو يفوق ، ويجرى الحديث بالعربية والفرنسية !

وقد كانت هذه الطبيعة الطبقيّة جذيرة بدراسة المؤرخين الاجتماعيين ، وبوجه خاص الماركسيين أنصار «الطبقات الكادحة» و «الديمقراطية الشعبية» ... ألغ لولا أنها ارتبطت بالإسلام .

وهذه - أى الارتباط بالإسلام - قسمة أخرى ، لم تبعد الإخوان عن الشيوعيين ، الذين يستبعدون الدين من بين القوى المؤثرة فى المجتمع ، فحسب ، بل أبعدتهم أيضا عن البورجوازية (أو العلمانية) التى ارتبطت بها الأحزاب المصرية ، وكانت تريد أن تفسح المجال أمام الرأسمالية والليبرالية ، أى الحرية ، سواء كانت اقتصادية أو فكرية ، ووجدت أن الاسلام سيكون قيّدا على الحرية فركنته فى ركن قصى من أركان المجتمع ، ونجحت فى هذا عندما هيمنت على ثورة ١٩١٩ ، ووجدت فى سعد زغلول رجلها القوى الذى أعلن شعار « الدين لله والوطن للجميع » وسادت الليبرالية/ العلمانية المجتمع المصرى خلال العشرينات والثلاثينات ، حتى جاء الإخوان فى الأربعينيات فاستنقذوا الاسلام من ركنه القصى : الزوايا والجوامع ، الطرق الصوفية ، وزارة الأوقاف والوعاظ ، والأزهر ، ودفنوا به الى صميم الحياة ووسط المدينة والجامعات ... ألغ وجعلوه منهج حياة .

(١) قد يلاحظ البعض أن عددا محدودا من «البورجوازية» اتصل بالأخوان بعد أن ذاعت شهرتهم واكتسبوا قوة ونفوذاً ، وكانت سياسة الأمام الشهيد حسن البنا أن يحتويهم شخصيا ويحول بينهم وبين قيادة الحركة من ناحية وشعبها وجمهورها من ناحية أخرى ، وقد أساء البعض لهم هذه السياسة أو تصور أنها تكريم خاص ، أو تقرب لهم .

وهذا هو الذنب الثانى للاخوان الذى جمع عليهم عداوة
البورجوازيين والشيوعيين معا ، وما أقل ما يمكن أن يتفق عليه هؤلاء .
والذى فات الأخوان أنفسهم - حتى الآن - أنهم عندما جعلوا الإسلام محور
دعوتهم ، فانهم كانوا يصدرّون عن ايمان موضوعى بالإسلام من ناحية ، وعن دافع
وطني لاشعورى عميق ينبثق عن الطبيعة الايمانية لمصر ، ويتفق - بالتالى - مع
طبيعتهم الطبقة الشعبية ، فهم كانوا أكثر إخلاصا للشعب واتساقا مع طبيعة مصر من
البورجوازيين الذين أرادوا فرض مصالحهم على المجتمع المصرى أو الشيوعيين الذين
أرادوا فرض فكر غريب مستورد على مصر .

هذان هما الذنبان الكبيران للاخوان .. ومن وجهة النظر
البورجوازية الارستقراطية ، فليس هناك ما هو أشد خطورة عليهم منهما ..
فكيف يسمح لأصحاب الجلايب الزرقاء من الفلاحين ، أو الأيدي الحشنة
من العمال أو صغار الموظفين المعذبين بهموم الحياة المدنية ، بمنافسة
الباشوات وأصحاب المصالح الحقيقية (كما قال صدق باشا) .. وكيف
يمكن السماح بأن يعود الإسلام محورا للحياة فيلزم الاقتصاد والسياسة فيما
وراجبات تعد قيادا على حرية عملها ، أو قل استحوازها واستغلالها ؟
وكيف يؤمن الماركسيون الذين شابهوا البورجوازيين في أنهم أصحاب اشتراكية
الصالونات والكراسى الوثيرة ، وأبناء الباشوات وبنات الطائفة الاسرائيلية ، هؤلاء
الأجلاف المسلمين ١٩

هذان هما ذنبا الأخوان ، ومن أجلهما أصلت عليهم السيوف ، وأشهرت
الأقلام ، وزج بهم فى السجون .
أما ما يدعونه من اتهامات ، فهي محض هراء ..

خذ مثلا الإرهاب !

إنهم لا يفتأون يتحدثون عن الإرهاب والنظم الخصاص الذى وضعه الأمام الشهيد
حسن البنا فى الثلاثينيات .. والحقيقة أن الأمام الشهيد رحمه الله شاهد الجيش المصرى

الذى اراده الانجليز جيش تشريفات ، وشاهد الميوعة وهى تزحف ف على الشباب ، فأراد لهم قدرا من الرجولة والصلابة والإيمان ، وتحمل المشاق والتضحيات ، والتربية تربية رياضية/ عسكرية .. وكان يضع نصب عينيه أمرين :

الأمر الأول - وجود ٨٠ ألف عسكري انجليزى فى البلاد من قصر النيل والقلعة حتى الصعيد ومناطق القتال التى كانت «معسكرا» بريطانيا خالصا ، وأنه لابد من أن يأتى يوم لمناجزة هذا الجيش .

الأمر الثانى - الذى كان نصب عينى الأمام الشهيد وهو يؤسس النظام الخاص ، ظهور الصهيونيين وزحفهم على فلسطين والسياسة البريطانية التى كانت تمالكهم وتمكن له ... وفى هذه النقطة كان الوعي الايماني أهدي سبيلا من الوعي السياسى الذى لم يكن ليتبين بالضرورة الأبعاد الخطرة لمثل هذه القضية ، مما جعل أحد رؤساء الوزارات المصرية يقول وهو يهز كتفيه «لنتى رئيس لوزارة مصر وليس لوزارة فلسطين اه .. وجعلت رئيسا آخر يرفض شراء عدد من الدبابات أراد الانجليز انتخلص منها بأبخس الأثمان .. ومعروف أن الاسرائيليين كان لهم وجود مكثف فى المجتمع المصرى خلال فترة الاربعينيات وظهر منهم وصيفة الملكة ، ووزير المالية ، وكان كبيرهم عضوا فى المجمع اللغوى ، وكان لهم جمعيات تجمع الاعانات للمهاجرين اليهود الى فلسطين ، وكانت شركة الاعلانات الشرقية فى يدهم ، فضلا عن سلسلة من المحال الكبرى (شيكوريل/ بنزايون) وصحتها بن صهيون» الخ .

كانت هاتان الحقيقتان المصيريتان : وجود الجيش البريطانى فى قلب مصر ، وزحف الصهيونيين على حدود البلاد ، فى ذهن حسن البنا عندما أسس النظام الخاص ، وأخذ له أقرب صور التنظيم الى الرياضة والعسكرية وهو «الجولة» ، ومن خلاصة الجولة بدأت نواة النظام الخاص .

وقبل أن يستشهد الأمام ، بدأت المعركة فى فلسطين ، وأفسح الاحتلال البريطانى ، بل وقيادة الجيوش العربية التى كان يرأسها الملك عبدالله وقائده الجنرال جلوب ، لليهود ، ومكنتهم من مواقع لهزموا جيش مصر ، وكانت القوة البارزة فى

هذه المعركة هم الأخوان المسلمون الذين هزموا الاسرائيليين في كل موقعة حتى صدرت أوامر النقراشي باشا رئيس الوزراء المصري ! بسحبهم من ميدان القتال الى معسكر الاعتقال !! وانفسح المجال لليهود ، فتصور جريمة السياسى المصرى الذى أمر بذلك ، ويمكن لليهود ، وما ترتب على هذا الاجراء الخاطيء - أو الخائن - من تطورات بعيدة المدى على مستقبل البلاد .

وكان من بين الذين أشرفوا على تدريب «النظام الخاص» عدد من الضباط منهم وجمال عبد الناصر نفسه وقد ردوا له هذا الجميل عندما استنقلوه من أسر الفالوجا . ثم جاء دور الكفاح الوطنى فى منطقة القنال ، وحمل الأخوان عبء وأسماء المنيسى وشاهين وغيرهما من شهداء الأخوان شاهدة على ذلك .

يقولون الاغتيالات ...

ويذكرون أولا اغتيال الخازندار ثم اغتيال النقراشي وماتلى ذلك من تفجيرات الشركات اليهودية ... ألخ .

أما اغتيال الخازندار فقد كان اجتهدا خاطئا وعملا غير مسئول .. وغضب له الأمام البنا أشد الغضب .. وحاولت دوائر النظام الخاص علاج هذا الخطأ بطريقتها الخاصة مما لا يتسع المجال هنا لشرحها .. وقد يكون فى الأخوان عيوب عديدة ، ولكن ليس منها الكذب والخداع ، وقد اعترفوا بخطئهم .

أما اغتيال النقراشي ، فإن النقراشي نفسه كان - بالتعبيرات السائدة - اراهيا كبيرا وعضوا مسفولا ، إن لم يكن رئيسا ، فى عمليات اغتيال الضباط الانجليز خلال ثورة ١٩١٩ ، وفى أعقابها .. وقد صدرت عليه أحكام من محاكم المحلزية ا

قد يقولون إن اغتيال الانجليز بطولة ، أما اغتيال المصريين فهو نذالة . وهذا منطق عنصرى بحت ، لأن المعول عليه عند اصدار الأحكام هو العمل ، فإذا كان المصرى ظالما أو خائنا ، فإن مصريته لا تشفع له .. وإذا كان الانجليزى أمينا وعادلا فإن انجليزيته لا تنصره ، ولا يمكن أن نسمح للعاطفة الوطنية ، دون أن نضبطها بالعقل والمنطق ، باصدار الأحكام ا

وكان النقراشي شخصياً عنيداً كنوداً^(١) ضيق الأفق ، ينظر الى الوزارة كما لو كانت مدرسة هو ناظرها والحاكم بأمره فيها . وتحدى ارادة الشعب عندما حل أكبر هيئة شعبية لها عضو في كل قرية ، وكل حارة ، وأعمت العداوة السياسية ومنصب الحاكم العسكري عينيه عن معان واعتبارات كبرى ، وسن سنة الاعتقال الجماعي ، ورفض مساعي الصلح ، وفضلاً عن هذا كله مكن اليهود من الاستحواز على فلسطين عندما أصدر أوامره بسحب القوة التي كان يمكن أن تصدهم ، وهذه كلها تصرفات يجب أن توضع في الحسبان عند الحكم على قضية اغتياله ، ولعلها يمكن أن تنهض عنذراً لقاتل النقراشي على أساس أن الشعب عندما يستبد به حكامه ، ويغلقون أبواب أى مسعى لتصالح أو حوار ، فلا يكون أمامه سوى اللواذ بصور من العنف أو القوة لاتعد سليمة من ناحية المبدأ ، ولكن قد تعد ضرورة بحكم الظروف والأوضاع العملية ، وقد توضح ذلك كلمة الأستاذ عبد العزيز الشوربجي نقيب المحامين عندما قال «ألا يوجد في مصر رجل ، رجل واحد ، يخلصها ويخلصنا جميعاً من هذا المرعون»^(٢) .. فإذا كان مثل هذا القانوني الضليع يقول هذا عن السادات الذي حاز نصر رمضان وفتح المعتقلات ، فقد يكون لعبد المجيد حسن عنذر في ارتكاب جريمته ، وهو بعد لم يقم بها ابتغاء مغنم ، أو كان في ذهنه القرار .. إنه إنما قام بها عتسيا دماء في سبيل الله والوطن .

فإذا تعاضم ذلك بعض الكتاب ، فأرجوا أن يقرأوا تاريخ حركة ٢٣ يوليو

(١) عندما كان النقراشي وزيراً في وزارة الوفد سنة ٣٦ شكك النحاس باشا مر الشكوى من عناده وإصراره على فرض مايرى دون نظر الى بقية زملائه ، وهدد أكثر من مرة بالاستقالة ما لم يؤخذ براه . وسكت عليه النحاس حيناً ، ولكنه عندما تمسك بعدم تعيين أحد الوطنيين من زملائه في عمليات اغتيال الضباط الإنجليز وأمضى في السجن ثمان سنوات ، ورفض عشرة آلاف جنيه مكافأة لمن يعترف على النقراشي نقول إن النحاس ثلثه الغضب ازاء جمود النقراشي ، وضرب برفضه عرض الحائط ، بعد أن اتخذ مجلس الوزراء قراره بالإجماع - فيما عدا النقراشي - بتعيين هذا الوطني البيل (أنظر مذكرات النحاس باشا في العدد الصادر في ٩٤/١١/١٥ من جريدة الشرق الأوسط اليومية) .

وعندما ذهب النقراشي للأمم المتحدة سنة ٤٦ يطالب بالجلاء أبده الإخوان المسلمون من منطلق وطني ، بينما أعلن الوفد أن النقراشي لا يمثل الأمة ولا يحق له الحديث باسمها ، وكان جزاء الإخوان لتأييدهم له هو حله ثم واعتقالهم فكرر سنة ٤٨ العقوق الذي أبده سنة ٣٦ وأشرنا إليه آنفاً . على أن سياسة النقراشي كانت المسار الأخير في نعر السعديين . ولم تقم لهم قائمة واستحقوا لقب «السعديين الأشقياء» الذي أطلقناه عليهم .

(٢) محاكمة فرعون : بحايا محاكمة قلة السادات ، تأليف الأستاذ شوقي خالد الهامى ، ص ١٣

و ١٤ ، وقد حضر الأستاذ الشوربجي إحدى جلسات محاكمة خالد الإسلامبولي وعانقه

ليعلموا أن عبد الناصر ، وكمال الدين حسين ، وعالم الدين ، كانوا في خلية واحدة في النظام الخاص وبايعوا نائب المرشد العام ، وليقرأوا كذلك «قصة الثورة» ، وكيف دبر عبد الناصر اغتيال حسين سري عامر ، واشترك هو وكمال الدين رفعت في ذلك .. لولا أن الرصاصات قد طاشت .. وليقرأوا كذلك كتاب عبد اللطيف البغدادي ليعلموا أن الحركة كادت أن تصبح حركة اغتيالات كبرى لو توفر عدد العربات المطلوب [1] (١) .

أما الذي لا يمكن الاعتذار عنه ، أو تقبله بأي صورة ، وما يلصق بأي حكومة سبة ليس هناك ما هو أسوأ منها .. فهو أن تقوم الحكومة بكل أجهزتها باغتيال معارض أعزل في جنح الليل مستخدمة الضباط الذين يفترض أنهم هم الذين يحمون المواطنين تطبيقاً لمؤامرة على أعلى المستويات لاغتيال حسن البنا ، بعلم من القصر ، وبأمر صادر من رئيس الوزراء في ذلك الوقت ابراهيم عبد الهادي الى اللواء محمد وصفي ، كما جاء في كتاب «خريف الغضب» للاستاذ محمد حسنين هيكل ، وقد حوكم ابراهيم عبد الهادي على تهم كان منها هذه التهمة ، وحكمت عليه محكمة الثورة بالاعدام ، ثم خفف الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

هذه هي صور «الارهاب والاغتيالات» التي نسبت الى الاخوان ... أما بعد .

(١) في ٢٢ يونيو ١٩٥٣ أشار عبد الناصر تحت عنوان قصة الثورة الى معرفة القصر الملكي بأسماء الضباط الأحرار ، ثم قال : «فاجتمعنا وقررنا أن نتخذ اجراءا مضادا ، وفي أقرب وقت ، وكانت أماننا خطتان : الأولى أن يقوم الجهاز الخاص (وقد استخدم عبد الناصر هذا التعبير الاخواني لأنه كان حديث عهد بهم) - باغتيال جميع الحقنة المصريين .
والخطة الثانية هي أن يقوم جميع الضباط الأحرار بالعمل لتغيير النظام بأجمعه .
وقررنا يوم ١٨ يوليو تنفيذ الخطة الأولى ، بل لقد وضعت الخطة فعلا وصدرت الأوامر بتنفيذها في القاهرة والاسكندرية يوم ٢٠ يوليو .
ولكننا اجتمعنا يوم ١٩ يوليو ووجدنا أننا بذلك نقضى على حركة الضباط جميعا ، إذ أن النظام سيقى مهما قتل أنصاره ، وستكون النتيجة حملة من الأرباب ... » .

٢٣ يوليو ، فالقضية التي يعيدون فيها ويزيدون هي محاولة اغتيال عبد الناصر بميدان المنشية بالاسكندرية سنة ١٩٥٤ .

وأنا لن أتكلم ، وإنما سأدع اثنين من أقسى نقدة الإخوان هما الدكتور فؤاد زكريا والدكتور عبد العظيم رمضان ، فانهما عندما عرضا لهذه القضية حكما بوجود تواطؤ ما مابين السلطة وبعض دوائر النظام الخاص ، وأنه أمكن استدراج محمود عبداللطيف ، بعد اتخاذ الضمانات اللازمة ، وأنها في حقيقتها كانت مؤامرة من عبد الناصر على الإخوان أكثر مما كانت مؤامرة من الإخوان على عبدالناصر^(١) .

وقد نفى الإخوان ، وما عهدنا عليهم كذبا ، أى علاقة لهم بهذه القضية . أما عملية ١٩٦٥ فانهما تلفيق من مكتب المشير أراد به رجاله ضرب عصفورين بحجر واحد ، ضرب الإخوان من ناحية ، واستحوذهم على السلطة والنفوذ من ناحية أخرى .. وقد تحقق هذا ، وتغول مركز المشير وضباط مكتبه الفاسدين . ولكن الله كان لهم بالمرصاد .. ان هزيمة ١٩٦٧ كانت الى حد ما نتيجة مؤامرة ١٩٦٥ على الإخوان ، لأنها وضعت زمام الأمور في يد زمرة فاسدة مرتشية من الضباط مشغولة دائما بمشكلاتهم النسائية !

هذه هي قضية الارهاب والاغتيالات أشرنا إليها بقدر مايسمح السياق وهي تدين المسؤولين عن الحكم في الحقبة الملكية والناصرية ، أكثر مما تدين الاخوان .. لغلبة الفساد والرشاوى والاعتبارات الحزبية الضيقة في الحقبة الملكية ، وللديكتاتورية وكبت الحريات والاعتقالات والتعذيب ، وأى ارهاب لأى هيئة شعبية يمكن أن يقارن بارهاب صلاح نصر وحمة البسيوى ؟ ارهاب وصل الى حد القتل والاغتيال للعشرات من المسجونين ودفنهم في رمال مدينة نصر !

ومن الاتهامات التي تقدم ضد الإخوان ، أنهم يريدون الاستحواذ على السلطة والوصول الى الحكم وتأليف حزب اسلامى ...

(١) أنظر تفصيل ذلك في كتابنا «الاسلام هو الحل» الصفحات من ١٦٣ الى ١٦٨ .

وقد «غلب» الأخوان من القول مرارا وتكرارا لانهم ليسوا حزبا كبقاى الأحزاب التى تقوم واضحة نصب أعينها الوصول الى الحكم ، وأن هدفهم ليس الاستحواز على السلطة لأن السلطة والحكم - فى أفضل الحالات - وسائل وليست غايات .. ولكن هدفهم وغايتهم اشاعة الفهم الاسلامى بين الناس ، ووسيلة ذلك - بالدرجة الأولى - اقناع الناس - آحاد وجماعات - بأفضلية الاسلام بالحكمة ، والأدلة ، والموعظة الحسنة ، فقد أرسل الله تعالى رسله دعاة وهداة .. ولم يرسلهم حكاما أو ضباطاً أو سلاطين !

وأكد الأخوان - مرارا - أنهم لا يسعون للحكم ، ولكن الحكم قد يسمى اليهم يوما ، عندما تؤمن أغلبية الشعب بدعوتهم ويطلبون اليهم عبر صناديق الانتخاب الحر ذلك ، عندئذ لا يمكنهم التكوّص عن هذا الواجب الذى هو فى حقيقته ابتلاء ثقيل وتكليف لاتشريف .

لقد قال الأخوان ذلك مرارا وتكرارا من الأربعينيات حتى آخر حديث صحفى أدلى به المستشار مأمون الهضيبي لمجلة روز اليوسف حديثاً .

ولكن ، حتى لو فرضنا أنهم يسعون الى الحكم .. فما العيب فى هذا ، هل «الكعكة فى يد اليتيم عجيبة» !! كما يقولون ... إن الأخوان مصريون كغيرهم ولهم حقوق المواطنة كاملة .. فاذا أرادوا تكوين حزب لهم فهذا حق دستورى ديمقراطى لهم ، ولكل المصريين ...

أما القول إن حزبهم يرفع الرمز الاسلامى ، والشعب كله مسلم ، وهذا يوحى بأن الأخوان وحدهم هم المسلمون ، فهذا متعلق عجيب لا يمكن أن يقبل فهل لو تسمى حزب بالحزب المسيحى الديمقراطى ، كما فى ألمانيا ، فإن هذا يعنى أن هذا الحزب يحتكر «المسيحية الديمقراطية» وأن غيره لا يكونون مسيحيين ديمقراطيين !!؟ .

لم يدع الأخوان فى يوم من الأيام أنهم المسلمون دون الناس ، أو أنهم يحتكرون الدعوة الى الله .. فباب الدعوة مفتوح للجميع ، ويمكن لمن يشاء أن يؤسس أحزابا اسلامية ولا يملك له الأخوان شيئا .

أما أنه لا يجوز تكوين حزب إسلامي حتى لا تثار النعرة الدينية ، وتقوم الفتنة الطائفية ، ويتكرر في مصر ما حدث في لبنان ، أو تقوم دولة في أسير إلى آخر هذا الهراء .. فهذه تحاريف حشاشين لا تستحق ردا ... وإذا أراد الأقباط أن يكونوا حزبا فهذا من حقهم ، ولن تحدث مذابح ، وإنما سيحدث «الحوار الإسلامي المسيحي» وقد عاش أقباط هذه البلاد سعداء تحت حكم الإسلام أكثر من ألف عام ، ولن يجدوا أفضل من شعار : «لهم مالنا ، وعليهم ما علينا» ، فهو كسب خالص لهم ، وهم أذكى من أن يضحوا به 11

ولا أستطيع أن أغالب الخيال والافتراضات ، التي تبدأ بـ «لو» وهي للأسف حرف امتناع ، فلو أن الأخوان ، أو غير الأخوان ، أرادوا القيام بثورة فإن هذا عمل مبرر سليم ، وإنما ظهر الحكم الحالي بفضل انقلاب ٢٣ يوليو وتحرك الجيش نفسه لما ظهر من فساد ، وقد عشن الفساد وباض وقرخ وأصبح دولة داخل الدولة ، وما من أحد يدين الثورة على الفساد ، إلا إذا كان هو نفسه فاسدا ...

ولكن ليس معنى كل ما قدمنا أن الأخوان برؤا من النقص ، وسحلوا من الاخطاء ...

ويحس الإنسان أن وجوه النقص هذه هي التي حالت دون أن تقوم أعرق الهيئات الشعبية المصرية ، وأكثرها تواصلا حقيقيا ، رغم تحريم القانون ، بدور أكبر ، حتى عندما نضع في حسابنا المقاومة التي تعرضت لها .. لأن الهيئات «الإيمانية» لا يمكن أن تؤتي من الخارج قدر ما يمكن أن تؤتي من الداخل نتيجة لنقص في الفهم أو الإيمان ، وبدون ذلك كان يفترض أن يغير الأخوان وجه المجتمع المصري ، فما من هيئة رزقت إيمانا ، وجمهورا ، ووجودا متصلا ، مثل الأخوان ...

وقد يكون من المفارقات أنهم هم آخر الناس احساسا بميزة طبيعتهم الطبقية ، لغلبة المعنى الإسلامي الذي يتنافى مع الطبقيات ويجعل المعيار هو التقوى .

وليس هناك تعارض في الحقيقة ، ولكنها جناية التبسيط أو قل «التسطيح» في

معالجة الأمور ، وعدم محاولة التعمق فيها لأن من المسلم به من ناحية التاريخ ، والطبقة أيضا ، أن عامة الشعب أقرب الى التقوى من الفئات التى تشغلهم الأموال والمطامع وتقيدهم المصالح والمناصب وأنهم كانوا هم جمهور الأديان مسيحيين ، أو مسلمين .. وهم الذين ناصروا الرسول عندما تجهم له تجار مكة وأثرياء قريش .

وقد يصور ضحالة «النبض الشعبى» لدى الأخوان أنهم نجحوا عمليا فى اقتحام النقابات المهنية ، ولكنهم لم يدخلوا النقابات العمالية لاعتجزا ، ولكن عزوفا ، وتأثير النفسية والمزاج ، وهذا لا يمنع من أنهم هم القطاع الشعبى حقا ، ولكن «العين لا ترى نفسها» 1 .

وقبل أن أتحدث عن الدور الواجب للأخوان المسلمين فى هذه المرحلة أشير الى أمرين : الأول أن الاسلام دين الحرية ، ودين اليسر ، «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا لاتنفروا» .. ويفترض أن يكون الأخوان هم فرسان هذا المجال فلا مزايده عليهم ... والأمر الثانى أن رسالة الأخوان فى حقيقتها كانت تجديد الفهم الإسلامى ، وقد ضخته الدماء الجديدة فى الدعوة فكرا ، وجهورا ، فنقلتها من طقوس عبادة الى منهج حياة ، ومن وظيفة يقوم بها الوعاظ وأئمة المساجد الى ايمان ينتظم شباب الجامعات وصميم المجتمع المدنى .

ولاجدال أن دعوة الأخوان قضت فى أيامها الأولى على المذهبية التى كانت فاشية ، وطوت الخلافات الفقهية التى كانت تستأثر بالأهمية وتغرق المسلمين ، وأنها غرست بذور فهم جديد للاسلام أريد له أن لا يكون سلفيا تقليديا ، والا فإن الأزهر فى مصر ، وإدارة الدعوة والبحوث ... ألخ فى السعودية أقدر على تقديم «السلفية» ، وما يؤكد هذا المعنى أن الإمام الشهيد رحمه الله كان مرنا الى أقصى درجة ، مستعدا دائما للتنازل عن كل الشكليات فى سبيل الابقاء على الجوهر ، ومن كانت هذه طبيعته ، فانه جدير بأن يقدم صورة جديدة للاسلام ، صورة تكون الأولوية فيها للجوهر ، وليس للمظهر .

وسأنتقل للقراء مثالين يبرزان مدى مرونة الامام الشهيد رحمه الله ...

المثال الأول : جاء في المذكرات التي كان يكتبها الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله وينشرها في «المسلمون» ، العدد ٣٦ في ٢٨ المحرم ١٤٠٦ - ١٩٨٥/١٠/١٨ ، ونقلها الأخ عباس السيسى في كتيب له بعنوان «حكايات عن الأخوان» ، وفي الموضوع المستشهد به ذكر الشيخ الصواف عزمه مع اثنين من اخوانه ، تكوين هيئة اسلامية ، قبل أن يعلموا بوجود الأخوان ، وعندما علموا أراد أحدهم أن تحمل هيتهم اسم «جمعية الأخوان المسلمين» في الموصل ...

يقول الشيخ الصواف :

«ورفضت أن تكون التسمية مقلدة لأسم في بلد آخر ، وأصر الأخ أن تحمل الجمعية الأسم نفسه ، أى «جمعية الأخوان المسلمين» فقلت لأخوانى لما رأيت بوادر الخلاف بينهم إن الأسماء لاتهمنا ، نحن نريد أن نحمل فكرة .. وبعد ذلك شاء الله أن أسافر مع هذا الأخ الذى كان يصر على أن نجعلها باسم الأخوان المسلمين الى مصر لعمل ، والتقىنا في مصر بالامام الشهيد رحمه الله وسألناه في الأمر فقال «سيروا مع الشيخ الصواف فهذا هو الصحيح ، لأننا لاتهمنا الأسماء وإنما تهمنا الدعوة الاسلامية ويهمنا الإسلام نفسه بأى اسم كان وبأى ثوب خرج ...» .

والمثال الثانى رواه الأخ أحمد البس في كتابه «الأخوان المسلمون في ريف مصر» عن شخص كتب الى الإمام الشهيد يستنكر هتاف الأخوان (الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا) .. ويقول إنها لاتليق .. فكيف تقولون عن محمد انه زعيم ... فكتب فضيلة المرشد متلطفا يقول : «إذا كان الناس عندهم لايتسيغون ذلك فيمكن أن يكون الهتاف (الله ربنا ، ومحمد رسولنا ، والقرآن كتابنا) فهي تؤدى المعنى نفسه ...» .

فانظر الى المرونة في موضوعين من المواضيع التي تعد من «المقدسات» التي لامساس بها : الأسم والشعار .

ولو قدر للاستاذ البنا رحمه الله أن يعيش ليتم عمله ، وليخلص من مرحلة «الحشد» الى مرحلة «الفرز» ومن مرحلة التعميم الى التخصص .. فيقلب على الظن

أنه كان سيقوم بتقديم الاضافة المطلوبة ، ولكنهم اغتالوه وهو في ريعان العمر وقمة النضج والعطاء ، وكان يجب على الأخوان أن يبدأوا حيث انتهى ، ولكن الذى حدث هو أنهم تراجعوا عما وصل إليه حسن البنا حتى أصبح البعض يتهمهم بالسلفية والوهابية ، والتفوق غير ذلك ...

ونحن نقدر الظروف التى مرت بالأخوان وجعلتهم مشغنين بالجراح .. وحالت دون أن يتطلقوا ، ولكننا رغم كل شيء نؤمن أن قوة الأخوان وإيمانهم وصمودهم أعظم من أن تقوهم ، أو نحمدهم ، أو نشلهم الضربات .. فإذا كانت هذه الضربات متلاحقة ، فهناك أيضا أمداد متلاحقة من الشباب يدخلون الأخوان أفواجا .

واعتقد أن للأخوان دورا حيويا ، وهاما يفرضه عليهم واجبهم نحو دعوتهم ، ونحو وطنهم ، ونحو الاسلام ، لأن اغفالهم له أدى الى هذه الصورة من الركود والخمول والسلبية التى تؤدي الى التآكل والتواكل .. وبالنسبة لوطنهم فإن هذه السلبية سمحت بتفشى الفساد ، ولو قاموا بدور عملي لكبحوا جماحه .. وأخيرا فإن سلبيتهم جنت على الفكرة الاسلامية وسمحت بظهور هذه الجماعات المراهقة ، المتشنجة ، الشاردة التى ضلت طريقها وسط التيه والضياع .

وأتصور أن هذا الدور ينقسم الى شقين : الأول يتعلق بمفهوم الإسلام كمنهج حياة ، والثاني يتعلق بتجديد الفكر الاسلامى : عقيدة وشريعة وسلوكا .

بالنسبة للشق الأول ، فإن على الأخوان أن يوضحوا دلالات مفهوم الاسلام كمنهج حياة لتحديد الحلول الاسلامية للمشكلات التى تكتف حياة الناس ، وبالقيام - بقدر استطاعتهم - (ويمكن أن تكون كبيرة) فى حلها عمليا .

من أبرز هذه المشكلات الاسكان وضرورة تيسير شقة لكل شاب يريد الزواج ، وبهذا نُنقذه من العذاب النفسى/ الماعطى ، ومن أن يضحى فى أسواق النخاسة العربية أو الأوروبية بخمس أو ست سنوات من زهرة شبابه .. ويمكن الاستعانة فى هذا بالبنوك

الإسلامية وتقرعها على عدم تفهم واجبها الإسلامى الذى يملى عليها بناء مثل هذه الشقق ، وليست عمارات التصنيف والإسكان الفاخر .. أنها بهذا المسلك الأخير تضع نفسها فى خندق واحد مع البنوك «الربوية» وتقوم بخدمة رأس المال والعجل الذهبى ، وليس الله والرسول .

من هذه المشكلات البطالة ووضع مشروعات تعاونية أو فردية صغيرة فى «ورش» أو فى المنازل ، وتيسير المهارات المطلوب (الكمبيوتر/ اللاسلكى/ الكهرباء .. ألخ) بمعاهد تدريب مهنى سريعة .. ويمكن الاستعانة فى هذا بنقابة المهندسين ومواردها المالية والفنية .

من هذه المشكلات أيضا مشكلة العلاج الذى أصبح تجارة وخضع لاسوأ صور الاستغلال والانتهازية ، ولا بد أن تقف نقابة الأطباء موقفا حازما ، موقفا إسلاميا لا تخشى فيه لومة لائم ، ولا تخاف سطوة المنتفعين بالطب والعلاج ، وأن يكون دورها فى هذا أعظم ، أو على الأقل مماثل لدورها فى عرض السلع المعمرة وتقديم الخدمات والمصايف للأعضاء .

وفى الأربعينات كنت أقول إن هناك هيئة واحدة يمكنها أن تقضى على الأمة فى مصر ، وتوقف تواطؤ الحكومات على إبقائها ! ، هذه الهيئة هى الإخوان . وقد لا تكون اليوم بمثل ما كانت فى الأربعينات عندما كان هناك خمسمائة شعبة على الأقل كخليات نحل ، ومع هذا فلا يزال القول (إيجابيا وسلبا - أى قدرة الإخوان فى مواجهة تواطؤ الحكومات) صحيحا .

ويمكن للإخوان أن يتبنوا مشكلة بناء بيوت للمسنين من الآباء والأمهات بعد أن ضاق التكوين الجديد للأسرة المصرية عن إيوائهم وفى توجيه القرآن للبر بالآباء والأمهات ما يميل على الإخوان القيام بدور نحو هذا التوجيه القرآنى ..

ويمكن للإخوان تكوين جميع باسم «جمعية الأمام الشهيد حسن البنا للتبرع بالدم» خاصة فى يوم استشهاده (١٢/٢/١٩٤٩) وبذلك يقومون بواجب إنسانى مقدس ويحيون ذكرى إمامهم الشهيد الذى لو أجرى له نقل الدم اللازم لكان من المحتمل أن يعيش ...

ويمكن للأخوان دراسة واقتراح تكوين «محاكم صلح» أهلية ، شعبية في كل حي تحمل عن المحاكم عبء القضايا «الملتلة» والمراكمة ، وتحقق الصلح والعفو والتسوية بالحسنى ، وهي كلها من أهم توجيهات الإسلام التي وصلت الى الدرجة التي يمكن معها عدم إعمال الحدود ...، مادامت لم تصل الى السلطان ...

هذه كلها وعشرات أخرى مما يمكن للأخوان أن يقوموا بها مساهمة في جعل الإسلام منبج حياة .

ونعلم أن أصحاب الدعوات المصمتة المغلقة كالماركسيين في أوروربا والرافضة الحديثة في المجتمعات الإسلامية . (من يطلق عليهم الجماعات الإسلامية) يضيّقون بفكرة «الاصلاح الاجتماعى» ويرون فيها تقيماً لدور الدعوة الوحيد وهو تقلد الحكم وتطبيق النظرية أو العقيدة . نرى هذا جلياً في الكتابات الماركسية نحو الحركة النقابية . وفي كتابات حزب التحرير ، والفريضة الغائبة نحو مشروعات الاصلاح الاجتماعى . ولكن هذا خطأ خالص فإن أفضل المشروعات هى مايقوم على أساس شعبى وبوازع القرآن وليس بوازع السلطان . وهذه المشروعات كلها خطوات على طريق الاصلاح ولبنات في تكوين المجتمع .

نعم إن الأخوان ليست دولة داخل الدولة ، ولا تسمح مواردها بكل هذا النشاط ، بل انها «محظورة» كما يقولون .. ولكننا جميعاً نعلم أنها لو آمنت بما قدمنا ، فلن تعجز عن أن تتوصل الى الموارد البشرية والمادية التي يمكنها من القيام بدورها .

أما الشق الثانى ، الخاص بتجديد المفاهيم الاسلامية ، فإن مفتاحه الرئيسى هو - فى ثلاث كلمات - (العودة الى القرآن) ، لأن المذاهبات ، والفقهيات ، والتراثيات ، أصبحت سداً عالياً يفصل ما بيننا وبين المنبع ، ويفسد بطريقته طريقة القرآن ، فكأننا ما كان الاعزاز لهذا التراث واثمته فالله أولى ، والقرآن أحق . ومن العجز وكلال الهمة ، وصدء العقل أن نظن أننا لانفهم القرآن الا فى ضوء التفسير وما وضعه الاسلام .. فهذه مخالفة صريحة لنهى القرآن الناس عن أن يتبعوا كلام آبائهم

وأجدادهم وأن يأخذوا بما أنزل الله .. وأنا مؤمن تماماً أن الخطأ والقصور فيما وضعه الآباء والأجداد أكثر من الصواب فيها . وأنها تعجز عن أن تجابه تحديات العصر ، أو أن تسامى النص القرآنى الذى يمكن استلهامه فى مواجهة هذه التحديات .

فى ضوء هذا المفتاح ، يكون علينا الإيمان بالله ، كما صوره القرآن ، وليس كما صوره علم الكلام الركيك وما يحفل به من محامكات وافتراسات تناقض أسلوب وطريقة القرآن .

فى ضوء هذا المفتاح ، تكون القيم الإسلامية العظمى هى مصادر الفقه الإسلامى ، وأولها العدل : العدل فى الاقتصاد ، والعدل فى السياسة ، والعدل فى الاجتماع .. ويكون العقل هو ميزان الفكر فى كل شئ - باستثناء - ذات الله تعالى التى تعرف بالوحى .

فى ضوء هذا المفتاح ، تفهم حرية القرآن ، بلا حدود ، فى مجال الاعتقاد إيماناً وكفراً ...

فى ضوء هذا المفتاح نضع المرأة الوضع الذى أراده القرآن (ولهن مثل الذى عليهن ، وللرجال عليهن درجة) وواضح أن هذه الدرجة هى درجة القوامة المنزلية ، وليست المنزلة أو المكانة فى الحياة ، التى يجب أن تتبع قاعدة المساواة التى وضعها القرآن ، مما يخرج عن إطار القوامة المنزلية .

ولا أريد أن أطيل ، ولكن قد يكون من المفيد الإشارة الى أننا قد فتحنا الباب بما قدمناه من كتابات عديدة لفهم إسلامى رشيد وتحديد للموقف الإسلامى فى العقيدة ، والشريعة ، والسلوك^(١) .

(١) من الكتب التى أصدرناها وتمين القارئ على الفهم الإسلامى المنشود .. الاصلان العظيمان : الكتاب والسنة ، العودة الى القرآن ، قضية الحرية فى الاسلام ، حرية الاعتقاد فى الإسلام ، الإسلام والعقلانية ، البرنامج الإسلامى ، الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة ، الربا ، الإسلام والحركة النقابية ، تعميق حاسة العمل فى المجتمع الإسلامى . بيان رمضان . الأسس الفكرية للدولة الإسلامية ، الإسلام هو الحل ، رسالة الى الدعوات الإسلامية ، ركائز الأصولية الإسلامية .. الدعوات الإسلامية المعاصرة ، لأخرج .. الخ (أنظر قائمة الكتب أخر الكتاب) وتتفاوت صفحات هذه الكتب ما بين ٩٦ صفحة و ٨١٣ صفحة ...

وللأخوان أن يأخذوا أو يدعوا .. ينقصوا أو يضيفوا .. ولكنهم في جميع الحالات سيجدون أمامهم اجتهادات ومحاولات .

ولكن لا يجوز لقيادة هيئة - كائنة ما كانت - أن تنصب لأعضائها محكمة بابوية ، تحد مايجوز أو مالايجوز من القراءات . فهذا تعطيل واهذار لحرية الفكر ومسئولية الفرد عن نفسه التي قررها القرآن ، ونوع كرهه من الوصاية على عقول الأعضاء كأنهم قُصَّر لا يدركون مصلحتهم . وبأى حق يجوز لقمة أن تدعى القوامه أو تحتكر المعرفة .. آأخذوا من الله موثقاً ؟
هذا أمر مرفوض ، مرفوض ، مرفوض .

أخوانى الاخوان ..

لعل أكون قد عبرت عن اعزازى لكم ، وتقديرى للجوانب في دعوتكم لم تستكشفوها ، أو لم تعطوها الأهمية .. وعندما أنتقد السلبية ، فأنا مقدر أن هيئة الأخوان هي أكبر هيئة قدمت شهاداء ، وتعرضت لتضحيات وتحملت اضطهادات .. ولكنى ثقتى في قوتكم أعظم من ثقتى في قوة أعدائكم والمتربصين بكم .

وإذا قلت لكم يسروا ، ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا .. فإنما أكرر توجيه الرسول .

وإذا قلت لكم لاتبعوا الآباء والأجداد ، وإنما ما أنزل الله ، فإنما أكرر ما جاء به القرآن الكريم .

وإذا أوصيت بالمرونة ، فقد ضربت لكم الأمثال من سيااسات الأمام الشهيد حسن البنا .

وقد كتبت لكم على صفحات هذا الكتاب ، لأن شعرة معاوية التي تربطنى بقياداتكم الحالية لاتصلح قناة في هذا الأمر الخطير .

غِيَابُ الرُّؤْيَا الْإِسْلَامِيَّةِ (*)

مقدمة :

من الخير أن نقدم لهذا المقال ببعض الإيضاحات لما قد يلتبس بذهن القارئ ، أو لالقاء ضوء على فكرتنا عن الموضوع

(١) فالمقال هو عن «الرؤية الإسلامية» وليس عن الإسلام نفسه ، وهناك فارق كبير ، ولكن قد يروق لبعض الناس أن لا يفرق بينهما ، كما قد تدق على آخرين هذه التفرقة - لذا لزم التنويه !

(٢) نحن نعطي الموضوع أهمية كبرى لأنه يعالج قضية تتصل بالإسلام ، وأى شيء يمس الإسلام ، لابد وأن يكتسب أهمية خاصة .. فالإسلام هو اختيارنا الحضارى ، وهو أصل القيم والآداب ، ونحن نؤمن به ، ونعتر به ، كما لانؤمن أو نعتر بأى شيء آخر .

(٣) بالإضافة الى هذا الجانب الدقيق ، فهناك ما لا يقل عنه أهمية ، وهو الجانب الموضوعى .. فبالنسبة لمصر ، فإن الدين كان دائما محور المجتمع ، وضمير الشعب ، وهذه الحقيقة هي أبرز «خصوصيات» مصر على مر العهود ، من أزيس حتى المسيحية فالإسلام ، فقضية الإسلام بالنسبة لمصر قضية محورية أصيلة تمس صميم كيان المجتمع

(*) نشرت في مجلة منبر الحوار العدد ٣١ .

شباط ١٩٩٤ - السنة التاسعة من ص ١٠٠ الى ص ١١٣ .

المصري ، ومع أن مصر ارتبطت بالثقافة الأوروبية (العلمانية كما يقولون) منذ ١٨٠٥ بدء ولاية محمد علي ، وأراد لها اسماعيل باشا أن تكون «قطعة من أوروبا» ، ثم جاء الاحتلال البريطاني فحاول طمس أبرز مقومات الشعب ، الا وهو الإسلام السياسي (كما يقولون أيضا) ، وختم هذا كله بثورة ١٩١٩ البورجوازية التي أبعدت الإسلام من صدارة المجتمع الى ركن قصي فيه لا يظهر الا في المناسبات والموالد والحفلات وعند طلب الفتوى أو رؤية الهلال !!

ومع أن نظم الحكم تصدت للدعوة الإسلامية منذ البداية ، فجمد محمد علي عمل السيد عمر مكرم ونفى توفيق باشا جمال الدين الافغانى .. واغتالت ملكية فاروق حسن البنا .. ثم حلت الهيئة الإسلامية الأم (الإخوان المسلمين) ، حتى وضع عبد الناصر سياسة «استهدفت تدمير رجال الإخوان ، و «تعيير» نساء الإخوان !!» وفتح السجون والمعتقلات التي مورست فيها أشنع صور التعذيب المقيت ..

ومع أن وسائل الإعلام والثقافة والصحافة والفنون وضعت كلها في أيدي أفراد تشربوا الثقافة الأوروبية بصورة قطعت كل الوشائج ما بينهم وبين مجتمعهم ، وجعلتهم يعملون لخدمة النظام الحاكم ، لا يشركون به شيئا ..

مع هذا كله ، فإن الطبيعة الإيمانية للشعب فرضت نفسها على الحكام وحفظت للدعوة الإسلامية تماسكها ومكانتها ، وأوقعت الساسة في مأزق اضطروا فيه الى المداينة والنفاق وأن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم دون أن يخفى هذا على الشعب الذي فقد الثقة فيهم ، وبعدت الشقة بينه وبينهم وأصبحوا في واد والشعب في واد آخر ، فلم يجنوا على الإسلام قدر ما جنوا على أنفسهم ونظام حكمهم .

(٤) ومرة ثالثة ، فإن الإسلام الذي يمثل خاتمة الأديان ونهاية مسيرة الإنسان للتعرف على الله ، لا يقتصر على أنه اختيارنا الحضارى ، أو أنه «ضمير مصر» ، إنه - كذلك - خلاص العالم ، لأن الأساس الحقيقي للحضارة هو الدين ، وواسطة العقد في الدين هي عقيدة الألوهية ، وبقدر ما تقرب هذه العقيدة من الكمال ، بقدر ما يكون تميز الدين ، وهذا هو ما حدث بالنسبة للإسلام ، عندما يفهم فهما سليما . فقد توصل العقل البشرى الى تلك المنجزات الرائعة التي قامت عليها الحضارة الأوروبية ، ونحن لانقلل منها ، بل نحن أول من يعترف بها ، ولكن هذا لا ينفي وجود

قصور في ذلك الجانب الهام ، جانب السلام النفسى الذى لا يمكن لحضارة الاستمتاع والاستهلاك ، أو حتى الفنون والآداب ، أن تحققه تماما ، لأنها وإن أشبعت مطالب الجسد ، وإلى حد ما ، النفس ، وكفلت الأمن من الفاقة والحاجة (وهى المجازات رائعة) فتظل الروح جائعة ، ولا تزيدها الثروات إلا احساسا بهذا الجوع الذى يأخذ شكل الاكتئاب ، والذى يودى بصاحبه فى بعض الحالات التى الانتحار . ولا يمكن أن يدرك سلام النفس إلا عندما يربط بمسمى موضوعى مطلق تماما ، وكل موضوعية - خلا موضوعية الله - موضوعية ناقصة لانبرا من شرائب القصور والذاتية ، ولهذا نغصت الحروب والقلاقل صفو الحضارة الأوروبية ، فنشبت الحروب ما بين الدول الأوروبية بعضها بعضا ، ونشبت فى داخل كل دولة بين الأغنياء والفقراء ، الأقوياء والضعفاء .. ثم نقلت أوروبا تلك المعركة الى الشرق وإلى آسيا وأفريقيا ، فنهبت ثرواتها - حتى الثروات الآدمية عندما استرقت الأفريقيين ودفعت بهم إلى مزارع السكر والقطن والدخان فى أمريكا وجزر الهند الشرقية ... ألخ ، وإذا كان العالم القديم قد شن الحروب مدفوعا بالجهالة والفاقة والجاعات ، فإن العالم الحديث يشن الحروب مزودا بالعلم والثروات واستعلاء واستكبارا وتكاثرا ..

ولو استلهمت الحضارة الأوروبية قيم الإسلام ، لاستكملت ما ينقصها ، ولبرئت مما يشوبها .

الى هذا المدى ، نحن نؤمن بالإسلام ، نؤمن به لأنه اختيارنا الحضارى ، ولأنه سر خصوصية مصر ، وقاعدة ضميرها ، ومفجر إيمانها ، ولأنه أخرنا خلاص العالم بعد أن بغت الحضارة الأوروبية وطغت وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها . ولا شيء - بالطبع - يمكن أن يعادل هذا التقدير للإسلام ، أو يستاميه .

(٥) فى المقال أحكام وآراء تطلق على علاقتها بالنسبة للتفسير والحديث وقد تعطى طابع التعميم ، ولم يتسع المجال لتفصيلها أو إيراد الأساس الذى بنيت عليه ، لأن هذا سيخرج المقال عن حجمه وطبيعة موضوعه ، وسيبعده عن النتيجة التى يراد الوصول إليها .. وقد تعرضنا لمعظم هذه الأحكام والآراء بالتفصيل فى كتب سابقة لنا ، وبوجه خاص (الاصلاح العظيمان : الكتاب والسنة) وعلى من يريد التفصيل أن يرجع إليها ..

كيف حدث أن الإسلام ، عندما آمن به العرب أول مرة ، نهض بهم من قبائل متناحرة تفخر بالشراب وتقاتل لسبق حصان أو عقر ناقة ، الى أمة متأسكة تحمل «الكتاب والميزان» الى الأمم الأخرى ، وتهدم الامبراطوريات الطبقية الظالمة التي قامت على أساس الاستعلاء والاستكبار ، وتقدم للبشرية تجربة لم تعرفها - من قبل أو بعد - هي «ديمقراطية الجامع» في عهد الرسول ﷺ ، وحكم الخلافة الراشدة بعده !

ثم كيف حدث أن الإسلام لا ينهض اليوم بالمسلمين من درك التبعية المهين ، وما توقعه اسرائيل والولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية - حتى خثالتها ، الصرب - من اذلال للرجال واغتصاب للنساء ، ووصاية على القرار ، ولا تحمر وجوه ، أو تغلى دماء ، أو يتحرك ساكن 19

ثم كيف يمكن أن تستخدم العداوات والحروب بين الدول الإسلامية بعضها بعضا ، أو داخل الدول الإسلامية نفسها ، حتى ما تعلقت به الآمال - كايران وأفغانستان ، والسودان ؟!!

لماذا حدثت المفارقة ...

وأين الخطأ ...

لا يمكن أن يكون في الإسلام ، لأن الإسلام نهض بالعرب من قبل فقضى ذلك على مظنة أن يكون - بالضرورة - سبب تخلف .

ولا يمكن أن يعود الى «جنس المسلمين» فليس في جنس المسلمين - اذا جاز التعبير - ما ينحط بهم ، فقد كان لهم في يوم ما امبراطوريات ، وعهود ازدهار .

لا بد أن يكون هناك «حلقة مفقودة» يتعين البحث عنها ...

والحلقة المفقودة هي (سوء فهم الإسلام) الى درجة جعلت الإسلام الذي يؤمن به المسلمون اليوم غير الإسلام الذي آمن به صحابة محمد والذي جعلهم يفتحون العالم ، حتى وان كان المسلمون اليوم يجأرون بأعلى أصواتهم (لا اله إلا الله محمد رسول الله) .

ومن ظواهر سوء الفهم ، القضية التى نعالجها الآن ، «غياب الرؤية الإسلامية» !

ما الذى نعنيه بافتقاد الرؤية الإسلامية ؟

هناك مثل يتحدث عن الأشجار والغابة ، ويفرق بين الذى ينظر الى الأشجار
فلا يرى الغابة ، ومن ينظر الى الغابة فلا يرى الأشجار !

ويعتبر الإنسان أن يرى الغابة والأشجار معا .. ولكن هذا عادة يتعذر ، وإذا
اتسعت الغابة الى درجة معينة ، فمن المؤكد أنه سوف يتعسر الجمع بين رؤية الاثنين ،
ويكون على الإنسان أن يقنع بأحدهما .

فإذا نظر الى الأشجار ، فسيعرف شيئا عن بعضها ، ولكنه لن يعرف الباقي ،
وأهم من هذا أنه لن يلم بروح الغابة ، وأبعادها ، والصورة العامة لها ...

وإذا استشرف الغابة ، فإنه لن يلم بالخصائص المميزة لأشجارها .

وفى أيام الرسول كان الإسلام - غابة وأشجارا - شيئا واحداً ، كانت الغابة
محدودة بحيث يمكن أن يراها ويرى مافيها من أشجار ، أو بالتحديد شجرتها !

لأن الإسلام لدى الصحابة هو القرآن والرسول ...

القرآن الذى تقبلوه سورة سورة ، أو حتى آية آية ، لا يتجاوزون بضع آيات
حتى يلموا بما فيها من العمل فيأخذون أنفسهم به ، وينتقلون الى آيات أخرى ...

وقد يظن أن هذه توحى بالتجزئة ، والنظر الى أغصان الشجرة ، وليس
الشجرة ، ناهيك بالغابة ، ولكن حال دون ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص أو
تاريخ ، ولا هو مبوب كبقية الكتب من فصول وأبواب ، من لم يلم بالأول منها لا يدرك
الآخر .. إن السور القرآنية أشبه باللوحات التى تُغنى كل واحدة بنفسها ،
وتتضمن كل واحدة الجواهرات التى فى السور الأخرى ، وتحمل كل واحدة بصمة

القرآن ، أو هي حبة من حبات عقد لا تختلف واحدة عن أخرى إلا بما يحقق الكمال للعقد النظيم ، بحيث تتألف مع واسطة العقد التي تتميز بالحجم والموقع ، ولكن نوعية الحبات الأخرى لا تختلف عنها .. فواسطة العقد هي عقيدة الألوهية ، والحبات الأخرى تمثل ما ينبثق عنها من حرية أو عدالة أو يسر .. ففي كل حبة شيء من واسطة العقد ، وليس هناك سورة مغلقة على نفسها ، منبثة عن اخوانها ، فالمعاني القرآنية شائعة في كل السور والآيات تسرى وتتمشى معها بحيث تكاد ترى الغابة في الشجرة ، وهذا من أسرار اعجاز القرآن !!

وعندما كان الرسول يقرأ عليهم سورة ، أو جزءاً من سورة ، فإنهم كانوا يتشربونها كلمة فكلمة ، آية فآية ، فتفعل في أنفسهم كما يفعل أقوى عقار في النفوس . لم يكونوا يسألون النبي عن معاني بعض الآيات ، حتى التشابهات ، ولم يكن الرسول أيضاً ليذكر لهم معانيها إلا في القليل النادر ، لأن المعاني - وإن كانت أهم ما يتضمنه كتاب - فإن القرآن لا يصل إليها بالطريق الرياضي ($1 + 1 = 2$) ولا بطريق منطق أرسطو ، ولا بطريق التعريفات الجامعة المانعة .. إنه يصل إليها بطريق الرمز ، والجاز والابداع الفني حيث لا يمكن أن يسأل عن معنى الأسود أو الأحمر أو النغم العالي أو الخافت ، وليس المهم (يعني آية) قدر ما أن المهم هو (الأثر) الذي يتركه في النفس .. ولعل القرآن نفسه عبر عن هذا بقوله ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... ﴾ .

وقد ألفنا أن نقرأ في الكتب التقليدية أن الصحابة ما كانوا يسألون لأنهم أفصح العرب لساناً ، ولكن هذه ليست القضية ، لأن فهم القرآن لا يعود إلى الفصاحة ، فليس هو كتاب لغة ، ولكنه كتاب هداية ، وقد صكت ألفاظه ومفرداته وطريقة نظمه بحيث تحقق التأثير المطلوب للهداية .

وقد كان بوسع الرسول أن يفسر القرآن للصحابة آية آية ، ولكنه لم يفعل وما يطلق عليه «التفسير بالمأثور» وينسب إلى الرسول محدود ، ولا يستند معظمه إلى روايات قوية ، ناهيك بأن تكون متواترة ، وهذا في حد ذاته يجعل من التفسير علينا

أن نَحْكُم في القرآن المقطوع بنزوله ، والمتعبد بلفظه ، أحاديث ليست لها هذه المرتبة ، أو مايقاربها .. وإذا كان لا يؤخذ في مجال الاعتقاد الا باليقين ، وأنخبار الآحاد لاتنفيد الا الظن ، فإن هذا أخرى أن ينطبق على القرآن لأنه مرجع الاعتقاد .. وعلى كل حال فإن ركافة معظم مايروون على أنه تفسير مأثور ، تغنيا عن البحث في مصداقيته .
والذى حدث هو أن الصحابة استمعوا الى القرآن بأذانهم وقلوبهم ، فتغلغلت قيمه ومعانيه في نفوسهم ...

وجدوا فيه الترغيب الذى أضرهم حماسهم وشحذ عزائمهم ...

وجدوا فيه الترهيب الذى جعلهم يخشون ويخشعون ، ويكبحون نوازع الهوى ...

وجدوا الدعوة الانتهاضية للجماهير المستعبدين في الأرض ، للانطلاق والعمل ، ليكونوا شهداء على الناس ...

وجدوا النظم الساحر والموسيقى الأخاذة ، ففاضت نفوسهم بالحُب ، والرضا والجمال ...

وجدوا القيم ، والحث على السر والتدبر والتفكير والانفاق والتبديد الفظيع بالظلم والاستغلال والبخل والأنانية والتكاثر والتفاخر .

وجدوا الصورة المثلى للالوهية .. الله .. المثل الأعلى الحى الخالق المصور الخالد ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، أصل العلم والحكمة والرحمة والقوة لاتدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء .. فتعلقوا بشعاع من هذه الشمس الباهرة ، فأضاء نفوسهم بالمعرفة ، وفجر فيها قوة الإيمان ...

وجدوا المنطق الذى يقوم على البداهة والطبائع وأصول الأشياء بحيث تتلقاه القلوب وتتقبله العقول ، فيحسم القضايا المعقدة للخلق والبعث والتوحيد ، بكلمات معدودات دام خلقوا من غير شيء ، أم هو الخالقون ، .. «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحيا الذى أنشأها أول مرة وهو بكل شيء

.. «الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه».. «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من اله إذا للذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ...» .

واستشعروا العزة والكرامة من استخلاف الله تعالى لآدم وتفضيله على الملائكة ، وتمكينه من مفاتيح المعرفة ، وتبيينوا فيما أراده الله من تعدد وما سمح به للشيطان من اغراء ، وماكره من أن الحكم بين الناس إنما هو لله وحده ، ويوم القيامة وحده ، .. حرية الإنسان في سلوك الطريق واتخاذ القرار .. فلم ينصبوا أنفسهم قضاة ، ووصل عمق معنى الحرية في نفوسهم أن منع على بن ابي طالب معارضة الذين خرجوا عليه بالسلاح حرية لا يظفر بها أى معارض في العصر الحديث !!

ولم يفتهم أبدا مغزى ودلالة القرن القرآنى ما بين الصلاة والزكاة ، الإيمان والعمل الصالح ، فأخذوا أنفسهم به .

وكان هناك آيات ، ومعان لم يلموا بها ، ولكنهم لم يتعسفوا الوسائل إليها .. فالقرآن لكل الناس وليسوا هم كل الناس ، وهو لكل الأجيال ، وليسوا هم كل الأجيال ، وقد ضم كل شيء ، ولن يلموا بكل شيء فوكلوا ما لم يفهموه الى خالقه مؤمنين أن هذا ليس عجزا ، أو تقصيرا ، ولكنه البعد عن التكلف ، أو أن يلموا بما لا يمكن أن ينهضوا به فيكون حجة عليهم !!

كان هذا هو القرآن بالنسبة للصحابة ، وقد أُلوا به ، بل وأحكموه تماما حتى وان لم يحفظ الواحد منهم الا بعض السور ، لأن القرآن كالتوب أو السجل ، تكفى «فصقصة» للتعرف عليه !

ومن هنا خلقهم القرآن خلقا جديداً ...

وكان الذى قدم إليهم القرآن هو محمد نفسه ، ولسانه ...
ووجد الصحابة في محمد التجسيد العملى لما يكون عليه القرآن ...
كان بالنسبة لهم أسوة وليس سنة ، وقدوة ، وليس حديثا ...
وجدوه صادقا ، آمينا ، برا ، رحيمًا تسبق رحمته غضبه ، وسماحته عقوبته ...

وجدوه سخيا كريما ، لا يبقى على شيء لنفسه ويؤثر الآخرين ...
وجدوه شجاعا في الحرب ، يتقدم ولا يهاب ولا يتأخر عندما يحاط به ولا
يخشى أن يصاب ...
وجدوه متواضعا لا يستعلى ، موطأ الاكتاف ليس فحسب لأصحابه الأديين ،
ولكن لأى جارية من جوارى المدينة ...
وجدوه سهلا ، هينا ، يؤثر اليسر على العسر ، والرفق على الشدة وما خير بين
أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن حراما .
وجدوه يتسع لكل الأديان ، آوى إليه مارية القبطية ، وتقبلها أما لأبنه ابراهيم ،
وضم اليه صفية اليهودية ، وعلمها أن ترد على عائشة وحفصة عندما عيراهما بأصلها
اليهودى «قولى لهما .. أبى موسى ، وعمى هارون ، وزوجى محمد ا» .
لم ينقلوا عنه أنه ضرب ، أو نهر ، سخا ، أو ندد بمخالف ، أو حتى ذكره
بالاسم ، فكان يكتفى أو يقول ما بال أقوام ...
وجدوه وهو الفاتح المنتصر ، يدخل مكة ساجدا لله على قتب بعيره لم يدخلها
فى مركب نصر ، ولم ييحبها لجنوده ، وإنما قال «أحلت ساعة من نهار» ولما مثل أمامه
أعداؤه الذين آذوه أشد الإيذاء ، ودفعوه للهجرة ، عفى عنهم وقال «اذهبوا ، فأنتم
الطلاقاء» ولما أسلموا بحيت كل ذنوبهم السابقة وعادوا اخوانا ...
هذا هو محمد الذى آمن به الصحابة ، والذى جعلوا منه اسوة لهم ، وقبىوا
منه ، كل بقدره ، فأصبحوا كالنجوم ...

فى القرآن ، وفى محمد ، وجد الصحابة الإسلام ...
ولكن واحدا من الصحابة لم ير أن عليه أن يحفظ كل آية فى القرآن ويعرف
على وجه التحديد تفسيرها ... ولم ير أحد من الصحابة أن عليه أن ينخلع من ماله
وتجارته وعمله ، ليصحب الرسول ليل نهار ، وليتقصى كل شاردة وواردة منه ...

حتى عمر بن الخطاب ، كان عليه أن يذهب للصفي في الأسواق ١
فلم يكن هناك «غابة» شاسعة كثيفة تضل فيها العقول .. ولكن كان هناك
أساسيات في الفهم والعمل التزموا بها ، وأسقطوا ماعداها .
كانت الرؤية الإسلامية متوفرة ، بحيث عرفوا الإسلام ، وعن هذه المعرفة أصبح
بإمكانهم الحكم على الأشياء تبعاً لها

ولقائل أن يقول ...

ونحن اليوم أليس لدينا القرآن ، ولدينا السنة ؟ فما الذي ينقصنا ...؟
نقول إن الصحابة كان لديهم القرآن الذي لم يلتبس بشيء آخر ...
وكما قال الصحابة لا اله الا الله .. فأثبتوا وجود الاله بنفى ماعداه وكشفوا المعنى
المطلوب ، فإنهم كذلك قالوا «لائليس بالقرآن كتابا آخر» ...
ولكننا قد أوجدنا جنب القرآن عشرات الكتب والمجلدات التي تنبئ منها رفوف
المكتبات بما أطلق عليه «التفسير» .

ولم يعد الناس يقرأون القرآن مجرداً ، وإنما يقرأونه عبر هذه التفسيرات ، وبعد
أن يكونوا قد رجعوا إليها .

ونحن لا نطعن في أمانة المفسرين أو كفاءتهم ، ولكن يظل كل تفسير محكوم
بمحددات القدرة البشرية وما يزحف عليها من مؤثرات نفسية أو بيئية ... ألخ .

ولعل أبسط ما يذكر في هذا الصدد أنهم لم يجدوا حرجاً في أن يملأوا كتبهم
بكل الخرافات والدعاوى والروايات الاسرائيلية التي لا يقتصر الأمر فيها على الكذب ،
ولكن على أنها تتضمن من المعاني ما يعارض أو يشوه النص القرآني ١١

وأشوأ من هذا أنه يذهب بالاعجاز القرآني .. فالصيغة القرآنية المحكمة بطابعها
الموسيقى/ الفني / السيكولوجي والذي تشبه قطعة من السكر المعقود ، قد أريقت
في جرادل من المياه المتعكرة بالشوائب والخزعبلات ... وقد قال الله تعالى

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... ﴾ لأن القرآن (صيحة) عالية تزلزل الجبال فما بالك بالنفوس التي فيها آذان تسمع وقلوب تؤمن 119

لم يعد القرآن كتاب هداية يخلق النفوس خلقاً جديداً ، وإنما مجموعة اقاصيص وحكايات للتسلية ، ووضع في قاعدتها «أسباب النزول» فالآية الفلاتية نزلت لوقع حادثة معينة ، وخلاص 11 ، ومع أنهم لا يفتأون يقولون إن العبرة بعموم النص لا بخصوص السبب ، فإن خصوص السبب ألقى غشاوة ثقيلة على عموم النص وموضوعيته وإطلاقه .

وتقبلوا - قالة النسخ - على أسس واهية وأحاديث ركيكة .. وحكموا قواعد اللغة في القرآن ، في حين أن القرآن وإن نزل بالعربية فإن له قواعده الخاصة ليست فحسب فيما يتعلق بالنحو ، بل في صياغة اللفظة .. وكأنهم تصوروا أن الله تعالى سيلتزم بما وضعوه من قواعد !

وقد تنتزع آية من سياقها للاستدلال بها فيما لا يمكن أن يتسق لو استكمل لها ما قبلها وما بعدها ، أو تصبح مجافية لآيات أخرى عديدة 11

باختصار ، وقف التفسير مابين القارئ والقرآن ، وحال دون أن تنطلق كلمات الله الى القلب مباشرة بحرفها وجرسها وما توحى به .. فلم يحدث القرآن في المسلمين ما أحدثه في الصحابة عندما لم تكن هناك أمثال هذه التفسير .

وللرسول كلمة بعيدة المغزى «من قال في القرآن برأيه فأصاب ، فقد أخطأ» والذي أفهمه أن الرسول (ﷺ) عندما لم يسمح لأحد أن يقول في القرآن شيئاً ، وأن لا يتدخل أحد بين القارئ والقرآن .. كان يستبعد كل ماكان يمكن أن يأتي بتفسير .

إن عدداً من العوامل بعضها ذاتي يعود الى المفسرين أنفسهم ومااعتقدوه ، وبعضها موضوعي يمثل المجتمع الإسلامي في فترة معينة فرضت نفسها وأوجدت هذه المجلدات من التفسير .. ولكن هذه العوامل بشقيها الذاتي والموضوعي ، قد انتهت

الآن ، ولم يعد مبرر للعودة إليها خاصة بعد أن ظهر الكم الرهيب من الاسرائيليات والدعاوى التى تطرقت الى معظمها .

والمطلوب الآن من المسلمين أن يجعلوا علاقتهم بالقرآن مباشرة ، وأن يفتحوا عيونهم وقلوبهم له ، وأن يقرأوه قراءة تدبر وتفكير وخشوع وإحيات ، وأن لا يعودوا لفهم كل آياته الى كتب التفسير ، أو أن يخرجوا عليها - صما وعميانا ، وعندئذ سيخلقهم القرآن خلقا جديدا ... وسيرهم آياته في أنفسهم .. فإذا لم يجدوا هذا ، فما قرأوا القرآن حق قراءته ...

وحدث للموقف من الرسول شيء قريب كالذى حدث للقرآن .. فلم يعد الرسول هو الأسوة ، القدوة ، العمل .. ولكن الحديث والسنة التى بنيت عليها الشريعة ...

وكان الرسول قد أمر بعدم كتابة كلامه ، ومحو ما قد يكون قد كتبه البعض ، وما يحتاج به المحدثون من جواز الكتابة بحسب عليهم وينقض حججهم ، لأنه يعد ترخيصا لبعض الأشخاص على وجه التعيين (أبو شاه وعبدالله بن عمرو بن العاص) فيدل على أن الأصل هو عدم الكتابة ، وأن الترخيص إنما جاء لشخص بعينه ، أو لخطبة بعينها ، فضلا عن أن الكتابة لدى هؤلاء ما كانت تعدو الحديثين أو الثلاثة ...

وعلى كل حال فآخر القولين هو عدم الكتابة ، بدليل أن السنن لم تكتب في عهد الخلفاء الراشدين ، وقد فكر عمر بن الخطاب في كتابتها واستشار الصحابة فوافقوا .. ولكن شيئا ما حاك في صدره فطلق يستخير الله شهرا ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له فقال انى كنت أردت أن أكتب السنن .. وأنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله .. وأنى والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا^(١) .

(١) لقد ناقشنا قضية تدوين السنة في كتابنا (الاصلان العظيمان) بشيء من الاسهاب في الصفحات

من ٢٦٨ - ٢٧٥ .

وبالإضافة الى نهى الرسول عن كتابة حديثه ، فإنه كان يكره لأصحابه كثرة السؤال وقد وضع لهم القاعدة الذهبية في الحديث المشهور :

« ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم .. فإذا نهيتكم عن شيء فالتفوا .. وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » .

والترجم الصحابة بهذا التوجيه ، فلم يكونوا يكثرون الأسئلة ، وكان يعجبهم أن يأتي الأعرابي من قلب البادية ، لأنه كان يسأل فيعجبهم من أن «يقترفوا» السؤال الذي نهوا عنه !

والذي أفهمه من نهى الرسول (ﷺ) عن كتابة حديثه ، ونهى الصحابة عن الأكتثار من السؤال ، وكذلك ما جاء عن عمر وبقية كبار الصحابة في هذا الصدد أن الرسول المتأدب بأدب القرآن والمتزم به ، لم ير أن أقواله تعد نصوصاً تشريعية ملزمة للأجيال المسلمة ، شأنها شأن القرآن وإن لم يمنع هذا أنها كانت التصرفات المثلى وقتئذ .

أما بالنسبة للمستقبل ، ولكل المسلمين وليس للعرب فحسب ، فإنه لم يضع لهم كتاباً ، وكان يرى أن في الإلتزام بكتاب الله وما وضعه الله تعالى فيه من الأصول ما يهديهم ، وأنه ليس من الخير في شيء أن يقيدهم بتفاصيل قد تصلح للحاضر ولكنها لا تصلح للمستقبل .

هذا ما أفهمه بكل أمانة وإخلاص ، والا فإني لا أرى سبباً آخر لنهى الرسول عن كتابة حديثه ورفض عمر بن الخطاب كتابة «السنن» لأن فكرة الخوف من اختلاط كلام الرسول بأيات القرآن فكرة مستبعدة تماماً ، لأن أي واحد له أقل الملم باللغة العربية يمكن أن يميز بدهاء ما بين الصياغة الخاصة جداً للقرآن وأسلوب الحديث ، فضلاً عن أن كلمة عمر بن الخطاب صريحة في المعنى الذي ذهبننا إليه .

ولو كان في حديث رسول الله الزام مثل الزام القرآن لبادر أبو بكر بجمعه ، كما جمع القرآن ، ولما وقف عمر بن الخطاب موقفه أو قال قوله .

ولأ ينفى هذا حرص الخلفاء على تطبيق سياسات الرسول وأقواله ، واعتبارها ملزمة ، لأن أخذهم بها شيء ، واعتبارها ملزمة أبد الدهر وعلى أساس أصولي شيء آخر تماما .. فقد كان المكان والزمان واحدا ، ولم يجد من الأوضاع ما يتطلب اختلافا .. وكان من الطبيعي أن يعودوا الى ما قرره أو ما قاله الرسول ، وعندما بدأت أولى المستجدات في عهد عمر بن الخطاب لم يتردد هذا في الأخذ بما تفرضه الأوضاع الجديدة سواء كان من فارس أو الروم أو من وحى تفكيره أو نتيجة الشورى ، بل ان عمر بن الخطاب لم يتردد في «تجميد» بعض النصوص القرآنية عندما التفت العلة كابطاله سهم المؤلف قلوبهم ، وخذ السركة في المجاعة ... ألغ فضلا عن اجتهاداته في تحريم الكتابيات والمتعنين ، وكان في هذا كله يستلهم روح القرآن نفسه .

ولكن السرعة الرهيبة التي نمت بها الدولة الإسلامية واختلاط الأجناس غير العربية التي كانت معرفتها بالعربية محدودة ، وكانت بالطبع متأثرة برواسب حضاراتها ، أعجلت المسئولين من أن يضعوا «فقها» أصيلا يقوم على الأصول التي وضعها القرآن ، كما لم يسمح الاضطراب الذي لبّد خلافة عثمان وعلى هذين بالقيام بهذه المهمة .. وأن المدة أيضا لم تبعد عن عهد الرسول ... كل هذه العوامل دفعت بالائمة للأخذ بالسنة كأصل له قداسة الأصل القرآني ...

وكانت هذه الواقعة التي تعود الى الملابس أكثر مما تعود الى «الأصولية» نقطة تحول كبرى في تاريخ الفكر الإسلامي .. لأنها جعلت «الحديث» قاعدة للفقه وشركا للقرآن في المعالجة واتخاذ القرار ...

وهكذا بدأ الفقهاء يبحثون عن الحديث ، وظهر بجانبهم المحدثون «المحترفون» - إذا جاز التعبير - فما أن ظهر الطلب حتى ظهر العرض ، وبقدر ما يشتد الطلب بقدر ما تفتق الحيلة وسائل لكي يفي العرض بالطلب فظهر بجانب المحدثين المحترفين أمثال أبي هريرة وابن عباس محدثون آخرون تولو «وضع» الأحاديث ، إما للوفاء بالطلب ، أو للتكيد للإسلام أو «حسبة كما ظن بعضهم» أو كما قال نحن لا نكذب على رسول الله ، نحن نكذب لرسول الله !!

وكان من المفارقات التي أبرزتها الأوضاع أن أقل الناس صحبة للرسول هم أكثرهم حديثاً عن الرسول ، وأن أعرقهم صحبة هم أقلهم حديثاً !!

أبو هريرة الذي أسلم السنة السابعة للهجرة وصحب الرسول ثلاث سنوات روى ٥٣٧٤ .. أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري اللذان قالت عنهما عائشة «ما علم أنس بن مالك وأبي سعيد بحديث رسول الله ، وإنما كانا غلامين صغيرين !!» فقد روى أولهما ١٢٨٦ والثاني ١١٧٠ ، جابر عبد الله الذي خدم الرسول غلاماً روى ١٥٤٠ أما ابن عباس الذي قبض الرسول وهو ابن ثلاثة عشر سنة على أحد الأقوال . ولم يسمع من النبي الا أربعة أحاديث فقد روى ١٦٦٠ حديثاً .

في مقابل هؤلاء .. أبو بكر روى ١٤٢ حديثاً ، عمر ٥٠ ، علي ٥٠ ، عثمان ١٤٦ ، أبي بن كعب ٩٢ حديثاً !!

ولا يتسع المجال للحديث عن العوامل التي تحكمّت في سياسات وأحكام المحدثين الذين جعلوا مهمهم «غريبة» هذا الكم الهائل ، وما حفل به من وضع وتحرير ... ألغ ولا جدال في أنهم بذلوا جهوداً مضنية ووضعوا أصول علم جديد ، له معايير ومقاييسه واصطلاحاته .. ولكن هذا كله لا ينفي الحقيقة : اتسع الحرق على الراقي .. وأصبح الحديث غابة بمعنى الكلمة ، وأهمّل القرآن ، وأصبح هو - وليس القرآن - الأصل الحقيقي للفقهاء الإسلاميين !!

بل إن الهيئات الإسلامية التي ظهرت في العصر الحديث هي من انشاء السنة وليس من انشاء القرآن !!^(١) .

بالإضافة ، فإن الرغبة في الدفاع عن الإسلام وعرض بعض جوانبه بالطريقة التي يفهمها الروم والفرس ، أدت ببعض العلماء لاستحداث علم الكلام والكلام على التوحيد والذات الإلهية بطريقة تختلف تماماً عن طريقة القرآن .

(١) هذه الأحكام هي التي أشرنا إليها في مقدمة البحث إذ لها طابع الاكثريّة والأغلبية والصفة التقريبية ، ولكن لا بد منها لإبراز الطابع العام .

ذاب القرآن في التفسير ، وتحولت المسيرة الى سنة ، تحولت بدورها الى غابة كثيفة ، واستحوالت الرؤية الإسلامية التي كانت ميسرة أيام الرسول ولم يعد الحكم على الأمور من منطلق «الرؤية الإسلامية» ، ولكن من منطلق المقدمات المعينة التي يأخذها هذا الأمر ، والعلم المعنى الذي يعود إليه من تفسير أو فقه أو حديث أو أحكام ، وما ذهب إليه أئمة المذاهب بصفة عامة من التشدد بدعوى إثارة «الأحوط» و «سد الدرائع» ، حتى فيما تعم به البلوى .. بتعبير الفقهاء الأحناف .. كالطهارة و الوضوء ، فأكدوا أن تحت كل شعرة جنابة ، وأنه لو ترك من غسل الوجه واليدين ، ولو بمقدار رأس ابرة ، فالوضوء باطل ، والصلاة باطلة بالتبعية ، وأن هذا ينطبق على «المانيكير» الذي يحول دون تلامس الماء للاظافر ... الخ .

ازاء هذا التغلغل في التفاصيل ، وطابع التشدد أخذاً بالأحوط وسداً للدرائع ، لم يعد بوسع المسلمين أن يستخدموا المنطق ، أو الأصول التي كان يمكن أن تثمرها «الرؤية الإسلامية» لاتخاذ القرار في أى تصرف ، وأصبح عليهم إما أن يسلحوا أنفسهم بموسوعات الفقه والحديث والتفسير ... الخ ، وإما أن يسألوا الفقهاء في كل كبيرة وصغيرة ، جليلة أو حقيرة ، ومن هنا تضخم باب الاسئلة والفتاوى في الصحف الإسلامية أو العامة .. حتى «حواء» ! والمروء يتعجب من تفاهة ما يسألون عنه ، وتوقفهم ازاءه ، ويتعجب أكثر مما يصول به ويجول الفقهاء من كر وفر وعود الى كلام الفقهاء الاقدمين واختلافهم ... الخ .

وما هو الخطأ في هذا ؟

الخطأ في هذا ايقات استخدام مجموعة الأصول التي تستمدّها «الرؤية الإسلامية» من روح القرآن وروح الممارسات النبوية والتي تعتمد أساساً على المعقولة والمنطق ومبدأي العدالة والسماحة ، اللذين يميزان الرؤية الإسلامية ، والشخصية الإسلامية ، وبالتالي الاعتماد في اتخاذ القرار على الغير ، الذين قلما تأتي ردودهم متفقة مع «الرؤية الإسلامية»

وقد كان لدى الصحابة «الرؤية الإسلامية» التي كانوا يستطيعون أن يحسموا

بها أعقد القضايا ، وليست نقطة بول ، أو رأس إبرة لم نعلمها مياه الوضوء ، مثل قضية التحسين والتقيح التي كانت سببا في انشقاق المعتزلة ، وظلت حتى الآن من أكبر قضايا الفقه الإسلامى .. هذه القضية لم تستحق أن يتوقف عندها النعمان بن مقرن رسول المسلمين الى رستم الذى قال على البديهة وهو يتحدث عن الإسلام .. وهو دين يَحْسِنُ الحسَنَ وَيُقَبِّحُ القبيحَ .. ففصل فيها على أساس البداهة ورأى الصحابة في القضاء والقدر قوة دافعة لأنه اذا لم يهيننا الا ما قدر الله لنا فلا معنى للسلبية ولم يسمحوا لقضية مثل الصفات أن تعكر صفوا ايمانهم .. فكل هذه القضايا حلوها بحكم توفر «الرؤية الإسلامية» لهم .

وقد يروق لبعض فقهاءنا عندما يريدون التنديد بأحد الكتاب أن يقولوا إنه «لا يعرف فرائض الوضوء أو أركان الوضوء» !! دون أن يخطر ببالهم أن هذا يمكن أن ينسحب على ابن عباس الذى ما فتأ يقول إنه لا يرى الا غسلتين ومسحتين !

فسواء كان الأمر قضية جزئية ، أو قضية كلية .. فإن افتقاد الرؤية الإسلامية جعل المسلمين في تيه ، وأفقدتهم المعيار السليم الذى يجمع ما بين الأصولية الإسلامية ، والمنطقية العقلانية .

بين التقوقع والتميع^(١)

القضية التي تصدر الاهتمامات وتشغل الاولويات وتمثل الحرج والتحدى للطالب المغترب والعامل المهاجر هي كيف يمكن أن يتكيف مع ظروف هذا البلد الجديد أمريكا أو بريطانيا أو فرنسا .. ؟ كيف يمكن أن يحتفظ بتقاليد وعاداته وآدابه الاسلامية وفي الوقت نفسه يختلط بهذا المجتمع الجديد الغريب بحيث يستوعب دراسته ويؤدي مهنته ويتجنب المعوقات أو الحساسيات التي لا بد وأن تثور أمامه بالنسبة لوضعه الخاص ؟ .

بعض الأفراد ما أن يواجه المجتمع الأوروبي/ الأمريكي حتى ينهر فتزلزل خلال أسابيع أو شهور العادات والتقاليد والقيم والمبادئ القديمة زلزالا شديدا . ثم تنهار أمام صور الاغراء ومظاهر التحلل ووسائل الاستمتاع ويحس أنه كان في « جُرّه وطلع لبره » كما يقولون في ريف مصر .. ويتفاوت ماينتابه من تطور ما بين التميع الذي يصيب مقوماته والذوبان الذي يأتي عليها ويفقده شخصيته الخاصة .

ولكن يحدث في حالات أخرى* أن تثير مظاهر الحياة الأوروبية/ الأمريكية قوى المقاومة في النفس خاصة لدى الذين نشأوا نشأة إسلامية عميقة فهؤلاء لا يستشعرون إعجابا وإنهारा بل يحسون عزوفا وكراهية تؤدي بهم إلى نوع من التعصب والتقوقع والانمزال عن هذا المجتمع الكافر الضال المنحل !

(١) نشرت بمجلة «الطالب المغترب» بالولايات المتحدة ، وتصدرها لجنة طلبة اتحاد القوى الشعبية (الشوريين التعاونيين) بالجامعات الأمريكية .

وفي نظرنا أن المسلكين خاطئان .. فالمسلك الأول يقضى على الشخصية الخاصة للمغترب طالباً أو عاملاً دون أن يكتسب - ضرورة - الشخصية الأوروبية الأمريكية - ويغلب دائماً أن يستشعر نوعاً من النقص إزاء المجتمع الجديد الذي لم يبح له بكل أسرارهِ ولم يفتح له كل ابوابهِ واعتبره رغم استعدادهِ للذوبان دخيلاً . كما أن الرفض والتفوق لن يمكن صاحبه من أن يفيد مما يقدمه المجتمع من مزايا وفرص وسيحسر عليه أن يحقق تماماً ما جاء من أجله دراسة أو تجارة أو مهنة .

وقد نجد مثالين واقعيين للتطرف في الموقنين في عمال الشمال الأفريقي « من مغاربة وتوانسة وجزائريين » الذين ذاب كثير منهم في المجتمع الفرنسي وإن ضاق بهم المجتمع الفرنسي ، وفي العمال الأتراك الذين يقيمون في أحياء خاصة من المدن الألمانية التي يعملون فيها ولا تجمعهم بالمجتمع الألماني إلا ساعات العمل ولا يلعبون من الألمانية إلا بما يفى لتبادل الأحاديث الضرورية .

ولو تفحصنا مواقف الأغلبية العظمى للطلبة والعاملين المغتربين لوجدنا أنها تذبذب ما بين التفوق والتجميع بنسب متفاوتة دون أن تتوصل إلى الموقف السليم لأن « الموقف السليم ، وهو صعب وشائك وحساس ، لا يمكن التوصل إليه بالتلقائية أو العشوائية أو الهوى أو حتى الاجتهاد الفردي ، فهو مرتبط بعوامل موضوعية قدر ما هو مرتبط بنزعات ذاتية ، وهناك عدد من المبادئ والأصول تحكمه وتحدده وتقيمه على أساس « ايدولوجي » أو على الأقل « مبدئي » بعيداً عن الهوى والعواطف ، وأهم هذه المبادئ والأصول هي ما يتعلق بالاسلام الذي يهمله البعض فيذوب ، ويتعصب له أو يسىء فهمه البعض الآخر فيتفوق ، لأن الاسلام هو عصمة المسلمين جميعاً ومن هنا فإن من المهم إبراز المبادئ والأصول الاسلامية التي تؤثر على الموقف .

أولاً - أن المسلم « النطقي » يرى من عقدة النقص أو نزعة الاستعلاء ..

يرى من عقدة النقص لأنه يعلم حق العلم أن دينه هو متبهي الأديان وأن رسوله هو خاتم الرسل وأن أي مقارنة ما بين كتاب الاسلام « القرآن » ورسول الاسلام « محمد » من ناحية وبقية كتب الأديان الأخرى ورسولها لابد وإن تسفر عن الأفضلية المطلقة لكتاب الاسلام ورسول الاسلام ، وهو يعلم أيضاً أن الاسلام اكتسح العالم القديم اكتساحاً وحرره من إرثار القيصريّة الرومانية والكسروية الفارسية ونظمهما الطبقة الجائرة وأحل محلها « الكتاب والميزان » أي العلم والعدل . وأن الاسلام أنجب

من الخلقاء والقادة ورجال الدولة ما عجز عن تقديمه الرومان القدامى أو الاوروبيون المحدثون ، وأن واقع « دولة المدينة » المنورة يفضل خيال « جمهورية افلاطون » ، وأن المجتمع الاسلامى الأول أوجد عظماء العلماء فى الرياضة والطبيعة والهندسة ومختلف العلوم إلى آخر أمجاد الاسلام التى لا يتسع لها المجال . وهو ثانيا برىء من نوعة الاستعلاء والزهو لانه يعلم أن هذا كله من الله تعالى وأن الفضل فيه إلى الله وحده وأنه تعالى عندما آثر المسلمين بهذه النعم فإنه ربطها بقيام المسلمين بواجبهم فإذا أخلوا به حرموها وظفر بها غيرهم ممن هو أحق بها لأن الأرض لله يورثها عباده الصالحين كما أنه يعلم حق العلم أن الشنشة بالانساب أو الاجناس أمر يستبعده الاسلام تماما ، وأن الشعوب جميعاً سواء دون تفرقة والله تعالى لا ينظر إلى الران الناس أو اجسامهم ولكن إلى التقوى منهم ولهذا فإنه لا يستشعر استعلاء أو علوانية أو زهوا أمام الآخرين .

ثانياً — يرتبط بالصفتين السابقتين وينشأ عنهما أن أصبح للإسلام طبيعة موضوعية وليست ذاتية ..

بحيث تكون « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنا وجدها » ويبحث لايجاد الرسول حرجا من أن يقول بالنسبة لموسى وبنى اسرائيل « نحن أحق به منهم » وأنظر إلى موضوعية ونزاهة القرآن عندما يتحدث عن الخمر والميسر « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » البقرة ٢١٥ وكذلك « ولا يجر منكم شأن قوم على أن لاتعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى » و « لا تبخسوا الناس اشياءهم » والاسلام هو دين الحق وهى الكلمة التى يعبر بها القرآن عن الموضوعية . إن القضية هى أن الاسلام فى حد ذاته يدعو إلى الحق وحيثما يكون الحق يكون الاسلام بل ان الله تعالى سمى نفسه « الحق » ومن هنا كان الحاكم الكافر العادل أفضل واقرب إلى الاسلام من الحاكم المسلم الظالم لان الظلم إنتهاك للحق وأى إنتهاك للحق هو إنتهاك للاسلام وأى قيام بالعدل هو تطبيق للحق أى للاسلام .

ثالثاً — إن الاسلام ليس عبادات فحسب ..

إن العبادة ليست الا مكونا واحدا من مكونات الاسلام . ومن المكونات الأخرى العمل وما يرتبط بالعمل من صلة بالمجتمع أو علاقات بين الناس من وقاء بالالتزامات وصدق فى المعاملات وإحسان فى الاداء ، ومن مكونات الاسلام الشريعة

وكل ما يدخل في عالم السياسة والاقتصاد والقانون وإتاحة الحرية والطمأنينة للناس وتحقيق العدالة الخ .. فالاسلام لا يقتصر على العبادة ، ولا هو يتمحور حولها .

والاسلام ينهى الحرج عن المسلمين ما أمكن ذلك ويعتبر التيسير أصلاً من أصوله وهو يعترف بالضعف البشري ولا يفترض في المؤمنين العصمة ويقنع منهم أن لا يرتكبوا « كجائر الاثم والفواحش » وتوقع استسلامهم للضعف البشري في صفار الذنوب التي أطلق عليها القرآن « اللثم » ووضع طريقة معينة للتعامل معها هي أن الحسنة تحب السيئة « إن الحسنات يذهبن السيئات » و « اتبع السيئة الحسنة تمحها » ورحب بالمدنّب المستغفر .

إن استيعاب هذه الأصول والايمان بها يعين الطالب المغترب والعامل المهاجر على تكييف موقفه في المجتمعات الاوروبية فلن يستشعر الدونية التي تجعله يذوب ويتلاشى في هذا المجتمع ، ولن يحس بالاستعلاء الذي يدفع به إلى الرفض والترفع . الاعتزال ، وسيستشعر أنه فرد من أسرة البشر ومن المجتمع الانساني وأنه بقدر ماتوجد من عوامل للفرقة فهناك أيضاً عوامل للوحدة فنحن وهم من أم واحدة وأب واحد ونحن وهم ندين بأديان سماوية حتى وإن حافت الكنائس ورجال الدين والمصالح المكتسبة على روح المسيحية السمحة ، وحقيقة أنهم ليسوا مسلمين أمر لا يزعه البتة لان هذا هو ما اراده الله وما أوضحه في القرآن مرارا وتكرارا .. وقد وجهنا الله تعالى للتعارف وأمر أن لا يحملنا شأن العدوان على الظلم أو على أن نبخس الناس أشياءهم ووجهنا لان نلتمس الحكمة في مظانها وأن نطلب العلم ولو في الصين فمكاننا وسط هؤلاء الناس الذين تختلف سنتهم وبشرايتهم وعاداتهم وطرائقهم ليس امرا مستغربا ولكنه التطبيق لدعوة القرآن في السير في الآفاق والتعارف بين البشر وطلب الحكمة والعلم من مظانها فلا يجوز أن نسمح للكره أو الهوى أن يتحكم فينا فلا نستشعر ضعفا أو ذلة نخوهم ولا نظلمهم حقهم أو نبخسهم أشياءهم .

داخل هذا الاطار العريض نستطيع أن نعالج بعض التفاصيل منها ..

١ - قضية الزنى : ليس الزنى جزءاً من العقيدة ولكنه يعود بالدرجة الأولى

الى العادات والتقاليد وضرورات المناخ وطبيعة العمل وصناعة الأنسجة والملابس ، فلا يتصور أن نلبس في المناطق الباردة ما نلبسه في المناطق الحارة أو أن تقتصر على ماكان عليه الحال قبل ظهور التطورات الضخمة في صناعة الأنسجة وتفصيلها إلخ . وليس هناك ما يمنع من أن نلبس ونحن في دار الهجرة ما يلبسون خاصة وأن من الكياسة أن لا نثير الشكوك والريب حولنا ، أو أن نوجد جوا يغلب أن يكون عدائيا بحكم الروى الغريب .

وبالنسبة للمرأة المسلمة فالمفروض أن تلتزم بأداب الحشمة الإسلامية وهذا لا يعنى ضرورة التمسك بالحجاب المألوف وإذا أرادت أن تستر شعرها فيمكن أن ترتدى قبعة تحقق المطلوب ويجب أن نتذكر أنه قد كان من أسباب الحجاب «ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين» وهى الحكمة نفسها تُعلمى صرف النظر عن الحجاب التقليدى حتى لا يؤذين ، المهم أن لا يكون هناك تبذل أو تبرج «الجاهلية الأولى» .

٢ - الأكل والشرب : يحرم الإسلام كما هو معروف - لحم الخنزير كما يحرم شرب الخمر وليس هناك صعوبة في اجتنابهما تماما وسيتمكن للطلاب المغترب أن يلم بالأطعمة التى يدخلها لحم أو شحم الخنزير فيتجنبها وليس هناك أقل حرج في هذا فمن الآداب المرعية دائما ترك الحرية لكل واحد في أن يأكل ما يشاء ويختار دون أى افتيات عليه فهذا شأنه الخاص ، كما لن يشق عليه أن يمتنع عن الخمر فهناك كثيرون يمتنعون أو يقلون من الخمر ويتمتعون بالتقدير والاحترام فالطعام والشراب ليس فيهما إعنات كبير لا للمغترب ولا للمجتمع الأوروبى الأمريكى نفسه .

٣ - الحياة الاجتماعية والعلاقة بالمرأة .. إن دخول المرأة في المجتمع الأوروبى بالصورة التى نعرفها قد يوجد حرجا شديدا للطلاب المغترب في حالات عديدة ، فقد يدعى الى حفلات راقصة تعقدتها اتحادات الطلبة وغيرها في مختلف المناسبات ويصعب على الطالب المغترب مقاطعتها لأن ذلك يمكن أن يمس وضعه في الجامعة أو يعطى انطبعا معينا عنه ، والأمر في الحقيقة يتطلب قدرا من الكياسة فيمكن الاعتذار عن أشد هذه الحفلات ابتداء ، ويمكن حضور البعض الآخر والاعتذار عن مراقبة زميلاته بمختلف الحجج والاعتذار ، فإذا لم يكن بد فليعتبرها من اللوم «وقد أعتبر بعض المفسرين أن

من اللطم القبلية والضممة وليكفر عنها بعد ذلك بما يستطيع من حسنات من صدق واخلاص وخدمة لآخوانه ، وله أسوة بالرجل الذي قال للرسول إنه مارس مع إحدى النساء ما هو دون الزنا فسكت عنه الرسول حتى قامت الصلاة وصلّاها الرجل معه فلما أعاد الرجل مسأله قال الرسول ألم تصل معنا ؟ إن الحسنات تذهبن السيئات .

٤ - العلاقات الجنسية : هذه هي أشد القضايا حرجا وازهاقا للطالب المغترب وقد يرى فيها تحديا يكون عليه أن يتتصر بإيمانه عليه فيسمو بغرائزه ويوجهها نحو مختلف المجالات السليمة ، ولكن هذا إن صدق بالنسبة لواحد فإنه يصعب بالنسبة للآخرين لأن الغريزة غلبة والطالب المغترب والعامل المهاجر قد يقضى في دار غربته بضع سنوات في ريعان الشباب ووسط المغريات ولن يكون مفر من إقامة علاقات جنسية ، وقد وضع الإسلام الحل لهذه القضية ولكن المسلمين لا يريدون الاستفادة من الرخصة التي قررّها ومن الحل الذي وضعه الرسول وفرضوا على أنفسهم العنت الذي رفضه الرسول «لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم» وهذا الحل هو ما يطلق عليه الفقهاء «نكاح المتعة» وكلمة المتعة في حد ذاتها توضح لنا كيف تجرد المسلمون الأول من «العقد» التي استبعدت الفاظ المتعة والاستمتاع والتمتع كما لو كانت خروجا على سمات الإسلام وما ينبئ له من حفاظ ، والله تعالى أعلم من المؤمنين بأنفسهم وهو يعلم من الناس ما يخفون وهو أقرب إليهم من جبل الوريد وقد رخص الرسول ﷺ بهذا النوع من الزواج المحدد المدة وجعل أحكامه كاحكام الزواج باستثناء المدة وقيل إن الرسول ﷺ نهى عنه بعد ذلك ولكن المسلمين ظلوا يمارسونه طوال خلافة أبي بكر وجزءا من خلافة عمر حتى نهى عنه عمر وحرّمه . وتحريم عمر يفهم منه بوضوح أنه هو الذي حرّمه وليس الرسول ولو كان نهى عمر مينا على نهى الرسول لما احتاج إلى أن ينهى هو ولأحوال الأمر على نهى الرسول فهو أولى ، ويكاد يكون من المحقق أن عمر رضى الله عنه خشى إساءة استخدام الناس لهذه الرخصة فبادر بسد بابها وكان مصيبا في اجتهاده هذا ، ولكن التحليل والتحريم مردّهما إلى الله تعالى وليس إلى أحد من البشر وتحريم عمر لها لا يعنى استمرار تحريمها إذا جدت الأسباب التي من

أجلها رخص الشارع فيها وهو ما نعتقد أنه ينطبق على الحالة التي نحن بصدددها ، حالة المغتربين .

واستخدام هذه الرخصة سيحل عددا من المشكلات فسييسر وضع الغريزة محلها وبطريقة مشروعة بعيدة عن الزنا الكريه وقد يستطيع أن يهدي الزوجة الى الإسلام وهو « خير من الدنيا وما فيها » ومسألة الأولاد الشائكة التي كانت أصعب ما في القضية يمكن استبعادها لسهولة وسائل تنظيم النسل «وهو بدوره مشروع ما لم يتخلق جنين» ولن يترتب عليه ما يترتب على الزواج العادي الدائم من مشكلات عويصة «خاصة في أوروبا وأمريكا» عند الطلاق في حالة فشله ولن يثير هذا الأسلوب ضيقا لدى الطرف الآخر لأنه هو نفسه لا يريد التورط في زواج دائم قبل التثبت ولأن للزواج المحدد المدة أنصار كثيرون يقدرونه ليس كرخصة ولكن كمرحلة قبل الزواج الدائم وقد وضع ليون بلوم الزعيم الاشتراكي الفرنسي كتابا كبيرا يدعو فيه الى هذه الفكرة ويسمى زواج التجربة ولها أنصار عديدون في الولايات المتحدة مثل القاضي لندسي وغيره .

وبهذه الطريقة يمكن للطالب المغترب أن يحل أزمتة الجنسية طوال مدة دراسته حتى يأووب الى بلده أما بالنسبة للمهاجر معجرة دائمة فان زواج المتعة سيقدم له الطريقة الوحيدة المشروعة للتوصل الى الزوجة الصالحة التي يمكن أن يحبب معها الى الأبد ..

إن هذا القسم الأول من المقال لا يتعرض لجانب هام من هذه القضية يتعلق بالاقليات المسلمة التي تطالب بأن تندمج في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي بحيث يتقبلها هذا المجتمع فيمن يتقبل من اقليات ومن ثم يمكنها أن تطمئن على أوضاعها ومستقبلها ، ولعل هذا هو ما يهتما فيما نحن بصددده ، إذ سيمكنها هذا من المشاركة في وضع سياسات وخطط هذا المجتمع داخلية وخارجية بما يتفق مع الخطوط الإسلامية ومصالح المجتمعات الإسلامية وحركات التحرر الإسلامي .

إن الأخذ بفكرة الاندماج يجب أن يكون عن طريق «استراتيجية» بعيدة المدى لها أهداف قد لا تتم إلا في المستقبل البعيد وبعد عدة أجيال ، ولكنها مالم تتخذ الآن فلن يتحقق بالطبع المطلوب منها والذي لا يمكن غيرها أن تحققه والزمن بعد أمامنا ولا نستطيع أن نفر منه . ونظرية الإسلام كلها تدور حول إثارة الآجلة على العاجلة .

إن الاندماج في المجتمع الأوروبي - الأمريكي قد يتطلب الأخذ بمعظم مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولكنه لا يتطلب - ضرورة - الأخذ بها كلها . وسيكون على الأقليات الإسلامية أن تضع خطة محكمة ومحددة ، وأن تتوفر لها الشجاعة للأخذ بما لا مناص من الأخذ به ، والحكمة التي تحول دون تجاوز هذا القدر . وسيفيدها أن تدرس تجربة الشعب اليهودي في المجتمع الأوروبي - رغم وجود بعض الاختلافات .. إن اليهود استطاعوا ليس فحسب أن يتغلغلوا في المجتمع الأوروبي/ الأمريكي ، بل أيضا أن يسيطروا على فكر هذا المجتمع .

وقد يكون من مفاتيح هذه الخطة الزواج من أوروبيات وأمريكيات بعد إسلامهن لأنهم هن اللاتي سيقمن الأزواج المسلمين إلى المجتمع الأوروبي .. ومع أن المقاييس الشرقية والإسلامية عن المرأة تختلف عن مقاييسها في المجتمع الأوروبي فمن الخطأ أن نأخذ الفكرة عنها من السينما أو مما تقدمه مجلات الفضائح والابتذال والجنس .. إن المجتمع الأوروبي - الأمريكي يقوم على الحرية - وسمح ذلك بظهور القلة التي تؤثر الشهوات أو تكسب منها ، ولكن المرأة الأوروبية مع هذا يمكن أن تكون زوجة ممتازة إذا أحب زوجها وإذا أسلمت «وهذا شرط رئيسي لنجاح الخطة كلها» وهذه هي مسئولية الزوج المسلم ويمكنه أن يظفر بعقلها وقلبها إذا تمسك بالخلق الإسلامي من صدق ووفاء ومرؤة وشجاعة وأمانة .. الخ .

وقد يتطلب الأمر الأخذ بأسماء أوروبية والأسماء لانهم ونحن نجد من المحدثين من يحمل اسم «اسرائيل» و «داود» و «يعقوب» و «اسحق» و «موسى» و «ابن جريج» ويحمل المسلمون أسماء الأنبياء جميعا دون تفرقة .

كما سيتطلب الأمر الأخذ بالزى الأوروبي ومجاراة بعض تقاليد الحياة الاجتماعية بالصورة التي أشرنا إليها من قبل .

وفي الوقت نفسه فمن الضروري للأقلية الإسلامية في أوروبا وهي بالدرجة الأولى مسئولية الرجل - الزوج والأب ..

١ - البعد عن المحرمات صراحة كشرب والخمر واكل لحم الخنزير والزنا .
٢ - ممارسة الصلاة وصيام رمضان مع ملاحظة أن الزوجة والأبناء لن يستطيعوا - دائما - المواظبة التي يفترضها المسلم ولكن هذا التفريط سيستدرك ما ظل الأب - الزوج مواظبا وموجها الزوجة والأبناء الى الصلاة والصيام وسبيلهم الله الذي هدى «ثقيف» من قبل مع تقدمهم في العمر واتزانهم في الحكم والأمور بخواتيمها فلا يخضع نفسه ولا يحدث معهم قطيعة فيتعجل السيئة قبل الحسنة .

٣ - الحفاظ على اللغة العربية بأن يتحدث بها الأب في المنزل مع الأبناء ويعلمهم اياها من الصغر ولا يهمل هذا الواجب فإنه سيكون الرباط بينهم وبين عالم الإسلام بحيث يمكن للأبناء أن يتحدثوا ويكتبوا العربية وهذا فيما شاهدت هو أصعب الأمور وما يقصر فيه معظم الآباء مع أنه أهمها ، ولو أن الأب تحمل بعض التعب في سبيل ذلك لكتب له النجاح لأن للأطفال ذاكرة لاقطة وسيتعلمون العربية مادام أبوهم يحدثهم بها كما سيتمكنه أن يعلمهم القراءة والكتابة وشرط نجاح ذلك أن يتم في سنوات الطفولة الأولى وأن يواصله الأب دائما كما أن من الخير زيارة الموطن الأصلي كل سنة مرة وقضاء فترة في المجتمع العربي الإسلامي . وأن يكون بالمنزل مكتبة عربية يشغل فيها «المصحف» مكان الصدارة وكما شاهدنا فإن الجيل الثاني - أي أبناء المغتربين ، خاصة المتزوجين من أوروبيات يكاد ينبت عن المجتمع الإسلامي لأن الأب أهمل تعليم أبناءه اللغة العربية فقطع الصلة التي تربط الأبناء بالعالم الإسلامي وأهمل غرس فكرة الإلتناء الإسلامي في نفوس ابنائه . ومقارنة إهمال الآباء المسلمين بحرص الآباء اليهود يوضح جريرة الأولين .. فقد حرص اليهود على تعليم أبنائهم «اليديش» وهي اللغة العبرية الأوروبية وفرضوا على المجتمع الأوروبي ما يتطابق مع دينهم بعد أن تمكنوا من التغلغل فيه مع أنهم كانوا عرضة للاضطهاد وكان اسمهم ملوثا وذلك لأنهم سلكوا استراتيجية طويلة المدى تعنى بالجور أكثر مما تعنى بالمظهر . وعندما قابلت سفيرة إسرائيل في موسكو «جولدا مائير» زوجة مولوتوف عبرت هذه عن سعادتها البالغة بمقابلة سفيرة

اسرائيل لأنها «بنت الشعب اليهودي» وأنها تتحدث «اليديشية» التي خاطبت بها جولدا مائير بعد ذلك .

٤ - يجب أن توجد تجمعات وتكتلات وتنظيمات تضم شمل الجالية الإسلامية وتعنى بمشاكلها وتساعدتها للتغلب عليها وتطمئن على مُضَى الاستراتيجية الموضوعية .

وهناك ملاحظة اخيرة وهامة تلك هي أن هذه التجربة لن تنجح ما لم يستقر في نفوس المقدمين عليها نوع من التقدير والتقبل للمجتمع الأوروبي الأمريكي يقوم على النزاهة في الحكم وسعة الأفق والاعتراف بالחסنات الى جانب السيئات وأنه وإن كان الساسة وأصحاب المصالح في هذا المجتمع من أسوأ الناس وأنهم ارتكبوا الموبقات في سياستهم الخارجية وسلوكوا سبل النهب والسلب الخ . فإن معظم شعوبهم بعيد عن هذه الجريمة وبريء منها وظهر الكثيرون الذين يعارضون هذه السياسات كما أسهم علماءها ومفكروها في التقدم بمستويات الحياة الى الدرجة التي لم تبلغها البشرية من قبل . ويجب على الجالية الإسلامية أن تؤمن فعلاً أن هذه البلاد قد أصبحت وطنهم الأول وأن وطنهم الأصلي قد أصبح هو الوطن الثاني وأن عليهم أن يخدموا هذا الوطن الأول بصدق وإخلاص كمواطنين صالحين «بافتراض اكتسابهم الجنسية التي يمكن اكتسابها في العادة بعد قضاء فترة معينة أو الزواج من أوروبية» وأن يقدموا لهذا الوطن اضافاتهم ، ولن يمنع هذا من أن يقفوا ضد أى سياسة تمس أوطانهم الأصلية أو المجتمعات الإسلامية لأن هذا يدخل في باب الحرية السياسية وعليهم أن يستبعدوا تماماً تلك الفكرة التي تخطر للسذج من المسلمين من أنهم سيكونون في الجنة وسيكون الأوروبيون «الكفرة» في النار لأن الذي يحكم في هذه القضية هو الله تعالى ورحمته وسعت كل شيء فلا داعى للأفتيات عليها «قل لو انهم غلبوا لكان خزانة رحمة ربي إذا لأمسكم بحشية الألفاق» فضلاً عن أن الأوروبيين لم تبلغهم الدعوة الإسلامية كاملة ، أو على وجه التحديد ومن المحتمل أن لا يحاسبهم الله تعالى لذلك وأن يحاسبنا على إهمالنا ، وقد لا يدخلون الجنة ولكننا قد ندخل النار لإهمالنا . كما أن الأوروبيين قد يكونون أقرب الى بعض جوانب الإسلام من المسلمين أنفسهم ، والأصل في المسيحية الإيمان بالله واحد أما حكاية الاقاليم الثلاثة فشئ لا يفهمه إلا رجال الاكليروس ، فلا ينقص الأوروبيون

إلا الإيمان برسالة محمد ﷺ ويغلب أن لا يرفضوها لو بلغوا بها بلاغا حسنا فليست الشقة بينهم وبين « لا اله الا الله محمد رسول الله » بعيدة كما قد يبدو ..

إذا لوحظت الخطوة التي اجهلناها لمدة مائة سنة مثلا فيحق لنا أن نتوقع ظهور جاليات إسلامية قوية في المجتمعات الأوروبية وأن يكون بين الوزراء والمسؤولين شخصيات إسلامية بارزة ولنا أن نتوقع انتشاراً للإسلام في أوروبا وتغيرا ملموسا في السياسات الأوروبية تجاه الإسلام والدولة الإسلامية. فإذا راجعنا «حسبة» المكسب والخسارة فلا مراء في أنها صفقة رابحة فقد ضحينا ببعض المظاهر الثانوية وكسبنا للإسلام جمهورا ولسياسته تأييدا .

نقول هذا ونحن نعلم أن نسبة ضئيلة هي التي ستؤمن به أما الأغلبية العظمى فستقول ﴿بل تبع ما ألفينا عليه آباءنا...﴾ .. البقرة ١٧٠ .

الإسلام

خط الدفاع الأخير ضد مواجهة اللذابة

نشرت بمجلة «جور» التي تصدر في الولايات المتحدة ، ربيع ١٩٩٤ ، وجاء بمقدمتها :

« يعظم الأستاذ جمال ألينا إصدار كتاب بهذا العنوان يعالج فيه موضوعه بقدر من الأسهاب ، وقد أثر «جور» بهذا المقال الذي يتضمن بعض أفكاره الرئيسية ... » .

نحم القضاء ..

ووجدنا أنفسنا في مواجهة خطر ما حق يصغر أمامه ما تعرضنا له في القرن التاسع عشر عندما دمرت مدافع الاساطيل الأوروبية حصون الموانئ الإسلامية ، ودخلت جيوشها أراضيها ، واحتلت عواصمنا في الشمال الأفريقي ، ومصر وسوريا والعراق وإيران وبقية الدول الإسلامية ...

الخطر الذي يحيق بنا اليوم ليس خطر الاحتلال العسكري البغيض ، الذي كان على فجأته ملموسا يمكن مجابهته وجها لوجه .. فإذا حصدت البنادق صفاً حلت

محله صفوف .. لم يعد القتال على الأرض ، أصبح في السماء وأصبح قوى غير منظورة
يمكن أن تدمر كل شيء .. صواريخ تنطلق من حاملات الطائرات في عرض المحيط ،
أو طائرات دون طيار ... ألخ .

وهذا التقدم الرهيب في فنون القتال ليس الا ضلعاً واحداً من أضلاع «مربع
الاذابة» ، وتعود كلها إلى التطور السياسى والتكنولوجى .. وأضلاع هذا المربع هى :

(١) قوة عسكرية فاهرة لا يمكن لاي دولة اسلامية ، أو حتى لمجموع الدول
الإسلامية مقاربتها ، دع عنك مغالبتها ، وساعد على هذا أن التقنية العسكرية هى أعلى
صور التقنية وأبسطها تكلفة .. فطائرة « الشبح » تتكلف بضعة مئات من ملايين
الدولارات ، وقد يكون من المقارقات أن تستعيد شركات السلاح بعض مواردها من
بيع الأسلحة المتخلفة إلى العرب والمسلمين ، ولا قيمة لها بالطبع أمام الأسلحة الأمريكية
المتطورة ! .

(٢) تقدم تكنولوجيا في وسائل الإنتاج لا يمكن منافسته واحتكار أسرارها
والحيلولة دون تسريبها ، وهو يقوم على استخدام العلوم من كيمياء أو طبيعة أو
كهربية ... ألخ ، وبهذا التقدم توصل الغرب إلى وسائل صنع وإداء ، بل وإلى « تخليق »
المواد التى تعوزها ، أو التى لا توجد في الأرض بالتكوين المطلوب .. والتوصل إلى
مصادر للطاقة ، وإن كانت تفضل أن تستنزف طاقة المسلمين - البترول - أولاً ...

وتوضع الخطط الاقتصادية والمالية لمساندة التقدم التكنولوجى ، كاتفاقية الجات ،
والشروط التى يضعها صندوق النقد الدولى على السياسات الاقتصادية للدول التى
تريد مساندته ، بحيث تجرد الدول الإسلامية نفسها مقيدة تكنولوجيا واقتصاديا وماليا .

(٣) فكر حضارى - دعائى/ سيكولوجى يعرض عبر قنوات التليفزيون
والأقمار الصناعية .. ألخ ، وقد قدر أحد الكتاب أنه ستوجد قريباً ما يقرب من
خمسمائة ألف قناة تليفزيونية تبث كلها أنباء أو أحاديث أو ثقافات أو صوراً من القنون
لأنعرف حدا تقف عنده .. كلها بأعلى درجة من التقنية اللامعة ، الجاذبة ، الآسرة ،
وكلها تعمل على تمييز شخصية المواطن المسلم بحيث تذيب مقوماته شيئاً فشيئاً .

وتتشر أجهزة البث التلفزيوني هذه الصور الاستهلاكية ، الاستمتاعية ،
للحضارة الأوروبية دون أن تشير أقل إشارة إلى ماتطلبه ذلك من عمل دائم ، أو
علم نافذ .

(٤) خط سياسى رئيسى يقوم على الشك فى الدول الإسلامية ، والنظرة
إليها نظرة « دونية » والتفرقة بينها وتفتيت وحدتها إلى دويلات على رأس كل منها أمير
له حرس ، وعلم ، وسلام ! واضرام النعرات العنصرية ، ولامانع من التحرش بها أو
إشعال نار الحرب فيما بينها بين آونه وأخرى ، كما حدث ما بين العراق وايران ،
والعراق والكويت ، ومساندة متمردي جنوب السودان ! .

بتلاق هذه الاضلاع الاربعة ، بعضهما ببعض ، يتكون مربع الاذابة الذى يكون
أشبه بحوض كبير يتدفق فيه حامض كبريتيكي يذيب القيم وكذلك المقومات ، بل حتى
بعض الخصائص البدئية للسكان بحيث يكونون - فى النهاية - عجينة يمكن للغرب أن
يشكلها كما يشاء ويتحكم فيها كما يريد .

وليس هذا هو كل شيء ...

إن هذا المربع يعمل تحت مظلة الشرعية الدولية المزعومة ، وهى التى ظهرت
نتيجة لتفكك المنظومة الاشتراكية التى كانت توجد نوعا من « الثنائية القطبية » فى
السيادة الدولية ، فأفسح تحللها المجال للقوة الرأسمالية التى تمثلها الولايات المتحدة ،
وتملكها نوع من الغرور والزهو قد مثله ماذكره الكاتب اليابانى/ الأمريكى عن « نهاية
التاريخ » ، أو ما أشار اليه القرآن الكريم « يحسب أن ماله أخلده » ... وتحت مظلة
مزعومة ، مصنوعة بدأت الولايات المتحدة بممارسات هى فى حقيقتها نوع من العريضة
أو القرصنة الدولية ، تعيد إلى الذهن سياسات روما فى العهد القديم ، وسلطت أسلحة
جديدة لم يكن للعالم بها عهد كالمقاطعة التى تفرضها على دولة ، فتشل الطيران إليها ،

أو أمدادها حتى بالغذاء ! .. وطبق ذلك كله بوحشية على العراق ، وليبيا ، بحيث لم تستطع مصر - وهي اقرب الدول اليها ، وذات المصلحة المباشرة - أن تفعل لها شيئا ، وانصاعت لأوامر المقاطعة .. وفي الوقت نفسه ، فأنتها تسكت على وحشية الصرب وتراوغ ، ووضعت قائمة « للدول المساندة للارهاب » تضع فيها من تشاء ! .

وتتخذ الولايات المتحدة من اسرائيل وكيلا عاما مفوضا في التعامل مع الدول العربية ، بعد أن غرستها في قلب المنطقة ، ومكتتها من الاستحواز على أحد أقداسها ، وزودتها بالسلاح ، وساندها في كل ماتفعل ، حتى أصبح هذا القزم الضئيل ماردا .. وهكذا تفعل اسرائيل فانها تمد يدها لتشد إحدى جاراتها لكي تتفق معها وتدعن لها ! .

وبتأثير هذه القوة الضاغطة ، وتشردم الدول العربية والإسلامية ، واستخذائها ، استطاعت اسرائيل أن تقفز بعدد سكانها من مليون إلى قرابة خمسة ملايين ، وأن تقضى على مقاومة الدول العربية واحدة تلو الأخرى ، وأن تدخل في معاهدات معها ، وهي اليوم تنهياً لخطوة جديدة هي أن تجعل من منطقة الشرق الاوسط - كما يقولون - سوقا للمنتجات الأوروبية التي تنموها وتشرف على سياستها اسرائيل ، بحيث يُستلحق اقتصاد المنطقة ، ونتاجها في الزراعة والصناعة والتجارة باقتصاد اسرائيل ، والرأسمالية الصناعية !

وهكذا نجد مربع الاذابة يخترق الدول العربية الإسلامية تدفعه ، وتحمية اسرائيل من ناحية ، والولايات المتحدة من ناحية أخرى !

أين المفر ؟ !!

العدو في البر ، والبحر ، والجو !

العدو يطبق على الاقتصاد ، والصناعة ، وما هو أهم تشكيل العقل العربي وإذابه الشخصية الإسلامية ومقوماتها الحضارية !
تبدو الصورة قائمة مظلمة ...

ولكن من أشد ساعات ظلمة الليل ، ينبثق الفجر ...

إن السياسيين ورجال الاقتصاد وكثيرا من المفكرين في الدول الإسلامية لا يرون حلا أو فرارا الا الاستسلام ، وعزاؤهم هو أنهم سيستحوذون على الجزء الاعظم من فئات المائدة ، وهو وإن كان خاتا ، الا أنه يكفهم وزيادة ، وهم يعد رجال « الممكن » ، وما من الممكن مناص ، ورجال الأرقام ، والأرقام لا تخطئ !

والأوروبيون والأمريكيون لا تخالجهم الشكوك في استسلام المنطقة بعد أن أطبقت عليها الشبكة واحتواها « مربع الازابه » لانهم يفهمون الانسان مابين « الانسان الاقتصادي » الذي يعمل بوازع الربح وتحركة آليات السوق .. والانسان « الفرويدى » الذى تحكمه الغريزة الجنسية ، وتدفع به بعد عمل اليوم الشاق ولتعرض روتينه هذا العمل إلى اثارة عاطفية جنسية يجد فى نهايتها الاسترخاء من توترات اليوم !

إن انسانا مثل هذا لابد وأن يستسلم بكلية إلى وازع الربح من ناحية وغريزة الجنس من ناحية أخرى ، ولا يدور فى ذهنه فكرة الثورة عليهما . والأوروبيون يتصورون بقية الناس كالأوروبيين .. ما أن يوضعوا بين وازع الربح وغريزة الجنس حتى يستسلموا .

ولكن الأوروبيين - بما فيهم من سياسيين ورجال اقتصاد - ينسون عاملا هاما يوجد لدى ناس المنطقة ولا يوجد لدى أوروبا ، هو « الإسلام » .

ولما أهمله الأوروبيون المعاصرون لأن أوروبا « وثنية » لم يظهر فيها الأنبياء من أولى العزم ليعرفوها على الله ، وقام بذلك الفلاسفة والشعراء والادباء الذين صنعوا « وجدان » أوروبا ودينها ، أما المسيحية التى تدعيها ، فليست الا قناعا ، أو ثوبا احتفاليا تلبسه نصف ساعة كل أسبوع... وقد كان السياسيون الأوروبيون فى القرن التاسع عشر أكثر ذكاء ونفاذا فى فهم الأمور ، فقدنروا للدين فى الشرق قدره ، لكن

السياسيين الاوروبيين اليوم استغرقهم انجازاتهم في التقنية والاتصالات وعلوم الفضاء والذرة والكمبيوتر .. الخ فتصوروا أنه ما من قوة يمكن أن تقف في مواجهتها ...

الاسلام اليوم هو خط الدفاع الأخير في مواجهة الاذابة ...

لماذا؟..

لأن أهم ما يجب أن نحرص عليه الآن هو أن نرفض الاذابة ، ونتحصن من تأثير عوامل الجذب ، وأن نحفظ بشخصيتنا سليمة ، وتفكيرنا موضوعيا ، بحيث يمكن أن نفكر في الطريق التي يمكن أن ندفع بها هذه الجائحة ، ورأسنا فوق الأمواج المتدفقة .

هذا هو أول وأهم ما يجب أن نحرص عليه ...

وهذا هو مالا نجاهده الآن الا في الاسلام ، لأن الاسلام هو أبرز مقوم لشخصيتنا المستقلة وارادتنا الحرة ، وهو الوحيد الباقي بعد أن فقدنا حريتنا السياسية واستقلالنا الاقتصادي .

إذا ما الذي يمكن أن يجعل لنا شخصية مستقلة محصنة من الاذابة ؟..

قد يقال اللغة .. ولكن الاذابة تُقدم باللغة العربية أيضا عبر الاذاعات الاوروبية والامريكية .. ثم أن الصورة والنغم - وهما من أعظم معدات الاذابة ومؤثراتها - يتجاوزا اللغة ، لانهما تخاطبان العين والاذن مباشرة ودون محاورة .

واللغة العربية ، بعد ، هي بنت الاسلام ، ولولا القرآن لتمزقت اللغة العربية اشلاء ، ولأصبحت لهجات لاتفهم أو لغات مستقلة على مدار ألف وخمسمائة عام منذ ظهور الاسلام !

هل تكنى « القومية العربية » ، أو العكالات الإقليمية (الاتحاد المغاربي/ مجلس التعاون الخليجي/ جامعة الدول العربية ... الخ لقد إتضح تماما أن هذه كلها لاتقوم

على أساس ، وتجارب الوحدة الفاشلة ، وتعثر جامعة الدول العربية حير شاهد على ذلك !

العادات ، التقاليد .. كلها مرنة يمكن أن تتطور وتساير ما لم ترتبط بجذر قوي وأعرق منها ، وليس الا الدين ...

في مواجهة هذا ، نجد أن الاسلام يقدم الحماية المطلوبة كأفضل ما يمكن ، تقدم ، بحيث لا يكون سدا أصم ، قد يغلبه الذكاء ، ولكن سدا واعيا ذكيا يمكن أن يمتص العناصر المقلية ، المفيدة في الحضارة الاوروبية ، وينفى خبيثها في الوقت نفسه .

إن الاسلام - وهذه ميزته - لا يصد عادية الاذابه فحسب ، ولكنه يفرس قوة في نفس الانسان ، ويفتح له أبواب وسبل الحلول .

ذلك لان الاسلام يعرض الله تعالى وما يشق منه من قدرة على الخلق ، وكان في الابداع ، وقيم ومثل عليا من حب أو عدل أو خير أو سلام ، وما يرسبه من سس يسر عليها الكون والمجتمع ، وما يرمز اليه من اطلاق وخلود وموضوعية يحس اليها الانسان الضعيف الممزق ، كما يمين الابن لأمه التي من رحمها ولدته ، وعلى صدرها أرضعته ، وفي أحضانها حمته .

يجد الرسول الذي يجسد المثل الأعلى ، قائدا ومشروعا وحاكما وأبا وزوجا ورسولا إلى العالمين ... يجد تلك الكوكبة من الصحابة التي ظفرت من التقدير بما لم تظفر به كوكبة أخرى في التاريخ ، أصحاب كالنجوم ، بأيهم اقتديهم اهتديهم ، .. إنهم الذين خلفهم الاسلام خلقا جديدا ، وأوجد فيهم أبا بكر وعمر وعلى وأبا عبيدة وحالد بن الوليد ...

يجد منظومة من المبادئ والأصول وضعها الاسلام وتجري معادلة دقيقة ، وتسوية محكمة بين الفرد والمجتمع والطبيعة ، تحقق السكينة في الفرد ، والسلام في المجتمع ، والتواؤم مع الطبيعة ، وتصنع للحياة غاية .

أين يجد انسان هذه المنطقة ، أو انسان العالم الثالث المستهدف للاذابة عوضا عنه أو بديلا منه ؟ وأين يجد الشمول والاحكام والعراقة التي للاسلام ؟ .

ان الاسلام وحده هو القوة الباقية التي يمكن أن تعصم انسان المنطقة من اذابة العالم «التكتروفي» .

كيف ... ؟

أولا - هو يحول دون أن يصاب المسلم بصدمة الانبهار ، تلك الصدمة التي تجعله « كالموقوذة » لا يكاد يقف على قدميه .. إن المؤمن بالله حقاً لا يدهشه ولا يبهره أى شيء آخر ، لأنه من خلق الله ، ومن ثم فإن المسلم يحتفظ بذهنه صافيا ، وبتفكيره سليما ، يعمل عقله الايماني ، وليس ثمة تعارض ما بين العقلانية والايمان ، بل إن الايمان هو أول ما تسلم به العقلانية الموضوعية الحكيمة .

إنه بفضل ايمانه يستطيع أن يحدد موقفه ويتخذ قراره أمام هذا السيل العرم الحديث .

قد يكون هو أولا - مقاطعة الكثرة الكاثرة مما تدفع به الاسواق والابواق . وهو إجراء وإن كان سلبيا ، الا أن المؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يقفه ، لأن ايمانه يعصمه من الاغراء وعوامل الجذب والانبهار .

ولانجد حرجا في أن نستشهد بواقعة من التاريخ البريطاني ، لأن طبيعة الايمان واحدة .. وهذه الواقعة تصور لنا كيف يحقق الايمان غايته ، تلك هي قصة « ليدى جوديفا » التي عاشت في القرن الحادى عشر وطلبت من الحاكم أن يرفع مظالمه عن سكان اقليمها في كوفنترى Coventry فوضع لذلك شرطا هو أن تسير عارية في شوارعها ، وقبلت ليدى جوديفا .. وفي اليوم الموعد أغلق تجار البلدة جميعا محالهم ، وأغلق أهلها شبايك بيوتهم بحيث أصبحت الشوارع خالية تماما كما لو كانت الحمام الخاص لليدى جوديفا .. وفشلت مؤامرة الحاكم في اذلالها ! .

وقد نذكر أيضا تجارب غاندى فى المقاومة والعصيان المدنى التى أجبرت بريطانيا على التعاون معه والاعتراف به .

وأثر الاسلام أعظم من هذه جميعا ، لأن الاسلام منهج حياة ، وهو يعترف بكل ما يؤثر على الحياة الدنيا ويفرزها ما بين صالح وطالح ، حسن وسىء ، خير وشر .. وهو يعترف أيضا بكل ما هو صالح وحسن وخير ويعمل له .. ومن ثم فليس هو بالدين السلبى الذى يتجاهل الحياة ، ولكنه الدين الايجابى الذى يتعامل مع الحياة على هدى وبصيرة ، ويستطيع أن يأخذ من الحضارة الحديثة ما يتفق معه ، وهذه الحضارة ليست من ابداع أوروبا بالكامل ، فقد أسهم فيها المصريون القدماء ، كما أسهم فيها العلماء المسلمون ، فهى حضارة البشرية ، ومع أن أوروبا طوعتها وختمتها بخاتمها ، فان عملية الانتقاء ، والتمييز والتمحيص لن تكون عسيرة .

بل يمكن أن نقول إن الاسلام يدفع المؤمنين به لمحاولة اختراق المجتمع الاوروبى والتأثير عليه .. لأن ما يعرضه من قيم هى ما يمكن أن ينقل هذا المجتمع من بعض أزماته .

وبالنسبة لاسرائيل فهل يعقل أن توجد جزيرة صغيرة من خمسة ملايين وسط بحر هادر يزيد عن المائة مليون ؟ .

إن كل حقائق الجيوبوليتك وتجارب التاريخ تؤكد استحالة استمرار الروس الذين استقدمتهم اسرائيل من أقصى روسيا الباردة ، لتضعهم فى فلسطين الحارة .. ولو وضعت استراتيجية عربية اسلامية طويلة الأمد لاعادة هؤلاء الروس إلى بلادهم ، لنجحت !

كان جمال الدين الافغانى يقول « الاستعمار عارية » بمعنى أنه مهما وجد ، فلا بد أن ينحسر !

وقد ظلت بعض الولايات الصليبية فى « الشام » لمدة قرنين ، وحكمت فرنسا الجزائر لقرن ونصف ، وساد البيض جنوب افريقيا طوال ثلاثة قرون .. ولكن فى النهاية لا يصح الا الصحيح ، ﴿ فلأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ ١٧ الرعد .

نحو إطار لا مركزى ... لحماية وحدة الأمة الإسلامية(*)

(١) أصبح من الواضح لكل ذى عينين ، أن الولايات المتحدة الأمريكية بسلسلة من المناورات ، وكتيجة للتطورات السياسية الأخيرة التى أدت إلى تفكك الاتحاد السوفيتى الذى كان يتقاسم معها القوة والنقوذ وينافسها فى السياسة الخارجية ، قد انفردت اليوم بالقوة وتمكنت اخيرا من أن تصبح الدولة الوحيدة التى تهيمن - ولو لمدة ما - على شعون العالم !!

(٢) ولما كان من المعروف والمسلم به أن الولايات المتحدة الأمريكية تخضع لتأثير « اللوى اليهودى » المسيطر على الاعلام والسياسة الأمريكية .

ولما كان بين الولايات المتحدة وإسرائيل « حلف استراتيجى » وأن الولايات المتحدة تعلن فى كل مناسبة أن تأييد إسرائيل هو خط من خطوط السياسة الأمريكية المقررة .

ولما كانت الولايات المتحدة من ناحية ثانية تهدف للسيطرة على منابع البترول فى المنطقة العربية ، وترى هذا ضمانا لصناعاتها واقتصادها وأمنها ...

(*) نشرت بمجلة «منبر الشرق» القاهرية عدد رمضان ١٤١٣ - مارس ١٩٩٣ ومن الحق أن نقول إن صاحب فكرة (إطار لامركزى) هو الأستاذ ابراهيم الوزير المفكر اليمسى البارز ورئيس اتحاد الشورىين التعاونيين باليمن .

لما كان هذا كله من الأمور المقررة في السياسة الأمريكية ... فان انفرادها بتقرير السياسة الخارجية للعالم لا بد وأن يسير في اتجاه احتواء الدول العربية وتجريدها من كل عوامل القوة التي تمكن هذه الدول من أن تقف في وجه السياسة الأمريكية المدعمة لإسرائيل والطامعة في البترول ، ولا بد أن نتوقع أن يصبح هذا الاتجاه هو الاتجاه المقرر الذي «تمليه المصالح» على الولايات المتحدة الأمريكية ، ولا يمكن أن تقف أمامه التوسلات أو العواطف أو القيم أو المثل ... إلخ .

(٣) لم يطل بنا العهد حتى بدأ تطبيق هذه السياسة في حرب العراق ، بعد استدراجها لغزو الكويت . وقد لا نجد مثيلاً في التاريخ الحديث يشبه «جبروت» الولايات المتحدة وصلفها وتصميمها على تدمير العراق والقضاء على كل المرافق والخدمات والصناعات تدميراً يجعل العراق يعيش ما قبل الثورة الصناعية - كما قالوا - مما يوضح أن القضية لم تكن أبداً (تحرير الكويت) وأن دعوى تحرير الكويت كانت وسيلة لاستلحاق الكويت (ومعها منطقة الخليج) وتدمير العراق .

إن الولايات المتحدة اليوم تمارس ما قامت به روما نحو قرطاجنة والشعار الذي رفعت « لا بد من تدمير قرطاجنة » ولم يهدأ بالها الا عندما أصبحت قرطاجنة خلاء بهم فيه اليوم والغريان !!

(٤) قبل أن تنتهي آثار حرب العراق ، بعثت الولايات المتحدة من ملفاتها القديمة قضية طائرتين امهروا ليبيا بتدميرهما لإشراك بريطانيا وفرنسا في المؤامرة .. وعجزت كل العروض التي قدمتها ليبيا لتسوية الموضوع .. وبدأت العقوبات !!

(٥) ووسط المؤامرات التي تشن على ليبيا ، بدأت الولايات المتحدة تعد العدة للعدوان على سوريا ، وفيما بين ذلك ترسم السياسات التي توهن الصلحوة الاسلامية في كل مكان ، في العدوان على البوسنة ، ومحاصرة السودان ، وتأليب القوى المضادة ، ووضع العراقيل أمام المجاهدين في أفغانستان .. وقد أصبحت السياسة الدولية اليوم ، كما كانت في القرن التاسع عشر ، عندما كانت المؤتمرات الأوروبية تعقد لاقتسام

آسيا وأفريقيا ، أو لتعديل القسّمات السابقة وما يحدث في البوسنة مما يشيب له الولدان دليل آخر على ذلك .

(٦) من المسلم به أن الولايات المتحدة ما كان يمكن أن تقوم بهذه العريفة الدولية ، لولا التطورات السياسية التي حرمت دول العالم الثالث من مناصرة الاتحاد السوفيتي الذي كان يجد مصلحته في معارضة السياسة الأمريكية .. ولكننا مع التسليم بهذا ، فإننا نقطع بأن الولايات المتحدة ما كانت تجد الجزأة والصلف ، لولا أن في النظم السياسية الداخلية للدول العربية فسادا ، جعل القيادات في واد ، والجماهير والقواعد في واد آخر .. وبهذا حرم القيادات من المناصرة الحقيقية للجماهير ، كما سمح للقيادات بأن ترتكب أخطاء فاحشة وقرارات مقهورة أملتها العواطف أو المطامع والسياسات الفردية القصيرة النظر !!

نعم .. لا بد أن نعترف - للأسف الشديد - أن حكّام معظم الدول العربية يتخذون القرارات المصيرية دون شوري حقيقية ، ودون دراسة متأنية ، ودون مناقشة لكافة أبعاد هذا القرار .. وأن هؤلاء الحكّام أحاطوا أنفسهم بعصابات وبطانات من المثلّقين أو أصحاب المصالح لا يألونهم خبالاً وعندما ظهرت العواقب السيئة لهذه القرارات الفردية باءت بأوزارها الشعوب والجماهير التي لم يؤخذ رأيها فيها ، ولا كانت توافق عليها لو أخذ رأيها .

ولو كان البناء الداخلي للنظم العربية سليما والصفوف متماسكة ، والعلاقات ما بين الحكّام والشعوب تتسم بالشورى والديمقراطية لما أستطاعت أمريكا أن تصل إلى طائل ، وقد هزمت من قبل في فيتنام ، كما هزم الاتحاد السوفيتي أمام المجاهدين في افغانستان .

(٧) أمام هذا الواقع المحزن ، وما يؤذن به المستقبل من وهلات تهدد البقية من الكيان العربي والاسلامي وجدنا أن علينا أن نبدع وسيلة نقف بها هذا الطوفان حتى يؤذن الله بتغير الأحوال ويظهر على الساحة الدولية من يتطاحن الولايات المتحدة الأمريكية ويشغلها !!

والحل الوحيد أماننا هو أن نوجد اطارا من الهيئات والدعوات والمفكرين ..
إنخ الذين يكون الاسلام محور دعوتهم ، يعمل بالوسائل الجماهيرية ويستخدم
الدبلوماسية الشعبية ويحول - أو على الأقل يؤثر - هذا العدوان الذى يهدد بالتهام
الدول الاسلامية .

.. وليس أماننا خيار ، لأن مناشدة النظم الحاكمة أصبحت لا تجدى ، رغم ما تراه
بأعينها من جلاء سياستها ، والمشكلات التى حاققت ببعض الدول العربية نتيجة لاستبداد
حكائها ، فهذا باب مغلق للأسف الشديد ، وليس هناك فائدة من مناشدة الضمير
الدولى ، واللواذ بالشرعية الدولية المزعومة ، وحتى هذا فلكى ينجح ، لا بد من هيئات
قوية منظمة تقوم به وتمارس ضغوطا فى سيله .

ونعتقد أن القضية الحقيقية أماننا ليست هى القرار نفسه ، ولكنها التوصل إلى
عوامل نجاح هذا القرار ، خاصة وقد سبقته تجارب فاشلة بحيث ظن أن الشرة الوحيدة
التي تتمخض عنها المؤتمرات هى اتخاذ قرارات وتوصيات على الورق ، ولاتساوى الخبر
الذى كسبت به .

هذه هى القضية الحقيقية ، ولكن تجاربنا العديدة الماضية فى أسباب إخفاق
المؤتمرات والتكتلات السابقة ، تبيننا نعمل على تجنبها فى محاولتنا الجديدة ، بحيث
لاتتكس ولا تلحق بأخواتها السابقة .. وسنعرض فيما يلى الضمانات التى تكفل نجاح
المشروع :

(٨) من أهم الضمانات ، أن نتقبل الهيئات والدعوات الاسلامية بعضها
بعضاً ، على علامها ، كما هى ، فلا نرفض واحدة لأنها لا تتفق معنا فى بعض ما تذهب
اليه ، ولانحكم عليها بالخطأ لذلك .. إن المهم هو شئ واحد ، هو أن تؤمن بالشعار
الجامع (لا اله الا الله محمد رسول الله) فما دامت تؤمن به فقد دخلت حظيرة
الإسلام واكتسبت عصمته أما ما وراء ذلك من تفاصيل وخلافات فلا تضر .. فضلا
عن أنها أمر حتمى متأق من تفاوت الأفهام والتصورات ، ومن اختلاف البيئات
والملايسات . وقد تقل الرسول الاجتهادات المختلفة وأقر أن يحكم الانسان فيما لم يرد

فيه قرآن أو سنة باجتهاده ، بل وجعل للمجتهد المخطيء حسنة .. ورفض الإمام مالك أن يحمل الناس على الموطأ ، وآثر أن يترك كل مصر ومالديهم من علم ، وليس هناك ما هو أعظم في تأصيل الاختلاف بين الناس ، وأنه ضرورة لامناص منها من قول الله تعالى ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم .. ﴾ ١١٩ هود ﴿ ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ﴾ ٤٨ المائدة ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ هود آية ١١٨ .

من أجل هذا لا بد أن نتنازل عن فكرة الوحدة ، أو حتى الاتفاق في الجزئيات والتفاصيل ، وما يجوز لنا أن نتمسك به أنهم جميعاً مسلمون .. وهذا ما يتوفر لهم بالايمان بالشهادتين ، وانهم أيضاً حريصون على إنقاذ أمة الاسلام ، وحمايتها من الغارة الأوروبية/ الأمريكية/ الاسرائيلية .. وهذا أمر تكنه الضمائر ، ولا يمكننا الحكم عليه إلا بالمواقف المعلنة ، والعمل الثابت .

ونحن نرجو أخواننا جميعاً أن يدرسوا بعمق مواقف وسياسات الرسول صلوات الله وسلامه عليه بدءاً من صحيفة المودعة التي وضعت الحجر الاول في سياسة الدولة الاسلامية ، حتى الحديبية ، وفتح مكة .. وكيف أن الضرورات كانت تلزم الرسول التعامل معها بسعة أفق ، وبمرونة ، وبالتخاذ القرارات التي كان الصحابة أنفسهم لا يلمون أولاً بحكمتها .. إن الرسول يعرض لنا . رجل الدولة . كأفضل وأروع ما يكون .. فليكن لنا في رسول الله أسوة حسنة ، ولنتخلص من التعصبات والتشنجات التي لم يأت بها الاسلام ، ولا يتسع لها ، أو يسمح بها العصر والظروف الحرجة القاسية التي تمر بها أمتنا الاسلامية .. وليقبل كل واحد منا الآخر ، على ما هو عليه فنحن جميعاً نعمل من أجل هدف واحد ...

وقد يذكر في هذا الصدد فكرة التقارب بين الدعوات الاسلامية ، وقد كانت فكرة التقارب مطلوبة في الاربعينات ولكنها الآن ليست أفضل ما يطلب ، لأنها صعبة ومحدودة النجاح تمسك كل فريق بما لديه ، ولعدم الاتفاق على المعيار الموضوعي للحكم بينها ، وليست هي الآن المطلوبة وإنما المطلوب هو الاتفاق السريع على صد العدوان ..

وعندما يهدد وجود الدولة الإسلامية العدوان فلا يجوز أن نضيع الوقت للتقريب بين الشيعة والسنة أو بين الزيدية والحنابلة ... إلخ .

(٩) ما دامت كل هيئة ستقبل كل هيئة أخرى بروح طيبة واحترام الحرية الفكر ، وتقدير لضرورات الاختلاف ، فلن يكون هناك داع لمحاولة هيمنة هيئة على الهيئات الأخرى ، أو فرض نفسها على الإطار المطلوب .. إن هذا لا يحدث إلا عندما تكون الهيئة موفدة من حكومتها للترويج لسياسة هذه الحكومة ، وتفنيدها ما عداها ومقاومة المعارضين .. وسيؤدي هذا لا محالة إلى فشل المشروع وتمزقه .. ولهذا فمن الضمانات الهامة أن تكون الهيئات والدعوات المؤسسة للإطار هيئات شعبية مستقلة عن حكوماتها لا تتخذ من عضويتها في الإطار وسيلة لترويج سياسة حكوماتها .. ولقد شاهدنا مؤتمرات عديدة توافرت لها كل مقومات النجاح تقريبا ، باستثناء هذا العامل ، فلم تغن عنها شيئا وباءت بالفشل في النهاية .

نحن لا نريد أبواقا للحكومات ، والسنة للحاكمين ، نحن نريد إيمانا إسلاميا بقضية هي أقدس القضايا قاطبة ، لأنها قضية الأمة الإسلامية .. وقد ترتكب حكومة ما خطأ وفي هذه الحالة يجب على الإطار بما فيه هيئات هذه الدولة أن تطبق الأمر النبوي « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » ونصرته ظالما بكفه عن الظلم . وهذا وأن كان يبدو للوهلة الأولى مسيحا إلى هذه الحكومة ، فإنه في المدى البعيد في صميم مصلحتها ، إذ لو تُقبل هذا الخطأ ، لقاد إلى خطأ آخر ، فثالث حتى تأق النهاية المحتومة .. وعندئذ لا ينفع أن نقول :

« إلا ليتنا كنا ، إذ الليت لا تنفي » .

(١٠) مما يتفق مع الضمانات السابقة وروح هذا الإطار ، أن يأخذ شكلا لا مركزيا في إدارته وسياسته ، إذ لا يمكن أن يقوم إطار دولي يعمل بروح ديمقراطية إلا على أساس لامركزي إذ لو كان مركزيا لتطلب هذا بالطبع هيمنة ورياسة أحد أعضائه على بقية الأعضاء وهو أمر استبعدناه ، وقد كان سبب فشل معظم التكتلات الإسلامية في العصر الحديث ، وفي العصر القديم أيضا .. ولو أمكن إدارة الخلافة

إدارة لامركزية ، لما حدث الانقسام وظهور الدول الإسلامية التى أعلنت استقلالها عن الخلافة فى مصر والاندلس وإيران فدرس التاريخ هو أنه لا يمكن إدارة هيئة دولية على أساس مركزى ، لأن المركزية لا تسمح بالمرونة ... ونود أن نشير أن فكرة اللا مركزية كانت هى الحل الذى انتهى إليه أحرار العرب فى مستهل القرن العشرين كمحاولة لابقاء الدول العربية فى إطار الخلافة على أن يكون لها نوع من الاستقلال الذاتى ، وتكون حزب اللا مركزية سنة ١٩١٠ ، واتخذ من القاهرة مقرا له ، وكان نائب رئيسه هو السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ، وللأسف فإن غلاة الترك الذين أرادوا تتريك الدولة رفضوا عرض العرب الذين أرادوا أن لا يفصمو علاقتهم بدولة الخلافة رغم كل الاضطواء التى وقعت فيها الدولة التركية ... ١١

ولعل أقرب الهيئات إلى الإطار المقترح هى محاولة عبد الرحمن الكواكبي التى أخذت شكل مؤتمر أم القرى وسجلها فى كتابه (أم القرى) مضابط ومفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد فى مكة المكرمة عام ١٣١٦ .. وقد ضم المؤتمر مندوبين من مختلف الدول الإسلامية شرقا وغربا وتدارسوا فى أسباب ضعف المسلمين ، وما هى طرق النهضة بهم .. وهما هو ذا قرن كامل من الزمان قد أوشك أن يمضى على هذه المحاولة المجهضة ، ولو رزقت النجاح أو قامت ما يماثلها فلربما خلص العرب والمسلمون من بعض ما حاق بهم من الويلات .

(١١) والآن .. نأتى إلى النقطة الهامة ، ألا وهى رسالة ودور هذا الإطار ، والغاية التى من أجلها تأسس ، والوسائل التى ينتهجها لتحقيق هذه الغاية ...

أما الغاية ، فهى الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية وحمايتها من غائلة الهجوم الذى تتعرض له على أيدي قوى الاستكبار العالمى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وتعميق الصلات فيما بينها بمختلف الطرق بتيسير المواصلات الجوية والبحرية والبرية والبحرية وتكثيف التبادل الثقافى وعقد اللقاءات ... ألخ وتدعيم التعاون الاقتصادى بينها بحيث يمكن أن تكفى نفسها بنفسها ولا تتعرض لهزات مالية ، ولا يؤثر عليها حصار

اقتصادى ، ولا تضطر لتسول غذائها وكسائها من الآخرين ... إن البلد المسلم أولى بالقرش المسلم ...

وماذا فى يد الإطار المقترح لتحقيق هذه الاهداف ؟

إن الإطار ، وإن لم يملك جيشا أو أسطولا ، فإنه لو بنى على الأساس السليم المنشود وصدقت النيات والعزائم ، يمكن أن يمارس ضغوطا قوية ويقوم باتصالات فعالة بحيث يسمع العالم صوته ، ولا يكتفى فى هذا بالكلام ، بل بما يتخذه من إجراءات يملكها ...

إن النقابات العمالية والمهنية ، ورجال الاعلام ، والكتاب ، والصحفيين ، والفنانيين يملكون دون شك قوى ولديهم وسائل فعالة على المستوى القومى والعالمى فلماذا لا تكون الاتحادات فيما بينها لتنسيق سياساتها ؟

إن الأموال التى يملكها أفراد مسلمون وعرب فى المصارف الاجنبية تبلغ مئات المليارات .. وإذا أمكن إقناع بعض هؤلاء باستثمار أموالهم فى الدول الاسلامية بدلا من وضعها فى أيدي اعداء الاسلام ... فإن اقتصاديات العالم الاسلامى يمكن أن تتعش ...

وماذا على المسلمين ، أفرادا وحكومات ، لو استثمروا مائة مليار دولار - وهو مبلغ يمكن أن يوفره عشرة من أثرياء المنطقة النفطية - لمد شبكة من الخطوط الحديدية أو المواصلات فى السودان والنهضة بتصنيعه ، إنهم لو فعلوا لوفروا للعالم الاسلامى كله غذاءه ، ولنهضوا بالسودان ، ولأوجدوا منه دولة تنافس كندا والولايات المتحدة فى إنتاج الحبوب والقطن ...

ماذا لو استثمر كلنا ملياردير مسلم أموالهم فى دور نشر تعمل على المستوى الإسلامى ، وتصل العالم الاسلامى بعضه ببعض ثقافيا أو وكالة للأخبار .. أو أقاموا شركة للملاحة الإسلامية تعمل على تيسير الرحلات والزيارات السياحية ما بين الدول الإسلامية بعضها بعضا بحيث يتحقق قدر من التواصل يمكن مع الزمن أن ينمو ويكبر ..

هذه كلها مشروعات اقتصادية مجزية .. وإذا تعرضت لبعض المخاطر ، فقد تكون هذه المخاطر أقل من المخاطر التى تتعرض لها الودائع فى البنوك الأمريكية نتيجة لهبوط قيمة الدولار أو القيود التى تحيط بها عمليات السحب .. وهى بعد تصب فى تيار التقارب الإسلامى ...

دستور إسلامي

وضعه أحد أفراد النظام الخاص للأخوان المسلمين . . في الأربعينات

في عام ١٩٥٠ ، عندما نظرت محكمة جنايات القاهرة القضية التي حملت اسم «قضية السيارة الجيب» (قضية النيابة العمومية رقم ٣٣٩٤ الوائلي ، سنة ١٩٥٠ ورقم ٢٢ سنة ٥٠ كلى) أثارت النيابة وجود وثيقة حررها المتهم الأخير وضبطت في مركز الإخوان المسلمين تضمنت تصورا للحكم الإسلامي اقترح كاتبه أن يكون النظام «جمهورية اشتراكية» وأن ينتخب رئيس الجمهورية مدى الحياة ، وارتكزت عليها في الصاق تهمة قلب نظام الحكم بالمتهمين .

والمشروع الذي قدمته النيابة للمحكمة لا يتسم بعمق أو تماسك ، ولا حتى يأخذ شكل البحث العلمي أو الأكاديمي .. ولكن أهميته لا تأتي من قيمة العلمية ، وإنما من الاتجاه العام الذي يختلف كل الاختلاف عن الاتجاهات الداعية الآن ، عن دستور إسلامي .. ومن هذه الناحية فإنه يصور التحول الذي حدث للفكر الإسلامي خلال الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٨٠ ، وهذا هو «مربط الفرس» كما يقول المثل .. وهي النقطة التي ستكون محل تعليقنا بعد عرض التصور لفسه ، والتمهيد له بكلمة عن «قضية عربة الجيب» .

قضية عربية الجيب :

هذه القضية التي تعود أحداثها إلى ١٥/١١/١٩٤٨ والتي نظرتها المحكمة في ديسمبر ١٩٤٩ ويناير وفبراير ١٩٥٠ ، تعد من أكبر القضايا السياسية ، ومن نقط التحول في تاريخ الأنحوان المسلمين ، لأنها وضعت ببساطة ، وبصورة غير متوقعة أو منتظرة ، وبحكم المصادفة ، كل وثائق وأوراق «النظام الخاص» في أيدي البوليس السياسى الذى ما ان اطلع عليها حتى تكشف الجوانب الخافية لنشاط النظام الخاص للأنحوان المسلمين .. وفسر عدداً كبيراً من الأحداث التي وقعت آنذاك .

وقد تحدثت المحكمة التي نظرت القضية عن ملابسات ضبط «عربة الجيب» فقالت (في الحكم الذى أصدرته) :

«ومن حيث أنه في يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٤٨ حوالى الساعة ٢,٤٥ بعد الظهر ، كانت سيارة من طراز «جيب» يركبها بضعة أشخاص تسير ببطء في شارع جنينة القوادير بجهة الوايلىة ووقفت أمام المنزل رقم ٣٨ فاشتبه البوليس الملكى صبحى على سالم - الذى كان ماراً في ذلك الوقت - في أمرها اذ لم تكن تحمل أرقاماً ، وكان بها صندوق وحقائب في وقت كثرت فيه حوادث النسف في القاهرة ، فأمر راكبيها الذين كانوا نزلوا منها بأن يلزموا أماكنهم .. ولكن هؤلاء فرعوا لهذه المفاجأة ، وركنوا إلى الفرار تاركين السيارة بما فيها ، واتخذ اثنان منهم سبيلهما ناحية شارع عبده باشا فتبعهما وهو يصيح بأنها «صهيونيان» يحملان قنابل ، فانضم إليه بعض المارة لم تعقبهما حتى تمكنوا من القبض عليهما ، وتبين أنهما المتهمان الحادى عشر والثانى عشر أحمد عادل كمال ، وطاهر عماد الدين .

ووضبطت في هذه السيارة كميات من المواد الناسفة من أنواع مختلفة كالجليجنايت والدي تي أن وعشرات من القنابل وست لغات من فتيل الاشعال المؤمن وثلاث لغات من فتيل الأشعال البرتقالى ومدفع «ستن» وثلاث خزانات له وسبعة وعشرون مسدساً من أنواع مختلفة وأربعة خناجر ومئات الطلقات النارية وعدد كبير من المفجرات الكهربائية وست ساعات زمنية وقناع أسود ولغم .. كما ضبط أيضاً بها أوراق عديدة لها أهميتها سيأتى بيانها فيما بعد ...» .

ضبط مصطفى مشهور وحافطة أوراقه :

«وبعد نحو ثلثي ساعة من ضبط هذه السيارة ، شوهد شخص يحمل حافطة من جلد يسير في شارع عبده باشا متلفتاً مرتبكاً ، فاسترعى ذلك نظر أحد المارة الذي ظن أنه قد يكون من ركاب السيارة الذين فروا اذ كان يماثلهم في الملبس (يرتدى صديرياً دون جاكته) فقبض عليه وساقه إلى قسم الشرطة وتبين أنه المتهم الثاني مصطفى مشهور ، وأن هذه الحافطة تحوى أوراقا كثيرة لها أهميتها ولها صلة بالأوراق التي ضبطت بالسيارة ...» .

واستطردت المحكمة فوصفت كيف أن تفتيش منزل مصطفى مشهور أدى إلى القبض على عدد آخر من المتهمين وأن هذا بدوره أدى إلى القبض على عدد ثالث حتى بلغ عدد المتهمين ٣٢ شخصاً ما بين مهندس ومحامى وطبيب وتاجر ... اتلخ ضموا «نجوم» النظام الخاص وعلى رأسهم عبد الرحمن السندى ومصطفى مشهور والدكتور الملط ... اتلخ وقدمتهم النيابة بتهمة المشاركة في اتفاق جنائى الهدف منه الاستيلاء على الحكم بالقوة .. اتلخ .

وترافع عن المتهمين جهابذة المحامين أحمد رشدى وطاهر الخشاب وسعيد رمضان وعبد المجيد نافع وحسن العشماوى وحماة الناحل وعلى منصور وفتحى رضوان وزكى عريبي ومحمد هاشم باشا ، وهنرى فارس والدكتور محمد مندور وعبد المجيد عبد الحق ومصطفى المتزلاوى وعمر التلمسانى .. اتلخ .

وكان حكم المحكمة مفاجأة ودليلاً على ملاحظة القضاء المصرى وقتئذ للأصول القضائية وعدم انسياقه وراء الدعايات أو الغيارات اذ برأت معظم المتهمين وحكمت على ستة بالسجن ثلاث سنوات وعلى ١١ متهما (منهم عبد الرحمن السندى) بالسجن سنتين ، وعلى متهم بالحبس لمدة سنة .. وأهم من هذا أنها أشادت بالأخوان المسلمين وأهدافها السامية وتلمست الرحمة لنيل غاية المتهمين فقالت :

«وحيث أنه سبق للمحكمة أن استظهرت نشأة جماعة الأخوان المسلمين ومسارعة فريق كبير من الشباب إلى الالتحاق بها والسير على المبادئ التي رسمها

منشعها والتي ترمى إلى تطهير النفوس مما علق أو عساه أن يعلق بها من شوائب وإنشاء جيل جديد من أفراد مثقفين ثقافة رياضية عالية مشربة قلوبهم بحب وطنهم والتضحية في سبيله بالنفس والمال ، وقد كان لابد لمؤسسى هذه الجماعة لكي يصلوا إلى أغراضهم أن يعرضوا أمام الشباب مثلاً أعلى يحتذونه وقد وجدوا هذا المثل في الدين الإسلامى وقواعده التى رسمها القرآن الكريم والتى تصلح لكل زمان ومكان ، فاثاروا بهذا المثل العواطف التى كانت قد خبت في النفوس وقضوا على الضعف والاستكانة والتردد وهى الأمور التى تلازم عادة أفراد شعب يحتل مغلوب على أمره - وقام هذا النفر من الشباب يدعوا إلى التمسك بقواعد الدين والسير على تعاليمه واحياء أصوله سواء أكان ذلك متصلاً بالعبادات والروحانيات أو بأحكام الدنيا ، ولما أن وجدوا أن العقبة الوحيدة في سبيل احياء الوعى القومى في هذه الأمة هو جيش الاحتلال الذى ظل في هذا البلد قرابة سبعين عاماً تخللتها طائفة من الوعود بالجلء - كما كان بين المحتل وبين فريق من الوطنيين الذين ولوا أمر هذا البلد مباحثات ومفاوضات على اقرار الأمور ليخلص الوادى لأهله ، ولم تنته المفاوضات والمجادلات الكلامية الى نتيجة طيبة - ثم جاءت مشكلة فلسطين وما صاحبها من ظروف وملابسات .

ولما كان كل هذا ، اختل ميزان بعض أفراد شباب جماعة الأخوان ، فبدلاً من أن يسيروا على القواعد التى رسمها زعمائهم عند انشاء الجماعة والتى كانت تؤدى حتماً إلى تربية فريق كبير من الشعب وتثقيفهم واعلاء روحهم المعنوية ، بدلاً من السير على هذه المبادئ ، أرادوا أن يختصروا الطريق ظناً منهم أن أعمال النسف تبلغ بهم أهدافهم من سبيل قصير ، فاعتمدت ارادتهم على القيام بأعمال قتل ونسف وغيرها مما قد لا يضر المحتلين بقدر ما يؤذى مواطنيهم ... وذهبوا في سبيل هذا مذهبا شائكا منحرفين عن الطريق السوى الذى رسمه لهم رؤساؤهم والذى كان أساساً قوياً لبلوغهم أهدافهم بالطرق المشروعة ... ٤ .

وحيث أنه من هذا يبين للمحكمة أن أفراد هذه الفئة الارهابية لم يقترفوا الجريمة وإنما انحرفوا عن الطريق السوى فحق على هذه المحكمة أن تلقنهم درساً حتى نستقيم أمورهم وباعتدل ميزانهم ... على أن المحكمة تراعى في هذا الدرس جانب الرفق

فتأخذهم بالرافعة تطبيقاً للمادة ١٧ عقوبات نظراً لأنهم كانوا من ذوى الأغراض السامية التى ترمى أول ما ترمى إلى تحقيق الأهداف الوطنية لهذا الشعب المغلوب على أمره ... (انتهى) .

كما أن المحكمة عندما تعرضت للحديث عن الأخوان المسلمين استشهدت بأقوال الإمام الشهيد حسن البنا فى رسالته «مشكلاتنا الاقتصادية والدستور» وقالت :

«وحيث أنه يظهر جلياً من أقوال المرشد العام أن الجماعة لاتناهض الحكم القائم فى مصر ، بل تراه متفقاً مع النظم الإسلامية ، وأنها كانت تهدف إلى تحقيق نظام شامل والاصلاح طبقاً لأحكام الدين الإسلامى وبالطرق الدستورية المعروفة طبقاً لما جاء فى قانونها الأساسى السابق تفصيله ... الخ» .

نرجو أن لانكون قد أطلنا ، والحقيق أن هذه الفقرات هامة لأنها تصور وجهة نظر المحكمة نحو الإخوان .

فمع أن المحكمة كانت متعاطفة مع الفكر الإسلامى (أصبح رئيسها بعد ترك الخدمة من الشخصيات الإخوانية ، وكان هو محامى أسرة آل البنا فى قضية تعمير) .. الا أنها ما كان يمكن أن تأتى بغير ما تضمنته الأوراق .. كما كان لا يمكن أن تتجاهل مستندات تقديمها النيابة ذات مصداقية تدين هذه الجماعة باتباع طرق غير مشروعة .. والا شاب هذا حكمها .. والحقيقة أننا لانرى فى كتابات الإمام الشهيد حسن البنا اشارة واحدة عن «حاكمية الهية» أو اطلاق الكفر على الديمقراطية والنظم النيابية الأخرى .. على العكس إنه كان يرى أنها كلها تدخل فى اطار نظام يتفق مع الإسلام .. فالاختلاف الذى ستراه ما بين تصور عضو النظام الخاص الذى وضع والنظام الإسلامى عن تصورات الدعوات الإسلامية التى جاءت بها الثمانينات يتوازى مع اختلاف فكر الأستاذ البنا عن أفكار سيد قطب والمودودى وجماعات «الرافضة الجديدة» .

مشروع النظام الإسلامى فى العصر الحاضر :

قدمت النيابة الوثيقة التى كتبها المتهم الثانى والثلاثون سليمان مصطفى عيسى قائلة إن المتهم صاغها فى تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهورياً ، وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ، وفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية ، وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى انشاء نظام دكتاتورى اشتراكى ينصب فيه مرشده العام دكتاتورا على البلاد .

وكأن النيابة لم تكتف بتهمة قلب نظام الحكم ، بل أيضاً حددت أن يكون «اشتراكياً» فى فترة كانت الاشتراكية هى أكبر تهمة يمكن أن تلتصق بتنظيم ، فضلاً عن أنه يخالف ما كان يدعيه البعض من تقارب بين الأخوان والسراى ، أو ما بين الإسلام والملكية ..

وهذا هو ما سجلته النيابة فى مذكرتها عن هذا المشروع عند حديثها عن المتهم الثانى والثلاثون سليما مصطفى عيسى :

«سبق أن أشرت عند استعراض الوقائع وعند الكلام عن تهمة التآمر على قلب نظام الحكم إلى مشروع «النظام الإسلامى فى العصر الحاضر» الذى حرره هذا المتهم . وضبط هذا المشروع فى دار المركز العام لجماعة الأخوان المسلمين عند تفتيشه عسكرياً عقب صدور الأمر بحلها .

وقد صاغه المتهم فى تسع مواد نص فيها صراحة على أن يكون الحكم جمهورياً وأن ينتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة ويفهم من عبارات المشروع الأخرى أن المتهم قصد إلى أن تكون هذه الجمهورية اشتراكية .

وبعبارة أخرى فإن المتهم قد رمى بمشروعه هذا إلى انشاء نظام دكتاتورى اشتراكى ينصب فيه مرشده العام دكتاتورا على البلاد .

وإليكم نص هذا المشروع :

«النظام الإسلامى فى العصر الحاضر»

الإسلام والعدالة الاجتماعية :

إن البرنامج الصحيح ضرورى لحياة أمة من الأمم حياة قوية عزيزة . هذا شيء جميل ورائع حقا ولكن أبجل منه وأروع أن يقوم رجل نزيه على تنفيذ هذا البرنامج حتى لا يجعل منه حبراً على ورق .

وإن حاجتنا إلى رجل ينقلنا من الهاوية التى نسير نحوها بخطا سريعة ليس أشد إلحاحاً من برنامج معطل لايساوى المجهود الذى بذل من أجله .

إهداء إلى اليساريين :

«وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون إلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون» .

يجب أن تمتلأ نفوسنا بالثورة على هذه النظم الفاسدة البالية وإن اشتد لبيب هذه الثورة فستنتقل من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب «صبراً آل يسر فموعدكم الجنة» .
ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

التشريع فى النظام الإسلامى يعتمد على ثلاث مراحل .

(١) القرآن الكريم مرحلة درجة أولى .

(٢) السنة مرحلة درجة ثانية .

(٣) الاجتهاد مرحلة درجة ثالثة .

وفى ذلك قال رسول الله ﷺ عندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له «كيف تصنع

إذا عرض لك قضاء» قال «أفضى بما في كتاب الله» فقال له الرسول «فإن لم يكن في كتاب الله» قال «فسنة رسول الله» قال له «فإن لم يكن في سنة رسول الله» قال «اجتهد رأيي ولا ألو» قال معاذ فضرب رسول الله صدرى وقال «الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله» رواه أبو داود والترمذى .

الحكومة فى الإسلام :

المادة الأولى : الحكوم الإسلامية جمهورية وتتولى الحكم بطريق الانتخاب العام لأن الحقوق السياسية لا تورث . ويستفاد ذلك من قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين﴾ (١٢٤) .

المادة الثانية : الحكومة الإسلامية ديمقراطية نيابية ويستفاد ذلك من قوله تعالى ﴿وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ .

المادة الثالثة : رئيس الجمهورية ينتخب لمدة الحياة وذلك لسببين :
(١) لئلا يكثر الطامعون فى الحكم اذا كان الانتخاب كل مدة معينة .
(٢) لئلا يسيء الحاكم استعمال سلطته عندما يرى أنه قد ينحى عن كرسى الخلافة وحتى يكون هناك استقرار فى البلاد .

المادة الرابعة : يعزل رئيس الجمهورية اذا أهمل فى شأن من شؤون الرعية أو قصر ، إن الحاكم ماهو الا وكيل عن الأمة ليحقق العدل بينها ويعمل على رفاهية الشعب وينفذ أحكام دينها . فاذا سقط بند من هذه البنود انتفت الوكالة وسقط حق الوكيل فى مزاوله هذه الوكالة .

المادة الخامسة : السلطة القضائية مستقلة استقلالاً تاماً عن السلطة التنفيذية أى أن الحاكم ليس له أن يتدخل لمصلحة أحد ولكن عليه أن ينفذ ما توصى به السلطة القضائية - وفى هذا المعنى ما روى من أن أحد المقرين للسلطان صلاح الدين استعدها على رجل فقال له الخليفة «ماعسى أن أصنع لك

وللمسلمين قاضى يحكم بينهم والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه مشكلة . وإنما أنا عبد الشرع وشحنته والحق يقضى لك أو عليك .

أما كيف نراقب أعمال الحاكم فهو بتكوين رأى عام قوى يعرف حقه فلا يفرط فيه ويحاسب الحاكم حسابا عسيرا من وقت الخليفة الثانى وقال «من رأى منكم عوجا فليقومه» فوقف أعرابى وقال «لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا» .

المادة السادسة : الحكومة مسئولة مطلقة عن حماية جميع أفراد الدولة حماية عامة ولا تقتصر الحماية العامة على الحماية الخارجية والداخلية وأداته الجيش والبوليس ولكن مسئولة أيضاً عن حمايته من الفقر والجهل والمرض .

قال سيدنا عمر فى خطبة له استشهد بها مكرم عبيد باشا فى البرلمان «المرء وحاجته والمرء وعمله» والله ما أحد أحق بمال الدولة من أحد والله ما أنا أحق به من أحد فلكل امرئ فى مال الدولة نصيب فالرجل وبلاؤه والرجل وقدره والرجل وحاجته إن فى مصر قوم يعيشون ... وهناك آخرون يمشون حفاة عراة يشربون ماءهم كدرا وطناً . إن هناك تداخل فى توزيع الثروات وهذا مما لا شك فيه غبن فادح ويقولون إن نظامنا الرأسمالى تتوافر فيه المنافسة الحرة والله يعلم أنهم لكاذبون ، لأن المجتمعات الرأسمالية تنقسم إلى طبقات غير متنافسة ويرتب على ذلك أن يبقى كثيرون من أفراد الطبقة الدنيا حاملين على حين أنه لو توافرت لهم الفرص لأمكن أن يفيد منهم المجتمع فائدة لايمكن المغالاة فى مقدارها ولا يرجع خمول أفراد هذه الطبقة إلى خطئهم بقدر ما يرجع إلى انعدام الفرص أمامهم أو جهلهم لهذه الفرص .

ولكى نصل إلى العدالة الاجتماعية سنتبع مرحلتين مرحلة تتمشى مع روح الإسلام ومرحلة مادية تتمشى مع قوانينه المادية .

أولاً : التضامن الاجتماعى : إن الفقر شئ نسبى ولا يعقل أن يوجد مجتمع كله أغنياء فالفلاح المصرى على تعاसे معيشته محسود عليها من الفقير الهندى جاء الإسلام فجعل من هذه الأمم المفككة أسرة واحدة كبيرة فإذا حلت بانسان

نكبة فإنه سيجد من يقاسمه آلامه المادية والمعنوية ويمد إليه يد المساعدة فكان كل فرد في هذا المجتمع بمثابة شركة تأمين للأفراد الآخرين فإذا لم تقدم له هذه الشركة يد المساعدة فهناك مفات الشركات بل ملائها لن يعدم أن تمد له أحداً هاما يحتاج إليه وذلك نتيجة للحب بين أفراد المسلمين والأخوة بينهم وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿ولو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ وقوله ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ وقد رتب الإسلام ذلك ترتيباً تصاعدياً وهذا رأى منطقي فقال ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فالوالدين والأقربين واليتامى وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ وقوله ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ ويكون التضامن الاجتماعي نتيجة للتربية والشعور بالمسؤولية ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ... وهذا جميل جداً ولكن هناك نفوساً لمهمة وستترب مما لاشك فيه من هذه المهمة الاختيارية وإن الله ليزرع بالسلطات ما لايزع بالقرآن ففرضت ضرائب أخرى ؟ سنأتى عليها في حينها .

ثانياً : الإيرادات التي يمكن الحصول عليها لمصلحة الفقراء ولسد النفقات

العامة .

(١) تحديد الملكية حتى لا يتخضم قوم ويهلك آخرون جوعاً وتوزيع هذه الأراضي

على صغار الفلاحين .

(٢) اصلاح الأراضي البور بواسطة الحكومة نفسها لا عن طريق إعطاء امتياز

لشركات أجنبية وزراعة الأراضي الصحراوية وتوصيل مياه الري إليها فتريد بذلك مساحة الأراضي وبالتالي يزيد الانتاج .

(٣) من القوانين التي تحرم على الأجنبي امتلاك عقارات فترجع بذلك ٢٥٪

الأراضي التي يمتلكها أجنبى إلى أيدي الشعب .

(٤) فرض ضريبة الزكاة وهي ٢,٥٪ من رأس المال وتقدر حصيلتها بما يقرب

من ٢٠ مليون من الجنيهات .

(٥) فرض ضريبة على أيلولة الشركات متصاعدة حتى تصل إلى ١٠٠٪ أى درجة المصادرة إن من سيرث مليون جنيه لو ورث نصفه فلن يضره ذلك شيئاً .

(٦) فرض ضريبة تكميلية على الدخل الكلى متصاعدة أى شخصية .

(٧) زيادة نسبة الضرائب الأخرى مع تخفيف عبئها على الفقراء .

وفى ذلك قال تعالى ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ .

ولكن قبل كل شيء يجب أن تظهر الاداة الحكومية الفاسدة حتى يمكنها أن تأتى بحصيلة هذه الضرائب كاملة فإن النقود التى للحكومة طرف الشركات والأفراد تقدر بستين مليوناً سقط حق الحكومة فى بعضها بمضى المدة .

وعلى الحكومة أن تصفى شركات الامتياز والاحتكار وتستولى عليها هى حتى تستفيع هى بالأرباح وتخفف عبء تحكمها فى أفراد الشعب وأن تقوم هى أيضاً ببعض المشروعات الاقتصادية التى تدر ربحاً وتكون للمصلحة العامة بها صلة وأن تسن التشريعات اللازمة لحماية الضعيف من القوى وتراقب تنفيذها تنفيذا تاماً .

وأن هذه الأموال جميعاً لتربو على مائة وخمسون مليوناً لو أحسن استغلالها لقضت على أمراضنا الاجتماعية فى بعض سنين .

(٨) أن يجعل نظام الزراعة تعاونياً .

وفى ذلك يقول رسول الله تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان» .

لأن الفلاح البسيط اذا امتلك شيئاً فهى مبعثرة هنا وهناك ولانه ليفقد جهداً كبيراً فى زراعتها فلو أدخلت الآلات الزراعية على أن يكون لكل زمام آلة من كل نوع من عدة الآلات تروى الأرض كلها مرة واحدة ثم تزرع بهذه الآلات أيضاً ثم اذا جاء وقت الحصاد ذهب كل مالك إلى أرضه ليحصد زراعته فيستفيد الفلاح من

وجهتين توفير المجهود الهائل الذى يبذله والوقت فيمكن بذلك أن يوجه المرء وجهه
صاحبة كالاتجاه لانعاش الصناعات القروية .

ويجب أن يكون وجهة الانفاق الأمور الآتية :

(١) تحسين الحالة الاقتصادية ورفع مستوى معيشة الفلاح والعامل وعمل
ملاجيء للعجزة واليتامى (الحكومة مسئولة عن كل شخص وفى ذلك قال عمر (لو
عثرت بغلة بالعراق لسئلت عنها) .

(٢) تحسين الحالة الصحية فالحالة سيئة كما كل شخص يعرفها وأنى لاذكر أن
احدى الكاتبات الانجليزيات خطبت فى النادى الزائل فقالت «إنه يجب أن تظل نسبة
الوفيات فى مصر على ماهى عليه حتى لاتحدث مجاعة نتيجة لازدياد عدد السكان»
ونسبة الوفيات كما أعلمها هى ٢٧,٥٪ وانى لاذكر عدد المرضى للتذكير فقط
١,٥٠٠,٠٠٠ مريض بالعيون ، ١٢,٠٠٠,٠٠٠ بالبلهارسيا و ٨,٠٠٠,٠٠٠
بالانكلستوما و ١,٠٠٠,٠٠٠ أصيبوا بالمalaria و ٢,٠٠٠,٠٠٠ بأمراض عادية ...
الخ .

(٣) رفع المستوى العلمى والعمل على تشجيع البحوث العلمية ، فيجعل
التعليم مجانيا للفقراء مجاناً فى جميع مراحلها والزامياً فى مراحلها الأولى كالتعليم الابتدائى
مثلاً .

المادة السابعة : جميع أفراد الشعب لهم حق الملك التام ولا تنزع الملكية الا
للمصلحة العامة وحالتى المجاعات والحروب اذا استدعت الظروف ذلك على أن ترد
إلى أصحابها عند زوال هذه الأسباب وأن المثل الذى يقول «ان سحر الملكية يحول
الغراب قبرا» لا يزال صحيحاً .

واننا باعطائنا الفرصة لجميع أفراد الشعب وجعلها متكافئة بينهم فإننا نزيد من
كفاءتهم وبالتالي سنصل بالانتاج إلى الحد الأقصى مما يزيد من رفاهية الشعب .

المادة الثامنة : جميع أفراد الشعب هم احرار فى الاعتقاد والواجب : .

أولاً المساواة - ساوى الإسلام بين جميع أفراد الرعية والأمثلة على ذلك كثيرة فعند شكاية أحد التجار المأمون أجلس المدعى عليه على قدم المساواة ، ساوى بين الخادم والسيد ، وبين المرأة والرجل وفي ذلك يقول رسول الله «خدمكم بخولكم» وإن المرأة المسلمة لها من الحقوق ما حرمت منه نساء كثيرات فبينما المرأة المسلمة لها حق الاتجار اذ تحرم منه المرأة الفرنسية إلا بإذن من زوجها وحتى في هذه الحالة تمتع من الصرف .

ثانياً العدل - جعل الإسلام العدل بين الرعية وعدم التفرقة بينهم من أشد واجبات الحاكم قال رسول الله «لساعة من أمام عادل خير من الدنيا وما فيها» في رواية أخرى «لساعة من أمام عادل خير من عبادة سبعين عاماً» وقوله «إنما أهلك الذين من قبلكم أنه إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف حدوه أى أقاموا عليه الحد» وقوله «شر الناس منكم الذين تكرهونهم ويكرهونكم وتلعنونهم ويلعنونكم» ، «وخير الناس منكم الذين تحبونهم ويحبونكم» .

وقوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لَهْلَكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾ .

المادة التاسعة : ليس هناك رق ولا استعباد في الإسلام . ليس هناك رق في الإسلام كل ما هنالك أن دائماً يحصل أن يقع اسرى في أيدي المسلمين ويكون التصرف فيهم إما أن يستبدل بهم أسرى المسلمين أو أن يفتدوا أنفسهم بأموال والباقي للقائد أن يطلق سراحهم منه أو توزع على جنود الجيش وكانت هذه لأسباب دينية أو اقتصادية أو سياسية .

(١) الأسباب الدينية - أن هناك ما سموه الدروس العملية فإن الأسير عندما يرى أن سيده به رؤوف رحيم ويرى من معاملته ومن دماثة خلقه سيدهشة حقاً ويراه في عبادته وقنوته مما لا شك سيكون له أثر طيب في قلبه مما قد يكون سبباً في دخوله الإسلام .

(٢) الأسباب الاقتصادية - أن قيام الحروب يفقد الأمة جزءاً من بنيتها فوجود

هؤلاء الأسرى مما يحرر الأيدي العاملة المفقودة وإن نداء روسيا الذى وجهته إلى جميع الأرمن فى العالم لخير دليل .

(٣) أسباب سياسية - وهى أنها تمنع الثورات القوية التى قد تنشب فى وجهها فى يوم من الأيام إذ أن جزءاً كبيراً من المحاربين الأشداء سيكوتون خارج الميدان فهو نوع من النفى . ولكن الإسلام لم يشأ أن يظل هؤلاء الأسرى مدى الحياة بل سرحهم تسريحاً بطيئاً بأن حُبب إلى من يملك هؤلاء الأسرى بإطلاق سراحهم وأوجب ذلك عليهم فى حالات كثيرة من ذلك عدم القدرة على صوم رمضان وفى القتل غير العمد وفى ذلك قال الله تعالى ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا غَطًّا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا غَطًّا فَحَرِيرٌ رَقَبَةٌ...﴾ .

فضائل الإسلام وأحكامه التشريعية :

(١) حفظ للمرأة جسدها ولم يجعله سلعة تباع وتشتري وحفظ كيان الأسرة من التفكك فشرع الزواج وحرم الزنا ووضع له أشد العقوبات وهو الجلد مائة جلدة لغير المتزوج والقتل رجماً بالحجارة لغيره أى المتزوج يقولون إن فى هذا وحشية لاتوصف وهم الذين يقتلون معات الألواف دفعة واحدة فى حروب من أجل منافع شخصية . ولكن الإسلام قال يجب أن يكون هناك أربعة شهود ممن نعتد بقولهم حتى لا يساق الناس إلى الموت جزافاً وحتى يُتخذ من الزنا نفسه ، فهو جاء للإرهاب أكثر من أى شئ آخر .

(٢) حرم الخمر حفظاً لصحة الأفراد وأموالهم فقال ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخمرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا أَثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

(٣) حرم السرقة لأن الإسلام أعطى للفقير حقه فإذا سرق بعد ذلك أى شخص فإنما يكون عبارة عن مجرم تعود الإجرام فسن لذلك قطع اليد ولكنه فى نفس الوقت أعطاه الفرصة لكى يقلع عن إجرامه . بل قال «ادربوا الحدود بالشبهات» . انتهى المشروع .

ومن الواضح بالطبع أن المشروع لا تتوفر له «الحبكة» و«الدقة» اللازمة في مثله ، فضلاً عن ركافة أسلوبه وأنه فعلاً أقرب لأن يكون موضوع مسابقة تعلن عنها إحدى المجلات كما قال الدفاع .. ولكن يجب ألا ننسى أن كاتبه كان مدرسا في الرابعة والأربعين من العمر ، ومن أفراد الجهاز الخاص ، ومن أصدقاء الأستاذ فريد عبد الخالق عضو مكتب الإرشاد .

والصاق النيابة «تهمة» الاشتراكية لا أصل له ، لأن كل ما جاء فيه عن حقوق المواطن الاجتماعية والاقتصادية هو ماقرره الإسلام بالفعل وما يقتضيه التكافل الاقتصادي والاجتماعي الذي يقوم عليه الإسلام ولها أسانيد من صريح الكتاب وصحيح السنة وقد يلحظ الإنسان تأثير الكاتب بكتاب سيد قطب عن العدالة الاجتماعية التي كانت قد نشرته جماعة الإخوان ، وكان يمثل فكر سيد قطب قبل تحوله إلى الحاكمية .

إن النقطة التي نريد توجيه الالتفات إليها هي أن الفكر الإسلامي - وإلى حد ما الإخواني - تأثر تأثيراً حاسماً نتيجة للصدام مع عبد الناصر وما قام به من تشكيل بالأخوان ، وممارسة للتعذيب ، ثم ما وقع فيه من أخطاء قاتلة نتيجة لديكتاتوريته انتهت بكارثة ١٩٦٧ المدوية ... هذه الأحداث رسمت تحولاً كاملاً في الفكر الإسلامي بحيث أوجد الفئات التي أطلقنا عليها «الرافضة الجديدة» بكل أطيافها بدءاً من مجموعة شكرى مصطفى وصالح سرية وعمر عبد الرحمن ومن جاء بعدهما ، وهذه الفئات كلها تعارض الإخوان ، وفكرهم ، وكانت مناقشتهم مع الإخوان في المعتقل سبباً في إصدار الإخوان لكتاب «دعاة لا قضاة» ، وفي الوقت نفسه فقد تجمد الفكر الإخواني نتيجة للوضع القاسي الذي وجد الإخوان أنفسهم فيه ، فهم منبوذون ومحاربون من الحكومة ، وهم منبوذون ومحاربون من هذه الفئات الإسلامية الجديدة .. ونحن في غنى عن القول أن المجتمع «المدني» أو كما يقولون «العلماني» يضيق أيضاً بالأخوان .. وهكذا دفع الإخوان إلى الظل .. بينما احتل الساحة وسرق الأضواء المجموعات الشاردة الجديدة ، وإن لم يمنع هذا أن الإخوان بفضل تراثها ، وذكرى الأمام الشهيد ، وتماسكها الإداري ، لا تزال صاحبة الجمهور الأكبر ، ولكنها لا تريد ، وقد لا تستطيع ، تحريك هذا الجمهور :

وصاحب الاختلاف في الفكر ما بين هذه الفئات الشاردة ، وفكر الإخوان .. اختلاف في الزى و «النفسية» .. فمن يقرأ كتاب محمود الصباغ (التمه الثالث في قضية

عربية الجيب) عن النظام الخاص والمطبوع به صور كل نجوم . وقيادات النظام ، لا يرى فيهم ملتحمين ، أو معتمداً ، أو لابساً طاقية ، أو جلباباً مما أصبح فيما بعد من علامات أعضاء الجماعات الإسلامية وإنما يرى مجموعة حلقة ، مطرشرة ، كل واحد يرتدى «البذلة» كاملة ومعظمهم يضع المنديل الحريري في جيب سترته ...

كما أن من يقرأ كتابات الإمام الشهيد عن النظام السياسي لا يجد تعبيراً والحاكمة الالهية وإنما يلمس تقبل النظام الانتخابي القائم على أن الأمة مصدر السلطات مع تعديل نظمة مما يقضى على عيوبه ، ولما كانت الأمة المصرية مسلمة ، ومؤمنة باسلامها فإن تحقيق النظام الإسلامى لا يعدو أن يكون تطبيقاً لارادتها ...

- الإخوان المسلمون والعمل النقابي -

تعود صلة الإخوان بالعمال إلى لحظة التكوين الأولى . عندما تأسست الخلية الأولى لها في الإسماعيلية من ستة من عمال شركة قناة السويس سنة ٢٨ . على أن هذه الملاسة كانت حكم الأمر الواقع أكثر مما كانت اختياراً خاصاً للعمال أو تفضيلاً لهم على غيرهم . ففي الإسماعيلية لم يكن هناك فلاحون . كان الشعب هم العمال الذين يعملون في خدمة القناة التي أنشأت مدينة الإسماعيلية كما أنشأت مدينة بورسعيد . ومن ثم كان من الطبيعي أن تقدم الدعوة إليهم وعندما امتدت الدعوة زجفت على الكثافة الريفية في محافظات الشرقية والمطرية دقهلية المصاغة وجعلت من الفلاحين جمهورها الذي تجاوب معها بحكم الحاسة الزراعية التي تجعل الفلاح مؤمناً . وفي المرحلة الأخيرة عندما تركزت في العواصم اجتذبت عناصر الطلبة والشباب .

وكان للهيئة بعض نشاط مع الحركة النقابية . ففي البحر الأحمر كانت الكتلة الثالثة من كتل العمال القوية التي ظهرت على الساحة في الأربعينات وهي كتلة عمال البترول (بالإضافة إلى كتلة عمال النسيج وكتلة عمال النقل) تخضع للإخوان تماماً وتولى الأخ محمد رمضان على رأسه النقابة ثم تركها للأخ أنور سلامة . وهما معاً من الإخوان المسلمين . وثمة وثيقة قديمة ذكر فيها الأستاذ البنا - رحمة الله - أسماء مائة شخص من خاصة الإخوان تعهد باستشارتهم قبل اتخاذ أى إجراء رئيسى .

وكان من هذه الأسماء طه سعد عثمان ومحمود العسكري وهما زعيما كتلة عمال النسيج في شبر الخيمة . وظلت نقابة غزل ونسيج شبرا الخيمة مسترة وراء شعبة الإخوان بها حيناً من الدهر ..

ولكن هذه الصلات كانت أقل فيما نرى مما كان يجب أن يكون بالنسبة للإخوان . وتكاد تمثل عزوفاً عن الحركة النقابية وهو يعود إلى أمرين الأول : غلبة بعض العناصر الحزبية والشيوعية على الحركة النقابية مما أوجد نوعاً من الوحشة بينها وبين الإخوان . وأعطى الإخوان انطباعاً سيئاً . والثاني : أن جمرة أعضاء الإخوان كانوا من الريفيين الذين لا يعلمون شيئاً عن الحركة النقابية ويجهلون تماماً ، والإنسان عدو ما جهل . أما الذين يعيشون في المدن فقد كانوا من البرجوازية الصغيرة التي تحكمها التطلعات وتؤمن بأن الوسيلة «لتحسين الحال» هي الوسيلة الفردية . فكل واحد وحظه من الشطارة أو الذكاء أو اللباقة أو الظروف الخاصة . وهذه الوسيلة لتحسين الحال مما لا يوجد في العمال . الذين اكتشفوا الوسيلة «الجماعية» لتحسين الحال هي طريقة «الاتفاقات الجماعية» التي تبرمها النقابة مع الإدارة وتعد اتفاقية ملزمة للإدارة ويستفيد منها كل العمال حتى وإن لم يكن بعضهم في النقابة .

كانت هذه هي الأسباب التي جعلت نشاط الإخوان في النقابات العمالية محدوداً . كما كانت تعود إلى بعض الأخطاء التي اقترفها «قسم العمال» الذي لم يتوفر له وعى عمالي ، في توجيه العمال الإخوان وجهة مخالفة لوجهة زملائهم مما أوجد انطباعاً سيئاً . وأدى فيما بعد إلى انشقاق طه سعد عثمان ومحمود العسكري وانضمامهما إلى معسكرات يسارية كانت أكثر قهماً لهما واحتفاءً بهما .

على أن الحركة النقابية في مصر لا تقتصر على النقابات العمالية . ولكنها تضم أيضاً نمطاً آخر من النقابات هي التي يطلق عليها النقابات المهنية التي تضم - عادة - خريجي الجامعات . وتوجد نقابات مماثلة للنقابات المهنية المصرية في بعض الدول الديمقراطية مثل بريطانيا والولايات المتحدة وتدعى «النقابات الحرفية» وقد

يطلق عليها «النقابات الأرستقراطية» لأنها لاتنضم جمهور العمال ولكن الفئة الماهرة وحدها وهذا هو أبرز وجوه الاختلاف ما بينها وبين النقابات المهنية المصرية . ففى الخارج يتمثل عنصر الامتياز فى «المهارة» ولكنه فى مصر يتمثل فى «الشهادة» ومن هنا جاء تكوين النقابات المهنية مقصوراً على حملة الشهادات وخريجى الجامعات باعتبار أن خريجها هم «أرستقراطية» العمال كما يتضح من الفرق ما بين الميكانيكى والمهندس ، الممرضة والطبيب الخ ... ومثل هذه الفروق لاقيمة لها فى الخارج فالميكانيكى الماهر والممرضة الخاذقة يتالان من التكريم مالا يتاله مهندس أو طبيب تقف مهارتهما عند حدود ثقافتهم الجامعية وهى - كائنة ما كانت - تختلف عن منطق وضرورات العمل الفعل ..

باستثناء هذا الفارق فإننا نجد أن خصائص النقابة الحرفية فى الولايات المتحدة مثلاً هى خصائص النقابة المهنية فى مصر وأبرزها الروح القوية والعناية بالمزايا والخدمات والبعد عن الاتجاهاات الشعبية والنشاطات العامة وبالطبع أن يكون مناط العضوية هو الحرفة أو المهنة وليس الصناعة (كما هو الحال فى النقابات العمالية التى تضم كل من يعمل داخل المصنع) .

وخلال الأربعينات التى وصلت فيها الدعوة الإخوانية الى الأوج لم تجد الهيئة حاجة - أو لم تفرغ - لدخول النقابات المهنية . إذ كان تركيزها على الطلبة من السنوات الأخيرة للدراسة الثانوية حتى المرحلة الجامعية والفلاحين وصغار الموظفين ومدرس الإلزامى فى القرى . وكانت الهيئة تضم فى العواصم والبنادر الكثيرين من «المهنيين» من محامين أو مهندسين أو أطباء (فى يوم ماوجد ستة من الأطباء البارزين الإخوانيين يبدأ اسم كل منهم بـ «أنور») ولكن الهيئة لم تتجه إلى النقابات المهنية لأن تكتلها القائم كان يكفئها ولأن النقابات المهنية وقتئذ كانت مراكز للدعائيات الحزبية ...

ولكن الأحوال اختلفت فى السنوات اللاحقة قبعد الحرب الشعواء التى شنها عبد الناصر على الإخوان وأراد بها تشريد رجال الإخوان وتعهير نساء الإخوان ومع نهاية ربيع التصالح الذى لم يكن صافياً أو خالصاً مع السادات .. عاد الطوق الحكومى يضغط على التنظيم الإخوانى ... ووجد الإخوان المخلص فى التحالف مع الأحزاب

القائمة والعمل تحت مظلتها وبدأ هذا مع الوفد أولاً .. ثم مع حزب العمل ثانياً وبفضل هذا الحلف الأخير نجح الإخوان في اختراق الحظر المفروض عليهم وأن يكون لهم ثلاثون نائباً في انتخابات مجلس الشعب (إبريل ٨٧) فضلاً عن عدد يمثلهم لحزب العمل .

ومن يقرأ صحف هذه الفترةيلمس أن نوبة من الترقب والخوف تملك دوائر الحزب الحاكم وظن بعضها أن هذا هو بداية الزحف الإسلامى على الحكم وانتظر البعض الآخر معارك حامية في المجلس ...

ولم يحدث شيء من هذا . ان الحكومة كانت قد تعلمت دروساً هامة خلال فترة الحكم المطلق الطويلة . بحيث لم تعد تخشى قوة المعارضة . وانتهى الوقت الذى حلت فيه المجلس تخلصاً من ثلاثة من المعارضين الأقوياء . . وقد عهدت الحكومة برئاسة المجلس إلى شخص يمثل الصلابة حيناً والصفافة حيناً آخر .. من الرعيل الذى عايش التنظيم الطليعى الناصرى . ثم هادن السادات وعمل تحت خدمته وحاول الإبقاء على «الاتحاد الاشتراكى» المنكود ولما لم يستطع قنع بأن يركز مواهبه وقواه لحماية النظام الحاكم حتى ولو قام على أنقاض الاتحاد الاشتراكى .

واستطاع هذا الرئيس أن يجعل من المجلس مدرسة يكون هو ناظرها . واستفاد من أحكام اللائحة ومافيه من ثغرات .. ولكن أهم من هذا أن كان وراءه أغلبية مطلقة بحيث لم يكن في حاجة لمجرد النظر قبل أن ينطق «موافقة .. موافقة» . وتحت يده دائماً طلب من أكثر من عشرين عضواً بإغلاق باب المناقشة ! يمكن أن يستخدمه عندما تتأزم الأمور ...

تبين الإخوان أن مردود العمل السياسى الحزبى وثمره دخول مجلس الشعب لا يتوازى مع ما انفق عليه وبذل فيه . وأنه يمكن أن يكون نكسة لأنه مالم يحقق نجاحاً فإنه يكون فشلاً .. وأعتقد أن هذا كان من أكبر أسباب التفاتهم نحو الحركة النقابية المهنية . كمجال جديد يمكنهم من مواصلة العمل .

ولعل لنا إسهاماً في هذا التوجه يعود إلى ما قبل ذلك فقد كوناً «الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل» في سنة ١٩٨١ وأخذنا على عاتقنا إيضاح أهمية العمل النقابى وتجاوبه

مع الإسلام وفندنا بقوة تلك المقولة التي سادت حيناً بعض دوائر الإخوان «كنا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان» 11

وأصدرنا في هذا الصدد كتاب «الإسلام والحركة النقابية» (ثلاث طبعات) فضلاً عن عدد كبير آخر من الكتب والرسائل . وفي كتابنا «الإسلام هو الحل» قلنا بعد أن قُيِّمنا ما يأتي به العمل السياسي والترشيح لمجلس الشعب . والقيود والمثبطات التي تكتنف الأداء ...

«لاشك في أن أسلوب العمل السياسي عن طريق مجلس الشعب - ضئيل الجدوى تافه الحصيلة وأن من الممكن أن يكون ستاراً لنوع من الديكتاتورية وأن من الضروري إما الانسحاب من المجلس والتركيز على العمل الشعبي .. أو اتخاذه أداة لتعزيز هذا العمل الشعبي وحمايته . وبدون ذلك يمكن أن تستمر الأغلبية في استخدام الأقلية لاعطاء حكمها طابعاً ديمقراطياً .. ولو أن هيئة مثل الإخوان المسلمين ركزت عملها في المجال النقابي لاستطاعت أن تزود الحركة النقابية بالأيديولوجية المطلوبة لانقاذ الحركة النقابية من الخواء الروحي ولضمت جيشاً جراراً يستطيع وحده أن يجعل الحكومة تصفى وتتجاوب وتقابل الإخوان في منتصف الطريق» .

وأخيراً فقد أصدرنا كتابنا «النقابات المهنية المصرية في معركة البقاء» الذي يعد «دستوراً» لحركة نقابية إسلامية ومعالم على طريق سيرها ..

وقد نجح الإخوان المسلمون نجاحاً مؤزراً في اختراق النقابات المهنية والسيطرة على معظم المراكز القيادية فيها . وكان انتصارهم في نقابة المحامين هو السبب المباشر الذي جعل الحكومة تصدر القانون ١٠٠ لسنة ١٩٩٣ الذي حاولت أن تعرقل به المضي الديمقراطي التقليدي للحركة النقابية بحجة «الأغلبية الصامتة» وأن القلة الإخوانية النشطة تحول دون ظهور هذه الأغلبية ..

والإدعاء متهافت . ففي كل النقابات تكون الأغلبية صامتة . وقد يكون صمتها تأييداً وإقراراً لقياداتها ومن الواضح أنه لا شيء يمكن أن يمنع أغلبية من أن تقرر ما تشاء مادامت أغلبية ومادامت تريد ..

ولم ينجح القانون فيما أراد وإن نجح في مضايقة القيادات النقابية وشغلها واستنزاف مواردها . فبعد إعلان اجراء الانتخابات طبقاً للقانون الذى سنته الحكومة نفسها وبعد أن تتخذ النقابة كافة الإجراءات من إعداد الأماكن وتجهيزها والإعلان فى الصحف ... إلخ ترجع اللجنة المشرفة على الانتخابات عن قرارها ربما قبل تاريخ الانتخابات بيوم واحد . بحجة أنها تفلت شكوى من عدم تقييد بعض الأعضاء .. ومن الواضح بالطبع أننا لانعدم فى نقابة تضم مائة ألف آحاداً تكتب مثل هذا الاعتراض بحق أو بدون حق وإذا سلمت اللجنة المشرفة على الانتخابات لادعاءاتهم فمعنى هذا أنها لاتريد عقد انتخابات على الإطلاق ! والحقيقة أنها حرب أعصاب واستنزاف للقيادة النقابية ..

ولانعرف ماذا فى حقبة الحكومة بعد أن أقفل القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ وبعد أن تذرعت القيادات النقابية بالصبر وضبط النفس إزاء تلاعب اللجان الانتخابية . ولكن يغلب أن لن تنجح الحكومة فى استبعاد أو اقتلاع التيار الإسلامى القوى فى النقابات المهنية إذ استطاعت هذه تكوين قواعد وكوادر ونظم فى معظم النقابات . كما أن جمهور الأعضاء قد لمس الفارق الكبير بين طهارة ذمة القيادات الإسلامية وبين الاستغلال الشنيع للموارد وصور الفساد والمحسوبية التى كانت فاشية فى النقابات قبل أن يتقلد الإخوان زمامها . ناهيك بما تبذله معظمها من نشاط خدمى يتمثل فى تسهيل بيع السلع المعمرة ورفع قيمة المعاشات وعقد المؤتمرات إلخ ..

ومع هذا فيظل الوجود الإخوانى فى النقابات المهنية مهدداً ما لم تواصل القيادات الإسلامية للنقابات المهنية الجهود لترسيخ نفسها فى النقابة بحيث يستعصى على الحكومة استبعادها . وقد ذكرنا فى كتاب «النقابات المهنية المصرية فى معركة البقاء السياسات والإجراءات ووجوه العمل والنشاط التى يكون عليها أن تسلكها .

الحال فى الحركة النقابية العمالية مختلف تماماً . فحتى الآن لم يستطع الاتجاه الإسلامى أن يجد له موطئ قدم ...

وهذا الوضع يعود إلى النقابات العمالية وإلى الإخوان المسلمين معاً ..

إن أحداً منهم ليس مستعداً لتلقى الآخر أو الترحيب به ...

النقابات العمالية تتحكم فيها عصابة من الرؤساء الذين اتقنوا اللعبة النقابية وتمرسوا بفنونها وهم يقودونها لأكثر من أربعين عاماً على أساس إدارة شللية تصطنع فيها قيادات النقابات العامة بعض رؤساء اللجان النقابية بحيث تتحقق الاستمرارية في القيادة النقابية ويدعمها في هذا أن القانون أعطى كل السلطات للنقابات العامة وجرّد اللجان النقابية وهي المنظمات القاعدية من الحقوق التي كانت منوطة بها من قبل . وهذه القيادات المحتكرة العقيمة التبيعة تجد مناصرة الحكومة التي لن تجد مثلهم في تبعيتهم الذليلة واستخذائهم الكامل واستعدادهم ليس فحسب لتطبيق سياستها بل وتقديم التصفيق والتهليل والختاف ..

وبالطبع فإن السلطة التي لم تنجح في استبعاد الإخوان من اتحادات الطلبة ومجالس هيئات التدريس والنقابات المهنية . ليست مستعدة للسماح لهم بدخول مجال جديد وحساس كالحركة النقابية العمالية . ومن ثم فإنها تساند هذه القيادات التبيعة في مقاومتها للتيار الإسلامي .

هذا بالنسبة للنقابات العمالية ..

أما بالنسبة للإخوان . فيبدو أن من العسير أن يتخلوا عن طبيعتهم «البرجوازية»^(١) التي يعسر عليها أن تسيغ العمل النقابي العمالي أو تتكيف مع مقتضياته . مع أن طبيعة «الطبقة العاملة» وأسلوبها أقرب إلى الإسلام من طبيعة البرجوازية وأسايلها .

(١) قد يظن البعض أن وجود الروح البرجوازية لدى الإخوان يتعارض مع ما أشرنا إليه في مقال «أنحوالى الإخوان» في هذا الكتاب من قيامهم على أساس شعبى وأنهم يمثلون قاعدة وقيادة - جماهير الشعب من فلاحين ، أو معلمى الزامى أو صغار المهنيين الخ .. وهذا اللبس يعود إلى أن الثمولى هو «الوعى» . فعالم يكن لدى المجموعات الشعبية «وعى طبقي» فإنها تتهاوى وتعرض العناصر الناهية للاستقطاب البرجوازى . وهذا هو ما حدث للإخوان وقد أشرنا إلى عدم وعى الإخوان أنفسهم بطبيعتهم الشعبية والجماهيرية بتأثير بعض المفاهيم الإسلامية المغلوطة . فالهم هو الوعى الطبقي . وهو ما ينقص الإخوان .

فالإسلام الذى لا يطل للبروتياريا ولا يستغل اسمها قد فضلها بالفعل على غيرها من فئات المجتمع عندما فضل الرسول من يعيش من عمل يده على غيره والنصوص فى هذا صريحة وواضحة فضلاً عن نصوص القرآن فى انصاف المستضعفين فى الأرض والضيق بالمترفين والحكام .

كما أن أسلوب «الاتفاقية الجماعية» أقرب إلى أسلوب الإسلام من العمل الفردى لأن الإسلام يفضل العمل الجماعى على الفردى . وقد فسرنا الآية ٢٨٢ من سورة البقرة تفسيراً «نقائياً» ليس فيه أى تعسف أو تطويع أو تكلف بحيث تكون الآية داعية للاتفاقيات الجماعية^(١) .

فضلاً عما فى الاتفاقية الجماعية من اجتماعات ومناقشات ومساهمات وشورى سواء ما بين العمال بعضهم بعضاً أو مع العمال من ناحية والإدارة من ناحية أخرى . وهذه كلها لإجراءات وأساليب بحث عليها الإسلام ..

فمن الناحية الإسلامية الخالصة كانت النقابات العمالية أولى بتجاوب الإخوان . علماً بأن قانون النقابات يسمح لكل المهنيين بالانضمام إلى النقابات العامة وإن تكون ٢٠٪ من مجالس إدارات المنظمات العمالية من المهنيين أى أن الطريق أمام الإسلاميين لدخول إنتخابات النقابات العمالية مكفول بالقانون انتخاباً وترشيحاً ..

ولكن الأمر هو كما قلنا «أمر مزاج ونفسية» ومستوى طبقى يضع المهنيين فوق اليدويين وينأى بالأولين عن الآخرين .. وهو أمر يفترض ألا يكون فى دعوة الإخوان التى تعلم جيداً أن المؤمنين عدوى يسعى بذمتهم أدناهم وتقوم العلاقات ما بين اعضائها على أساس «الحب فى الله» وما أشرنا إليه آنفاً من تفضيل الرسول للعمل اليدوى .

وإذا كنت أدعو الإخوان لدخول الحركة النقابية العمالية . فإن هذا يعود إلى الحرص على مصلحة الحركة العمالية من ناحية ومصلحة الإخوان أنفسهم من ناحية أخرى .

(١) أنظر كتابنا «الإسلام والحركة النقابية» ص ٧٨ إلى ٨٣ من الطبعة الثالثة .

لمصلحة الحركة النقابية العمالية . لأن الحركة النقابية لابد لها من دعم نظري أو عقيدى . وقد وجدت الحركة النقابية الأوروبية هذا الدعم فى الفكر الاشتراكى أو الماركسى . أما الحركة العمالية المصرية فليس لها أى غطاء أيديولوجى ليس لها أى نظرية تهديها وتوفر لها الإيمان وتحميها من الإغراء أو الانحراف وقد عاجلنا هذه النقطة فى رسالتنا فلماذا يجب أن يكون للحركة النقابية المصرية عقيدة .

بالإضافة إلى أن التنظيم النقابى القائم فاسد من الناحية التنظيمية لأنه لا يحقق مشاركة القواعد مع القيادات وبذلك يحرم الحركة النقابية من قوتها الحقيقية ويحول دون تحقيق الحرية والديمقراطية فيها .

من هنا يكون دخول الإخوان المسلمين للحركة النقابية عامل تجديد وانهاض واستكمال للجانب النظرى/ العقيدى . فضلاً عن الإصلاح التنظيمى الذى يجب أن يتبناه الإخوان . وهذا وذاك فى صميم مصلحة الحركة النقابية .

ومن ناحية الإخوان فلن يكون للإخوان قاعدة شعبية حقيقية مالم يكن لهم وجود فعال فى الحركة النقابية العمالية يحميها عندما يراود البطش بها .

وقد أظهر الصدام ما بين النقابات المهنية والحكومة حول القانون ١٠٠ لسنة ٩٣ أن النقابات المهنية رغم الحماسة المتقدة والإمكانات الوفيرة عجزت عن أن يكون لقومتها أثر شعبى يمكن أن يضغط على الحكومة ويحملها على تعديل القانون - إن لم يكن سحبه - وباءت كلها بالفشل فى النهاية . ولو رزقت تأييد الحركة النقابية العمالية لاختلف الموقف . من هنا لا يعد الوجود الإخوانى فى النقابات المهنية وحده حامياً كافياً ...

القضية الحقيقية هى أن يؤمن الإخوان بجوهر النقابية العمالية وهى مشتقة من أصول الإسلام . وأن يتقنوا أنفسهم ثقافة نقابية عمالية وأن يتخلصوا من النزعات الفردية والفئوية والبرجوازية التى تتحكم فيهم بدرجات متفاوتة وأن يتخلصوا من فهمهم الشعائرى الطقوسى للإسلام . وأن يمنحوا الأولوية للعمل .

إننا لانريد أن ننقد الحركة النقاية العمالية من الوصوليين والانتهازيين الذين استغلوها لنحل محلهم الطقوسيين والشكليين الذين لا يعرفون شيئاً عن الحركة النقاية .

لابد للإخوان أن يفهموا أن زيادة الأجور وتقصير ساعات العمل وكفالة الكرامة للعامل هي من الأصول الكبرى للإسلام وأنها قربات إلى الله تعدل أو تفضل العبادات والصلوات ... الخ .

إذا كان لدى الإخوان مثل هذا الفهم . فإن دخولهم النقابات العمالية سيكون خيراً وبركة وسيحقق الإصلاح المنشود للحركة النقاية وللإخوان أنفسهم .. فإذا لم يكن لديهم فمّن الخير لهم أن يظلوا في قوقعتهم دون القيام بتجارب فاشلة .

في معظم الحالات يغلب على اليأس من أن يتمكن الإخوان من فهم هذا الكلام والقيام به ومع هذا فمن يراجع لائحة النظام الأساسي للإخوان سنة ٢٨ بلائحتها سنة ٤٨ يلمس الفرق الكبير بين جماعة صوفية تربوية وبين هيئة تجعل الإسلام منهجاً للحياة .. فليس هناك ما يمنع من أن يهديها الله لتقوم بهذا التجديد الذي سينهض بهم وبالحركة النقاية : عمالية ومهنية ...

ولن نتوقف عن الدعوة .. واستحثات أهم .

لقد قمنا بدورنا الميداني والتنظيمي في الخمسينات ولا يمكن - ولا يجوز - أن نقوم به الآن فهذا هو مجال جيل التسعينات وعليه أن يعمل ويكافح ويناور ويداور وينظم ويدير .. وعلينا أن نزوده بالخبرات والتجارب والثقافات والمهارات التي تكفل له النجاح والتوفيق .

ومن الطبيعي أن توجد عناصر هذا الجيل في إطار الإخوان المسلمين إذا ألما بما قدمناه .. فإذا لم يفعلوا فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (المادة ٥٤) .

بعض الخطوط التي تحكم ظاهرة « الصحوة الإسلامية »

مضى قرابة قرن ونصف منذ أن بدأت اليقظة الإسلامية على صوت جمال الدين الأفغانى ، الذى اسمع العالم الإسلامى من مشرقه إلى غربه بادئا مرحلة الانتقال الفكرى والمخاض ، دون أن يظهر الوليد المنشود ، فإن عوامل جديدة وقوى جديدة أخرت الميلاد وأصبحت تهدد باجهاضه ، وهو ما يتطلب من المفكرين الإسلاميين مزيدا من العناية ، فليس شرطاً أن تمر الأمور هوناً ، أو أن يبلغ الأمل محله ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

وشاهد الحال تحذرنا ، فالمعسكر الإسلامى رغم ظواهر « الصحوة » لا يزال متخلفا متقهقراً أمام عالم العصر الحديث ، عاجزاً عن مجابهة تحدياته بحلول صريحة واضحة تقف على قدم المساواة أمام هذه التحديات بحيث تلزمها الحجة ، إن لم تثبت أفضليتها ، والدول الإسلامية على اختلاف مذهبياتها الإسلامية متقاطعة متخاصمة .. مزقتها تيارات السياسة ولم تجمعها وحدة الفكر ، بينما تظهر قوى جديدة فى العالم الأوروبى تحتاز مساحات واسعة من المعسكر الإسلامى ، وتتقص من أطرافه فى أندونيسيا وبنجلاديش والقدس حتى أصبحت طرقات الأعداء يمكن أن تسمع على أبواب الديار المقدسة وصميم العالم الإسلامى .

في هذه الملاحظات ستعرض لأبرز الخطوط التي تحكم ظاهرة «الصحة الإسلامية» إيجاباً وسلباً ، فهناك عناصر قوة تدفعها وتدعمها كما توجد عناصر ضعف تعوقها وتؤخرها ، وبقدر انتصار عناصر القوة على عناصر الضعف تكون قدرة الصحة الإسلامية على أن تتحول إلى نهضة . وإذا انتصرت عوامل الضعف فستتحول الصحة إلى نكسة وإغفاءة أخرى طويلة وبقدر ما نقول بالنسبة لهذا الاحتمال الأخير «لا قدر الله» بقدر ما يكون علينا أن نعمل لتجنبه «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وفيما يلي عرض موجز كما لو كان موازنة حسابية لعناصر القوة والضعف ومحاولة لاستقراء النتائج والاحتمالات .

أولاً : عناصر القوة :

أ - في الناحية الأيدلوجية :

في قضية كالصحة الإسلامية لا يجوز لنا أن نضائل من أهمية العوامل الأيدلوجية ، بل اننا لا نبالغ إذا وضعناها في الصدارة ، ومنحناها الأولوية ، لأنها بلغة العصر تمثل «النظرية» التي لا يكون التطبيق بدونها الا ارجاليا وعشوائياً . إن النظرية تضع الطريق السوي الذي يجب أن تسلكه الصحة حتى لا تتخبط ، وتذهب بهذا الأهواء والمطامع والاجتهادات والمؤامرات الوقتية .

وليس من اليسر أن نجد «نظرية» محكمة لأنها قمة الفكر ونهاية المطاف ، أن الماركسية التي جذبت ازكى العقول الأوروبية وكانت محورا للدراسة لمدة مائة عام .. لم تثبت أمام التطبيق وكشفت سبعون عاماً فحسب عن المآخذ الجسيمة فيها ..

ومن حسن حظ الصحة الإسلامية أن عناصر قوتها تتجلى في هذه الناحية الأيدلوجية التي تمثل «الثوابت» وإن كانت عناصر الضعف - كما سنرى - اهدرت - ولو لحين هذه الأهمية .

وأهم عناصر القوة في الناحية الأيدولوجية هي :

أ - وجود القرآن الكريم ان القرآن هو أعظم ذخرك للصحة الإسلامية لأنه العامل الوحيد الذي يجمع مزايا وخصائص لا يمكن أن توجد في غيره فهو حامى الوحدة اللغوية والفكرية .

وقد حفظ اللغة العربية القياسية من أن تتأثر باللغات الاقليمية وتمزقها . ثم هو الإطار الأعظم للعقيدة والشرعة التي تجمع عليها المسلمون قاطعية وأخيراً فإنه بأسلوبه للمعجز وإيقاعه المؤثر ومعانيه السامية وأحكامه المثلى لا يزال النبع الذي لا يفيض أو ينضب للإيمان الإسلامى . وهو يلهم الإيمان اليوم بالقوة نفسها التي كان يلهم بها الإيمان من أربعة عشر قرناً .. بل إن العصر الحديث يكشف كل يوم أدلة على إحكام القرآن واعجازه تزيد الإيمان به ..

ومن النادر أن نجد أمه فيها مثل هذا القرآن والمثال الوحيد - مع الفارق الجسيم - هو بنى اسرائيل الذين أطلق عليهم القرآن «أهل الكتاب» والذين استطاعوا ، بفضل هذا الكتاب ورغم كل ما لحقه من تحريف وتزييف - أن يتناسكوا وأن يصبح العامل الوحيد الذي يجمع .. وسط عشرات العوامل التي تفرق .

إن القرآن الكريم كان - وسيظل - أعظم رأس مال الدعوة الإسلامية وصحوتها .

ب - شخصية الرسول (سيدنا محمد ﷺ) .

إن هذه الشخصية الفريدة لا تزال منذ ظهورها حتى الآن وهى تبلور وتجسد الشخصية الإسلامية (كان خلقه القرآن) وأقل ما يقال عنها إنها بالنسبة للمسلمين جميعاً كالملك أو (الملكة) بالنسبة للكومنولث البريطانى ، عنصر يربط كل شعوب الكومنولث برباط ولاء يعود إلى جذور تاريخية ودون أن يتضمن عنصراً من عناصر القسر والالزام . وهو مجرد مثال تقرب جانب واحد من جوانب شخصية محمد ، ونحن نورده ، كما أورد القرآن الكريم المثل لنور الله كمشكاة فيها مصباح .. أو لقدرته بذهابه وبعوده .. لأن الولاء لمحمد لا مثيل له في التاريخ في ناحيتى العمق والمدى على سواء ..

ولما كان الرسول يمثل القيادة - الإنسان - الذات ... فان هذا يكمل للإسلام شقيه وتتضح الحكمة في ثنائية التشهد الإسلامي «أشهد أن لا إله إلا الله .. وان محمداً رسول الله» .

وقد تزيد آثار شخصية محمد لأن الرسول قام بجزء كبير من التشريع لأن القرآن بطبيعته وصياغته ونظمه لم يشر إلا إلى الكليات وترك تحديد التفاصيل للرسول . ومن هنا أصبحت السنة مكحلة للقرآن .

ويتفق هذان العنصران من عناصر القوة الأيديولوجية في أنهما محل التسليم من المسلمين كافة . فلا يمارى مسلم في قداسة القرآن ، وإنه كلام الله وصل إلينا كاملاً غير منقوص أو محرف ولا يمارى مسلم في أن محمداً قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة وضرب المثل الأعلى للقائد والزعيم وأن شخصيته كرسول ومشرع وقائد ورجل دولة الخ .. فاقت أى شخصية أخرى في العالم الأوروى قد بدأ العالم الأوروى يعترف بهذا مع انكشاف المؤامرة الصليبية على شخصية النبي . ولم يكن عبثاً أن يضعه كاتب أمريكي على رأس مائة شخص أثروا في تاريخ البشرية .

ج - التراث الحضارى :

إن الفترة التى تلت العهد النبوى مباشرة أى الخلافة الراشدة تمثل تراثاً حضارياً ، وتقدم حلاً إسلامياً للمشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى جابهت الإسلام عندما خرج من مجتمع المدينة المغلق والمحدود إلى آفاق الامبراطورية المنفسحة والمفتوحة ويمكن أن تعد من باب «السوابق الدستورية» المهمة للمجتمع الإسلامى .

فإذا كانت عبقرية الخلافة الراشدة قد وقفت في نهاية هذه الخلافة - بعد قرابة ثلاثين عاماً - فإن المجتمع الإسلامى - حتى في أظلم عهوده - لم يخل من الشخصيات المضيئة التى قامت بدورها وقدمت اضافتها الخاصة ليس فحسب في مجال الحكم والسياسة ولكن أيضاً في مجال العلوم والفنون .

وهذا هو ما نسميه «التراث الحضارى» وهو يمثل الامتداد التاريخى السليم ويمكن أن يلهم الصحوة الإسلامية الشىء الكثير ..

على أنه من المهم أن نميز بين شقين في هذا التراث :
الأول : يمثل الإبداع وهو ما نجده في تراث الخلافة الراشدة .. وعباقره الفقهاء
والعلماء المسلمين ..

الثاني : وهو ما يمثل الاتباع والتقليد الذي بدأ مع اغلاق باب الاجتهاد والعكوف
على الفروع والجزئيات وهذا الشق ليس له أهمية الشق الأول . وفي كثير من الحالات
تنتفى منه كل آثار الابداع أو الإضافة ويكون استلهامه مضللاً ، لأنه يعنى بالفروع
والتفاصيل ، وليس بالكليات والأصول ، لأنه كتب بأقلام «مدرسين» في ظروف
وملايسات ومناخ لم تكن هي المثل دائماً .

من هذا العرض لعناصر القوة في الناحية الأيدلوجية نجد أن الصحوة
الإسلامية يتوفر لها كل مقومات وأركان النهضة فلديها كتاب يرمز لوحدها
ويضم نظريتها ودستورها وعقيدتها وشريعتها . ولديها الشخصية القيادية
الملهمة «الأسوة» التي أدت دور القائد والزعيم أداء لم يسبق ووضع ما
ينبغي أن يكون عليه القائد إيجاباً وسلباً ، أى ما يجب أن يقوم به وما يجب
أن يتنزه عنه ثم لديها تراث حضارى أدبى وعلمى ويمكن أن يسهم في
حل المشكلة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

ولا يخالفنا شك في أن الصحوة الإسلامية من هذه الناحية أفضل من أى
«حركة» أخرى . ويمكن لها - من هذا المنطلق ، ليس فحسب أن تتحول
إلى نهضة ولكن أيضاً أن تقوم بدور في انقاذ البشرية المعاصرة الضالة .

ب - في الناحية المادية :

لا ريب في أهمية الناحية المادية ، وقد يكون حقاً ما يقولونه عن أن المال (عصب
الحياة) ولكننا مع هذا نريد أن نوجه الأنظار إلى عدد من الحقائق :-

أ - أن رأس المال ماهر إلا عمل ميلور والعمل بدوره ثمرة للفكر سواء كان

عقيدة أم علم فالإيمان مثلا ليس لديها مواد أولية أو قوى محرركة وهى تستوردها بأغلى الأثمان وقد خرجت من الحروب العالمية الثانية مدمرة ولكنها استطاعت أن تصبح بعد أربعين عاما أقوى دولة صناعية لأن التراث الحضارى اليابانى يقدس العلم والعمل وفى مقابل هذا نجد فى السودان مساحات شاسعة من الأراضي الصالحة للزراعة والتي تروى بالأمطار ومع هذا لا يستطيع السودان أن يسد حاجات العدد المحدود من سكانه ويعمل باستيراد القمح وغيره من المنتجات الزراعية لأن السودان كبقية الدول العربية وكما سيلي لم يفهم من الإسلام وهو تراثه الحضارى إلا جانبى العبادى^(١) .

ب - أن الثورات يمكن أن تكون أعظم (الصفقات الاقتصادية) ويمكن أن تدفع الاقتصاد دفعا إلى الأمام وتستأصل كل المعوقات فى طريقها .

ج - ان الثروة المادية الضخمة وان كانت بلاشك تمثل قوة ضخمة إلا أنها عادة ما تصطبغ بسوء الاستخدام وسوء التوزيع بحيث قد تفضلها ثروة معقولة لا تصطبغ بسوء الاستخدام أو سفاهة التوزيع . وإذا كانت موارد الدول الإسلامية تعجز عن تحقيق الوفرة فإن العدالة الإسلامية يمكن أن تمحو الفاقة .

ومع هذا كله فقد أنعم الله تعالى على الدول الإسلامية وجعل فى بلادها ثروات عديدة وفجر البترول خلالها تفجيراً بحيث أصبحت بعض دوله من أغنى دول العالم .

ثانياً - عناصر الضعف :

أ - الناحية الأيديولوجية :

١ - القصور فى فهم الإسلام .

بعد عشرة قرون من التقليد تفوق الفكر الإسلامى فى عدد محدود من المذاهب التى عُتيت بفروع الفقه وشكلياته وابتعد عن النظر فى القرآن مكتفياً بما قاله الشراح وغطت طبقات بعد طبقات أساسيات وجوهرات الإسلام وروحه ورسائله بحيث أصبح مدلول الإسلام هو المذهب بملذبه معين واتباع شكليات معينة كالصلاة والصوم والحج تبعاً لشرح المذهب .

(١) كتب هذا البحث منذ قرابه عشر سنوات وقبل التطورات الأخيرة فى السودان .

ومن الواضح أن الإسلام لم يكتسح العالم القديم ويتنصر على الفرس والروم لأنه يقرر شكلاً معيناً في الركوع والسجود أو الحج والطواف .. الخ وأما انتصر لأنه كان قوة تغيير كبرى وثورة على المجتمع القديم الذي كان يقوم على شرعة التمييز والطبقية والاستغلال وعبادة الطاغوت . كان الإسلام يحمل رسالة العلم والعدل والمساواة والحرية (الكتاب والميزان) وكان يستأصل بالسيف كل من يرفض ذلك أو يتمسك بالأوضاع الاستغلالية والتحكمية والطبقية .

ومعنى هذا أن حيوية الإسلام وانتصاره الأول إنما يعود إلى أنه دعوة لتحقيق الحياة الكريمة والمجتمع العادل وتحطيم الوثنيات وإحلال العلم والحرية والمساواة والعدالة محلها .

ولكن الفكر الإسلامى طوال القرون العشرة الأخيرة تجاهل هذا واقتصر فهمه للإسلام على أنه صورة معينة للعبادة .

صحيح إن العبادة مقوم هام من مقومات الإسلام . ولكن كل الأديان لها عبادات والجديد الذى جاء به الإسلام وميزه على الأديان الأخرى أنه لم يقتصر على العبادة ولكنه عالج بقوة ووضوح القضية الاجتماعية ووضع لها الحلول والخطوط الرئيسية فأوجب فى السياسة مقاومة الاستبداد والطغيان وتأليه الحكام وجعل البيعة والشورى من أركان النظام السياسى للإسلام وفى الاقتصاد أوجب التكافل الاقتصادى وفرض الزكاة وجعل لها مصارفها باعتبارها حق معلوم وحرم الربا والاكتمار وكل صور الاستغلال . وفى النظام الاجتماعى حرر المرأة واسقط كل صور التمييز الطبقي التى كانت تحكم العالم القديم من نسب أو لون أو جنس وحث على الثقافة والمعرفة والتفكير والتدبير وأوجب العمل وندد بالذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون .

والإسلام يضع هذا الجانب الاجتماعى والسياسى والإقتصادى فى منزلة العبادة نفسها ولا يفرق بينهما . ومن هنا نفهم (ثنائيات القرآن) فهو لا يذكر الصلاة إلا ويقرنها بالزكاة ولا يشير إلى الذى آمنوا إلا ويقرنهم وعملوا الصالحات . والربا ظلم عظيم والظلم شرك وعبادة الملوك والحكام وثنية .

هذا الجانب هو سر حيوية الإسلام لأن المجتمع لا ينهض إلا به وإذا أهمل فقد تؤدي كل صور العبادات من صلاة أو صوم أو حج ويسود مع هذا الظلم والجهل والفاقة في المجتمع الإسلامي . كما هو حادث فعلا وقد تقبل الذين يقصرون الإسلام على العبادات هذا الوضع وهذه هي مأساة الفكر الإسلامي . وقد يصور هذا الفهم وتغلغه أنه عندما نادت إحدى الهيئات الإسلامية بأن يكون الإسلام ديناً ودنيا مصحفاً وسيقاً .. الخ فإن كثيراً من اتباع هذه ادعوة نفسها لم يفهموا من هذا إلا أن الدولة الإسلامية هي الدولة التي تفرض العبادات وتوجيها على الناس بردع السلطان وقانون العقوبات .

ولو ألقينا نظرة على الصحافة الإسلامية لوجدنا أنها في الوقت الذي يتحكم الاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي وتنتشر الفاقة والحاجة وتعمد المشكلات فإنها لا تشير إلى شيء من هذا كأنها في عالم آخر وتملأ كل صفحاتها بالأحاديث عن الوضوء والصلاة وأركان الحج .. الخ :

٢ - العجز عن التوصل إلى صياغة (للمبادئ الإسلامية) تثبت وجودها أمام تحديات العصر ، وهذا العجز مرتبط بالخطأ في فهم الإسلام ، هذا الخطأ الذي حصر الإسلام في العبادة وأبعده عن الحياة والمجتمع والقضايا العامة والأخذ بأسلوب النقل والتأبع والتقليد وليس إعمال الفكر والتفكير والتحصيل . فلما جوبه الفكر الإسلامي بالعصر الحديث لم يستطع أن يتعامل معه لأنه يعيش في عالم يعود إلى عشرة قرون خلت . وما مثل علماء المسلمين اليوم إلا كأهل الكهف الذين ناموا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ثم بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ، وورقهم لا يصلح للتعامل .

وهكذا ظلت مجالات عديدة شاغرة من الحل الإسلامي ولم يتقدم المفكرون الإسلاميون إلا بصور ساذجة من الحلول لا تتلاءم مع عمق وتعقيد المشاكل سواء كان ذلك في السياسة أو الاجتماع أو الفنون أو الآداب أو الاقتصاد أو العلاقات ما بين العمال وأصحاب الأعمال أو الصحافة أو المرأة .. الخ .

في هذه المجالات كلها قد نجد الرفض وقد نجد التجاهل وقد نجد الحلول الساذجة

أو الحافظة نتيجة لاستلهاهم آراء وضعها الفقهاء منذ عدة قرون وفي ظروف وملابسات تختلف تماماً .

وليس هذا ذنب الإسلام .. فالقرآن الكريم قد أرسى الأسس والمبادئ التي يمكن أن تصلح أساساً لتأصيل الرأي من إعمال الفكر وابتغاء الحكمة أياً كانت وعدم الاعتداد بما فرره بالآباء والأجداد . بل إن الاقتباس نفسه مبدأ إسلامي وإذا كان الشيء المقتبس حسناً فنحن أولى به وقد قال النبي ﷺ عن موسى (نحن أولى به منهم) فليس هناك حساسية يمكن أن يستشعرها الإسلام نحو الجديد مادام هذا الجديد يمكن أن يدخل في إطار الأصول الإسلامية العامة وفي سبيل تقبل الأفضل والأحسن أجاز الحديث لمن حلف على عيّن فرأى غيراً منها أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الذي هو خير (مسلم) .

٣ - ضعف الهيئات الإسلامية :

كان لابد أن تصاب الهيئات الإسلامية بالوهن نتيجة للعاملين السابقين وعندما رزقت الدعوة الإسلامية قادة اكفاء أو ظروفًا مواتية فإنها لم تترك إلا قليلاً وضربت عندما حانت الفرصة . وقد ضربت الدعوة الإسلامية في اندونيسيا ومصر ونيجيريا وغيرها كما قيدت أو استقطبت في دول أخرى . وكان من أبرز ما رزقت به الهيئات الإسلامية عدم وجود القادة الأكفاء بحيث أصبحت هذه الهيئات (جيوشاً بدون جنرالات) وظهرت صور من انقلاط العيار وغلبة الجموح والتشدد على مجموعات عديدة من شباب الهيئات الإسلامية .

ويجب ألا نخدع بما نسمع عن انتصارات للدعوة الإسلامية فإنها فلتات وأنها لاتعد شيئاً أمام التقدم المستمر والمنتظم للهيئات الأخرى مدنية أو تبشيرية .

٤ - مقاومة النظم الحاكمة :

الحقيقة التي تفرض نفسها على كل مفكر أمين ولا مفر من الاعتراف بها هي أن المنطقة الإسلامية تحكم بنظم ليست هي أمثل النظم أو أقربها إلى الإسلام وإنما على

اختلاف مواقعها وسواء كانت قلبية أو عسكرية فإنها أولاً وقبل كل شيء نظم حاكمة يهيمنها بالدرجة الأولى الحكم وما يتبعه من سلطات ولما كان الإسلام أقوى منها جميعها . فإن فكرة مقاومته أو التنكر له صراحة مستبعدة تماماً من كل هذه النظم ولكن هذا لا ينفي أن لكل منها وسائله الخاصة لكبت المد الإسلامي حتى لا يضر أوضاعها ومصالحها فبعض النظم تحاول احتواء هذه الدعوات واستقطابها والابقاء عليها في حدود الأمان والبعض الآخر يكشف المعنى العبادي ويركز الاهتمام عليه يلفت الانتباه عن الجوانب الأخرى من حريات أو عدالة والبعض الثالث يمتص الوعي والحماسة بمختلف الوسائل أو الادعاءات .

وقد تكون الوعود والاستحسان وسيلة لامتناع الأهتمام كما هو حادث بالنسبة لتطبيق الشريعة الإسلامية^(١) فإن المسؤولين يبدون اهتمامهم الكبير واستحسانهم المطلق ولكن دون أن يعملوا شيئاً أو لعلهم يعملون في وضع المعوقات والأشواك في طريق التطبيق .

يعطيك من طرف اللسان حلوة .. ويروغ منك كما يروغ الثعلب ...

أما الوسائل البوليسية فإنها آخر المطاف ولكنها موجودة دائماً ويلاذ بها سرا أو جهراً . وقد أصبح الاعتقال والتعذيب أمراً مألوفاً ومقرراً لدى معظم نظم الأمن الإسلامية والعربية .

٥ - معارضة المصالح المكتسبة :

على امتداد قرن تقريباً استطاع الاستعمار أن يغرس أصول الحياة الليبرالية الحديثة .. وقامت مؤسسات عديدة على أساسها ، وأصبح لها مصلحة في حماية هذا الوضع .. فكل دور الملامى والمراقص والحانات وكل مصانع الخمر ووسائل التجميل وحلبات الرقص وكل البئوك والمنشآت المالية التي تقوم على الفائدة وتمارس صوراً من الاستثمار والنشاط الاقتصادي المحرم ونقابات العمال المخدوعة والمضللة

(١) كما كان الحال في مصر في الثلاثينات .

والصحافة التي تظن أن الفكر الإسلامية ضد حرية الرأي والأحزاب التي استمرت «قضية الحكم» وأجهزة الإعلام وهيئات الرياضة ... إلخ كل هذه الهيئات والمؤسسات تعارض - بدرجات متفاوتة الفكر الإسلامي ، بعضها لأن نشاطها بالفعل يخالف بعض الأصول الإسلامية ولكن الأكثرية لأنها مضللة أو لأن الذين يتحدثون باسم الفكر الإسلامي يقدمونه في صورة مشوهة .

احتكار المؤسسة الدينية :

يوجد في العالم الإسلامي مؤسسات دينية تعد كل واحدة نفسها المسؤولة عن الإسلام ، ففي السعودية مثلاً نجد هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهيئة البحوث والدعوة والإرشاد والاقتناء . وجامعات عديدة تتفق عليها الدولة وتدير شؤونها . وفي مصر الأزهر وكتلياته ووزارة الأوقاف . وفي إيران نجد «الحوزات» العلمية والمراجع و «آيات الله» ..

وفي كل حالة من هذه الحالات ، فإن المؤسسة الدينية تظفر وحدها بمؤازرة الدولة ، بينما تثبط وتحارب أي اتجاه آخر . ومن ناحيتها فإن المؤسسة الدينية ترى أن الدعوة هي وظيفتها وأن تفسير القرآن وتأويل الأحاديث ومعالجة القضية كلها يجب أن تكون حكراً لها . ولا يجوز لآخر أن يتدخل فيها ، وحجتها أنها الهيئة المسؤولة التي يتوفر لها مالا يتوفر لغيرها من المعرفة الفنية والأحكام النظرية . وفي كثير من الحالات تترس الدولة وراءها أو تتمحك فيها أو تزجى لها الثناء (كالحديث المعاد عن الأزهر) . وقد تدفعها لمناصرة رأيها ومعارضة مخالفها أو تغريها بمصادرة كتاب إلخ .. وعادة ما تحاول المؤسسة الإسلامية أن تنأى بنفسها عن هذا ولكنها قد تعجز عن المقاومة وتهد نفسها منساقاً مع النظام الحاكم .

ظهور شرازم التطرف :

ظهرت الشرازم المتطرفة أول مرة في السجن الحراني بمدينة نصر في الحقيبة الناصرية وكرد فعل لوحشية سجنائه وجلاديه وما اقترفوه من جرائم منكرة جعلت بعض الشباب يرون أن الدين يمارسون هذه الممارسات ليسوا من الإسلام في شيء ،

ولأنهم إلى الكفر أقرب . وكانت أولها هي جماعة شكري مصطفى التي أطلق عليها «التكفير والهجرة» .

وقد حاول الأخوان أن يقتنوا هذه الشرازم بخطأ تكييفها أو أسلوبها . ولكنهم عجزوا .. وفشلوا أمام اجرام النظام ..

وهذا هو التصوير الحقيقي والواقعي لظهور تلك الشرازم الشاردة ، العنيفة ، التي لجأت إلى الإرهاب ، أما العودة بها إلى ما قبل ذلك فإنه تعسف للحقيقة ..

وقد ظهر وتفشى أخيراً الفساد ، بينما ظلت قوى الضغط على الشعب وحكمه حكماً بوليسياً وبأغلبية مزيفة .. تزود هذه المجموعات بدافع جديد ، إذ لم يعد أمامها قناة لإعلان رأيها أو الإصلاح بطرق مشروعة .

والتطرف والشطط ظاهرة معروفة في مثل هذه الملايسات وقد حدثت في معظم الدول بصور متفاوتة وحتى الآن فإن سجل «النهليست» في روسيا القيصرية يعد أضخم سجل للتطرف السياسي شهده العالم واستهدف تمطيم الحكم القيصرى وراح ضحيته مئات من الشبان والشابات .. فهو فكر لا يعد أصيلاً إلا لدى القلة التي هي مهينة بحكم طبيعتها له .. ولكنه «كظاهرة اجتماعية» يعود إلى ظروف استثنائية ويرتبط بعلاج أو الحكم عليه .. بهذه الظروف نفسها - لأنه حتى عندما يشط أو يخطأ أو يجاوز الحدود فإنه يعتمد على مبدأ الاستثناء والضرورة التي تبيح المحظورات ولو لم توجد الضرورة لما أسيحت المحظورات .

ولا علاج لظاهرة التطرف والإرهاب ما ظل الفساد فاشياً ، والحكم بوليسياً والحريات مكبلة بالأغلال .

إن الحل الوحيد هو الحرية .. وما ظلت النظم الحاكمة تأبأها على شعوبها ، فليها أن تدفع الثمن ..

خاتمة :

مع أن هذا العرض لعناصر القوة والضعف في الصحوة الإسلامية قد يعلى عناصر الضعف ومقاومة الصحوة على عناصر القوة فيها ، فتظل الحقيقة الأساسية أن عناصر القوة هي في الثوابت : الله والرسول الذي يمثل النظرية والتطبيق مما يفسح المجال لإمكان انتصار الصحوة إذا استطاعت توظيف رأسمالها توظيفا حسنا ، يجعلها تنصرف على عناصر المقاومة التي هي كلها «عارضة» .

والأرض لله يورثها عباده «الصالحين» .

رأى الإخوان المسلمين فك الوحدة العربية

فى ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ أرسل مكتب المرشد العام مذكرة هامة الى رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية، تضمنت رأى الإخوان المسلمين فى قضية الوحدة العربية .

ولمناسبة مرور خمسين عاماً على تاريخ هذه المذكرة . وللأهمية الكبرى لموضوعها رأينا أن نثبتها هنا ، ونجعلها خاتمة مباحث هذا الكتاب .

وكما سرى القارىء بأن هذه المذكرة الهامة - والتي تكاد تكون مجهولة - تثبت أن الإخوان المسلمين يناصرون بقوة وحدة الأمة العربية ويؤدون بشده كل بعناية الاستقلال التى كانت لاتزال غير محققة - (قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل قيام جامعة الدول العربية) - وهى تقضى قضاء مبرماً على فكره التعارض ما بين الوحدة العربية والدعوة الإسلامية . فالوحدة العربية هى القلب من وحدة أكبر منها هى الوحدة الإسلامية ، التى بدورها يمكن أن تدخل فى دائرة أكبر هى العالمية ..

ونقطع بأن هذه الوثيقة هى من قلم الإمام الشهيد حسن البنا يوحى بذلك الأسلوب السهل السائغ . والمعانى المؤثرة ، والنظرة المتحررة من الرواسب والأفق

الواسع وتفادى الموضوعات الشائكة التي تثير الخلاف وقد صدرت الوثيقة بعد من
«مكتب المرشد العام» .

ولم ترد الإشارة الى هذه الوثيقة فيما بين يدينا من كتابات عن الاخوان ، ولم يرد
لها ذكر في كتاب الاستاذ محمد عبد الحليم وهو أشمل ما كتب عن الإخوان ، رغم
أنه تحدث طويلاً عن ملائسات تكوين الجامعة العربية ..
وفيما يلي نص هذه الوثيقة .

حضرات السادة الفضلاء رئيس وأعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية .
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد .

ففى هذه الساعات التاريخية الفاصلة فى مستقبل الأمم والشعوب عامة والأمة
العربية خاصة ، قدر لكم أن تعقدوا اجتماعكم هذا وأن تضطلعوا بأجل مهمة فى تاريخ
العالم العربى الحديث يتطلع الى جهودكم فيها مائة مليون عربى من أقصى العراق الى
أقصى المغرب ومن ورائهم ثلثائة مليون مسلم «والإسلام عروبة بعد العروبة» والجميع
يرقبون بلهفة وشوق وأمل عظيم ما تقرررون ويتظرون منكم ، وضوح المؤمنين ، وعزائم
المجاهدين، وصلابة الدين لا يخافون فى الحق لومة لائم ، ويسعدهم أن يفتلوا حقوقهم بأنفسهم
وأولادهم ودمائهم وأموالهم . فلا تمنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ، والله معكم ولن يتركم .

وأنى باسم الإخوان المسلمين فى أنحاء المملكة المصرية ، وفى بلدان العالم العربى
والإسلامى المختلفة ، ارفع إليكم أطيب التهنيات وأجمل التحيات سائلاً الله تبارك وتعالى
أن يبارك عملكم وأن يرفع العقبات من طريقكم ، وأن يهيئ لكم الخير أمتكم وبلادكم
أنه نعم المولى ونعم النصير .

أيها السادة الفضلاء :

أنكم لتدافعون عن أعدل وأنجح وأوضح قضية فى التاريخ . فمن البديهيات التى
لا تقبل الجدل (أن العرب أمة واحدة) وأن هذا التعبير لا يساوى فى أحقيته ووضوحه
واستقراره فى النفوس والأذهان قول القائلين «السماء فوقنا والأرض تحتنا» فقد
اصطلحت على تكوين هذه الوحدة العربية وتدعيمها كل العوامل الروحية واللغوية

والجغرافية والتاريخية والمصلحية وأن العرب من خليج فارس الى المحيط الأطلسي ليتحدون بوحدةهم أية أمة متحدة في القديم والحديث وليست تعوز هذه القضية الأدلة والبراهين . ولكنها يعوزها ثبات المؤمنين وعدالة المتصفين . فإذا حققتم في أنفسكم الأولى ، وهو المهد بكم وحقق حلفاؤكم الثانية وهو الظن بهم فقد عاد الحق الى أهله ووضعت الأمور في نصابها ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

أيها السادة الفضلاء :

إن بين يدي مؤتمركم ولجنتكم أموراً كثيرة أنتم مطالبون بدراستها وتمحيصها ، وأهدافاً كثيرة أنتم مطالبون كذلك بتحقيقها والوصول إليها وأن من الخير للقضية العامة أن تصارحوا الشعوب والهيئات بما بين أيديكم ، لتكون لكم مدداً وعوناً ، وأن تصارحكم الشعوب والهيئات بما ترى ، ليكون ذلك مكاشفة ونصحاً ، ولهذا اتقدم إليكم باسم الإخوان المسلمين بهذه الخواطر ، راجياً أن تكون بذلك قد أدينا بعض الواجب ، وساهمنا في هذا الجهاد المبرور .

ومن تلك الأهداف :

أ - تحقيق مظاهر الوحدة العامة .

فهناك خطوات أولية تعتبر وسائل عملية للوحدة المنشودة وهي في الوقت نفسه من حق الحكومات العربية الخالص التي لا ينازعها فيه منازع ومن تلك الخطوات :

١ - رفع الحواجز الجمركية .

٢ - إلغاء جوازات السفر ومنع حرية المرور والتنقل في أي قطر من الأقطار العربية لكل عربي بعد التأكد من شخصيته وإباحة الهجرة والاستيطان على نظام واسع ميسر .

٣ - التوسع في التعاون الاقتصادي وتأليف الشركات العربية الواسعة النطاق من سكان البلاد العربية جميعاً في أي قطر من هذه الأقطار ودراسة المشروعات العربية العامة دراسة مشتركة وإحياء ماتعطل منها كمشروع سكة الحديد الحجازية التي انشئت بأموال العرب والمسلمين جميعاً وأوقفهم .

٤ - تنمية التعاون الثقافي والتشريعي والعسكري بتوحيد برامج التعليم ومناهجه وتوحيد منابع التشريع وقواعده ، وتوحيد نظم التدريب العسكري وأساليبه ، ومؤتمر الوحدة العربية مطالب من العرب جميعاً بأن يعمل على تقرير هذه الخطوات ورسم الخطط الموصلة الى تحقيقها وجميع الحكومات والشعوب العربية عليها .

ب - تحقيق الأمان القومية ومساعدة الأمم الناشئة على نيل استقلالها واستكمال نهوضها .

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثانية ، فإن للبلاد العربية مطالب قومية وحقوقاً سياسية لم تنلها بعد . ولافائدة من ذكر العوامل التاريخية والحوادث التى أدت الى انتقاص هذه الحقوق واغتصابها ولكن الذى يفيد ويجدى الآن أن نواجه الأمر الواقع والوضع القائم ونجاهد فى سبيل تحقيق هذه المطالب وتخليص تلك الحقوق ، وعلى مؤتمر الوحدة العربية ولجنته التحضيرية أن يرسم للشعوب والحكومات طرائق هذا الجهاد المشترك وأن يقرر تكاتف الجميع فى سبيل كسب هذه القضايا التى منها :

١ - العمل على استكمال استقلال مصر والمحافظة على وحدة وادى النيل ، فكل محاولة يراد بها انتقاص استقلال مصر أو تقييد هذا الاستقلال أو تمزيق وحدة وادى النيل عمل ظالم ، يؤثر فى كيان الأمة العربية العام ، وعلى كل شعب عربى وحكومة عربية أن يشد أزر مصر وحكومتها وشعبها فى سبيل هذه القضية حتى تفوز فيها . ويجب أن يكون مفهوماً للرأى العام العربى العالمى كله أن مصر حين تتمسك بوحدة وادى النيل لا تعتدى بذلك على شعب من الشعوب ولا تستعبد أمة من الأمم ولا تنطمع فى توسعة حدودها ، أو زيادة مساحة أرضها أو تنمية ثروتها على حساب غيرها ، فكل هذه المزايم باطلة لاوجود لها ، ولكن مصر حين تتمسك بالنيل الأعلى تحقق بذلك وحدة شعبها . فمصر والسودان أمة واحدة . وتحافظ على صميم كيائها وتضحي بكثير من مواردها وثروتها وجهودها . وأن حاجة هذا الجزء من الأرض إلى مصر لأعظم بكثير من حاجتها هى إليه .

٢ - العمل على استكمال استقلال البلاد الشامية على اختلاف أقسامها . وإذا أصرت لبنان ومثيلاتها على المحافظة على استقلالها فليكن ذلك لها حتى يقنعها الزمن وتثبت لها الحوادث أن من خيرها بل من الزم اللوازم لها أن تعود الى أحضان أمها . «سورية الكبرى» وأن ذلك لقريب فنحن فى عصر الوحدات القوية والكتل الشعبية الجامعة - ومادامت ستفق مع غيرها من الشعوب العربية على كل مقومات الوحدة العملية فحسبنا ذلك منها الآن ولعل من الخير للمؤتمر وللبلاد الشامية خاصة والعربية

عامة ألا تجعل من هذه القضية عقبة تصطدم بها في قوة الشعور وثورة الحماسة حتى يفصل فيها الزمن والزمن جزء من العلاج .

٣ - العمل على حل قضية فلسطين حلاً يتفق مع وجهة النظر العربية ويؤدي الى سلامة هذا الجزء من الوطن العربي - وهو منه بمثابة القلب من الجسد - والى المحافظة كل المحافظة على أن يظل عربياً خالصاً والى دفع العدوان اليهودي وذئبة السياسة الدولية عنه بكل الوسائل ، فإن العرب جميعاً وفي مقدمتهم أعضاء اللجنة يدركون مدى الأخطار العربية التي تهدد كيان الأمة العربية وتحطم أمانها إذا استقرت قدم اليهود في فلسطين . والشعوب العربية كلها قد وطدت العزم على أن تستنقذ فلسطين مهما كلفها ذلك من الجهود والتضحيات .

وإننا لنعطف على اليهود في محتهم ولكن ليس معنى هذا العطف أن يكون انصافهم بظلم غيرهم وإبرائهم باخراج سواهم من ديارهم أو مضايقتهم في أوطانهم . وفي ممتلكات الدول الحليفة وأراضيها ما يتسع لضعافهم وما هو في حاجة ماسة الى كفائتهم ونشاطهم .

٤ - مساعدة بقية أقطار الجزيرة العربية «العراق وملحقاتها» - والمملكة العربية السعودية وملحقاتها - واليمن وملحقاتها على استكمال استقلالها ونهضتها ودفع الدسائس السياسية المختلفة عنها وبخاصة وهي الآن في مهب عاصفة قوية من التنافس الدولي الشديد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً هي أمامها أحوج ما تكون الى من يشد أزرها ويصهرها بمواقع الخير والشر لحاضرها ومستقبلها وليست هناك فرصة للنظر والأختيار أبدع ولا أوسع من هذه الفرصة التي إن افلتت اليوم فلن تعود إلا بعد حين .

٥ - العناية بتحرير الأقطار العربية في شمال أفريقية وأدخالها في دائرة الوحدة . فلوبياء بقسميها «برقة وطرابلس» يجب أن تعود إليها حريتها واستقلالها وأن تظل قطراً واحداً تحت لواء حكومة من أهلها بعد أن زال عنها سلطان الغاصب المحتدي وأن شأنها في ذلك شأن الحبشة سواء بسواء فإذا كان البريطانيون قد حاربوا وحدهم الطليان حتى أجلوهم عن الحبشة ثم سلموها موحدة مستقلة لامبراطورها السابق فإن من واجبهم وقد طردوا هذا العدو البغيض عن لوبياء بمساعدة أهلها ومساعدة الشعوب العربية لهم في ذلك أن يعيدوها لأهلها موحدة مستقلة كذلك وليس هناك ما يدعو الى

تمزيق وحدتها وتقسيم أرضها ومعاملتها بغير الأسلوب الذي عولمت به سابقتها .

وتونس والجزائر ومراكش بلاد عربية وقعت تحت الاستعمار الفرنسي باسم الحماية تارة والاستعمار تارة أخرى وقد جاهدت في سبيل حريتها واستقلالها جهاد الأبطال ولم تعترف بهذه الأوضاع التي رسمتها لها السياسة الاستعمارية في يوم من الأيام . ثم ساهمت أخيراً في المجهود الحربي للحلفاء مساهمة عظيمة أطلقت السن زعماء الأمم المتحدة بالثناء عليها وسجلها المستر تشرشل في خطبه بالأعجاب والأكبار ، وما كان جيش فرنسا الحرة الذي حارب في صفوف الحلفاء في شمال أفريقية وفي إيطاليا وفرنسا إلا هؤلاء الجنود اليواصل من أبناء هذه الديار العربية الصميمة ومن واجب المؤتمر العربي أن يطالب بحقوق هذه البلاد كاملة وأن ينقذ من برائن الظلم والعدوان عشرين مليوناً من العرب لآزالوا متمسكين بعروبيتهم مطالبين بحرية بلادهم مهما أراد المستعمرون أن يظهروهم بغير هذا اللون - لقد حاول هؤلاء الغاصبون خلال هذه السنوات الطوال أن ينالوا من وطنية هؤلاء العرب المجاهدين بالتجنيس وبالارهاب والضغط الشديد ، وأن ينالوا من عروبيتهم بالثقافة الأجنبية ومحاربة اللغة العربية والغزو الاجتماعي ، وأن ينالوا من دينهم بالتبشير ومقاومة الأوضاع الإسلامية بمثل الظهور البربري فلم يُجِدْهم كل ذلك نفعاً ومازال شمال إفريقية وسيظل عربيا مسلما .

وبرى أن من واجب اللجنة أن تدعو الى المؤتمر ممثلين من أبناء هذه البلاد ومن أبناء فلسطين ليسطوا أمامه قضاياهم ومطالبهم .

ونحن حين نرى أن يطالب مؤتمر الوحدة بهذه الحقوق للبلاد العربية ويلج في المطالبة بها والثبات عليها وأن يحتفظ لنفسه وللشعوب العربية والحكومات العربية بحق التمثيل في مؤتمر الصلح القادم . لانهتم في ذلك على قوة السلاح وكثرة الجيوش والأساطيل فحسب العالم ماقاسى من الاعتماد على القوة وبذ القانون والعدالة . ولكننا نعتمد :

وعلى أن ميثاق الأطلنطى الذي قيد به الحلفاء أنفسهم وأيدوه بكثير من التصريحات قد ضمن هذا الحق لكل الشعوب .

وعلى أن الشعوب العربية قد ساهمت في المجهود الحربي مع الحلفاء مساهمة جلية لاشك أنها كانت من عوامل النصر والظفر لهم . وقد اعترفت بذلك حكوماتهم وشعوبهم وصحافتهم .

ونعتمد أخيراً على هذا التطور في التفكير العالمي وهذه البقطة في الضمير الإنساني ، وياويع الدنيا إذا كانت ستسودها وتصرفها من جديد الأفكار الرجعية وتتحكم فيها المطامع الاستعمارية .

وإننا لنعلم حق العلم أن الطبيعة البشرية في كثير من الأحيان تنسى انصافها الذي اعلنته ساعة الشدة لتعود الى ظلمها الذي الفته حين الرخاء «وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل» ولكننا نعلم كذلك أن الدرس الحاضر كان من القسوة والفظاعة وعمق الأثر في النفوس والأرواح والشعوب والحكومات بحيث لايعرض لهم نسيانه بمثل هذه السهولة .

ولاشك أن من الخير كل الخير للأمم المتحدة أن تقوم في الشرق أمة عربية قوية لها من خلقها ومجدها وجلال تقاليدها في ماضيها وحاضرها ما يجعلها أقوى دعائم السلام في آسيا وأفريقية خاصة وفي مستقبل البشرية عامة .

جـ - الكيان السياسي العام للأمم العربية المتحدة .

وتأتى بعد الخطوة السابقة خطوة ثالثة يكمل بها بناء الوحدة العربية تلك هي لون الكيان السياسي العام لهذه الحكومات العربية المتحدة - ولا نظن أن الوقت قد حان أو أن الظروف قد تهيأت لمثل هذا البحث كما لانظن أنه من مهمة المؤتمر أن يختار شكل الحكومات فإن ذلك متروك للشعوب نفسها يتخير كل شعب منها لنفسه النوع الذي يريد ولكن الذي يجب أن يعمل له المؤتمر بهذا الخصوص ويقرره من الآن : أن يحتفظ بالحكومات العربية المستقرة بحق التمثيل فيما إذا: أجاز استفتاء للشعوب العربية المحررة أو التي لم تستقر حكوماتها الوطنية بعد .

وان يقرر من الآن لونا من الواجب الارتباط السياسي بين الحكومات العربية

كمجلس استشارى أعلى تستطيع بواسطته أن يتصل بعضها ببعض بطريقة دائمة منظمة ويكون أساساً لوحدة أتم وأكمل في المستقبل ان شاء الله .

د - تحديد الصلة بين البلاد العربية وجاراتها من الممالك الإسلامية غير العربية : وهذا المعنى وإن كان لا يتصل بمهمة المؤتمر صلة مباشرة إلا أنه مما يعزز الوحدة العربية ونعم له الحكومات والشعوب معا - فهناك أقطار ليست عربية ولكنها تتجاور بلاد العرب وتجمعها بها جامعة المصلحة والجوار من جانب والعقيدة الإسلامية والذكريات التاريخية من جانب آخر كالافغان وتركيا وإيران .

وإذا كنا في العصر الذي نحاول فيه كل أمة من الأمم أن تتلمس الروابط والجماعات بينها وبين غيرها فإن من واجب المؤتمر العربي أن يقرر أن بين العرب وبين هذه الأمم مخالفة طبيعية وأن يعلن أن من خير العرب وخير هذه الشعوب معا أن تدعم هذه المخالفة الطبيعية بمحالفات سياسية واتفاقات يتحقق بها تعاون الجميع على خيرهم وخير الإنسانية وبذلك يضع المؤتمر لبنة أخرى في بناء التعاون الإنساني المنشود .

هـ - المطالبة بحقوق الشعوب الإسلامية المظلومة ورعاية الأقليات المسلمة في مختلف البلاد والأقطار :

وهناك شعوب إسلامية وأقليات وجاليات عربية في كثير من البلاد والأقطار بلاد الحلفاء وبلاد الأعداء كالشعب الأندونيسى والتركستان والمسلمين في الهند والمسلمين في الصين والفيلين والمسلمين في روسيا وفي البلقان وكل هؤلاء يضرب عليهم الاستعباد باسم الاستعمار وتهضم حقوقهم ويحال بينهم وبين الرقي والنهوض فإذا كان هذا الوقت هو الذي يترقبه المظلومون لينالوا حقوقهم وليصلوا الى حريتهم فإن أولى من ينطق بلسان هؤلاء ويطالب بحقوقهم هو المؤتمر العربي بحكم الروابط الكثيرة بين العرب وبين هذه الجماعات فعلى المؤتمر أن يطالب باسم الإنسانية وباسم التطور الجديد في نظام العالم لتحرير الشعوب المستعبدة من هؤلاء .. وإنصاف المظلومين من هذه الأقليات ودراسة القضايا المتعلقة التي طال عليها الأمد ولم تمتد إليها يد العدالة والإنصاف .

و - لون الحضارة التي يجب أن تصطبغ بها الأمة العربية :

ولعل من أهم واجبات المؤثر أن يعنى بدراسة هذه الناحية دراسة دقيقة وأن يكون لنفسه رأياً يوجه إليه الأمم والحكومات العربية فذلك أجدى عليها من هذه الدبذبة في التفكير والتنفيذ معاً . ولعل هذه الناحية الإجتماعية لانتقل أهمية عن الناحية السياسية إن لم ترد عنها .

والرأى العام العرف يذهب في هذه الناحية مذهبين مختلفين فمن الناس من يدعو إلى الحضارة الغربية ويحض على الأنفماس فيها وتقليد أساليبها (خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ونافعها وضارها ما يجب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب) ويرى أنه لا سبيل للنهوض والرق إلا بهذا (ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) .

ومن الناس من ينفر من هذه الحضارة أشد التنفير ويدعو إلى مقاومتها أشد المقاومة ويحملها تبعة هذا الضعف والفساد الذي استشرى في الأخلاق والنفوس ، ولاشك أن كلا الفريقين قد تطرف وأن الأمر في حاجة إلى دراسة أعمق وأدق وإلى حكم أعدل وأقرب إلى الإنصاف والصواب .

لقد وصلت الشعوب الغربية من حيث العلم والمعرفة واستخدام قوى الطبيعة والرق بالعقل الإنسانى إلى درجة سامية عالية ، يجب أن تؤخذ عنها وأن يقتدى بها فيها وهى إلى جانب ذلك قد عنيت بالتنظيم والترتيب وتنسيق شئون الحياة العامة تنسيقاً بديعاً يجب أن يؤخذ عنها كذلك ، وهذه الحقائق لا يكابر فيها إلا جاهل أو معاند .

ولكن هذه الحياة الغربية والحضارة الغربية التى قامت على العلم والنظام فأوصلها إلى المصنع والآلة وجبى إليها الأموال والثمرات وملكها نواصى الأمم الغافلة التى لم تأخذ في ذلك أخذها ولم تصنع صنيعها - هذه الحياة المادية الميكانيكية البحتة مع ماصحها من خصومة حادة بين علماء الدنيا وحراس الدين - قد أغفلت هذه الأمم عن أخص خصائص الإنسانية في الإنسان - عن الغرائز ومستلزماتها وللشاعر ومطالبها والنفس وعالمها وطرائق تنظيم ذلك كله وضبطه ضبطاً يضمن خيره ويجنبهم شره .

ودفعت بها دفعا عنيفا الى التبرم بالعقائد والأديان والخروج عليها خروجاً قاسياً شديداً وإقصائها إقصاء تاماً عن كل نواحي الحياة الاجتماعية العملية .

فاسقطت الحياة الغربية من حسابها جلال الربانية ، والتسامى بالنفس الإنسانية ، والاعتقاد بالجزاء الأخروي . واضطربت بذلك بين يديها المقاييس الخلقية وانطلقت غرائز الشر من عقلمها تحت ستار الحرية الشخصية أو الاجتماعية ، ونجم عن ذلك أن تحطمت الفضائل في نفوس الأفراد وتهدمت الروابط بين الأسر وفسدت الصلات بين الأمم وصارت القوة لا العدالة شريعة الحياة . واندلعت نيران هذه الحرب فذاق حرها المحاربون والأمنون على السواء .

وقد أدرك هذه الحقيقة أخيراً ساسة الأمم الغربية أنفسهم فهبوا ينادون بوجوب العناية بالشئون الروحية ويتغنون بالمثل الخلقية العليا ويهيئون بالحكومات أن تصيغ المدارس ومناهج التعليم والتربية بعد الحرب بهذه الصبغة وأن تعود بالشعوب الى الأديان والعقائد الموروثة وفي الكتاب الأبيض الذى أصدرته الحكومة الإنجليزية عن التعليم بعد الحرب وفي تقارير الأحزاب التى وضعت في ذلك وفي مناقشة مجلس العموم واللوردات لهذا الكتاب من هذا الشيء الكثير .

ونحن العرب قد ورثنا مفاخر هذه الحياة الروحية ومظاهرها فاقطاب الرسالات العظمى والنبياؤهم المطهرون في أوطاننا نشأوا وعلى أرضنا درجوا ورموز الديانات المقدسة لازالت شاهقة باذخة في ديارنا تهوى إليها قلوب المؤمنين بالكتب والرسل في انحاء الأرض - وهذا القرآن الكريم الذى ورثناه نحن العرب فخلد لغتنا ورفع الله به ذكرنا وخاطب به نبينا فقال ﴿وانه للذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ كما خاطبنا فقال «لقد انزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ هذا القرآن قد حدد اهداف الحياة الروحية تحديداً دقيقاً مبسطاً بعيداً عن الأوهام الخيالية والفروض الفلسفية ووفق بينا وبين مطالب الحياة العملية توفيقاً عجيباً لم يستقم لغيره من الكتب ولم يتح لسواه من مناهج الحياة ونظمها .

فاذا كنا نحن العرب نملك هذه الثروة الروحية الجليلة التى :

يصل القلب الانساني بجلال الربانية فتملؤه بذلك اشراقاً ورباً
وتكرم في الإنسان معنى الإنسانية فترفع في عينه قيم الفضائل العليا
وتذكر الناس بجزاء الآخرة فتسمو بهم عن الوقوف عند اغراض الحياة الدنيا
وتوثق بين بنى الإنسان رابطة من الأخوة لا تمتد إليها يد التفريق والبلى
وتقيم ميزان العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات على أساس من التعاون والرضى
وتضع لأصول المشاكل حلولاً تركز على الحق لا على الهوى
إذا كنا نملك ذلك كله فإن من الحقوق لمجدنا وكتابنا وللإنسانية كذلك إلا نتقدم
للدنيا بهذا الدواء والعلاج الشافي .

ولهذا نعتقد أن من واجب المؤتمر أن يقرر وجوب استمسك البلاد العربية بقواعد
حضارتها التي تقوم على ماورثت من فضائل نفسه وأوضاع أدبية ودوافع روحية على
أن تقتبس من الحياة الغربية كل ما هو نافع مفيد من العلوم والمعارف والصناعات
والأساليب وعلى أن ندعو أم الغرب الى الإنتفاع بهذا الميراث الروحي الجليل ونبصرها
بما فيه من خير ونذكرها بما يحتويه من نفع وضرر وبذلك تقوم الصلة بيننا وبينها على
أساس من التعاون المشترك يتآزر فيه العقل والقلب على انقاذ الإنسانية واستقرار الأمن
والسلام .

ولقد يقال إن هذا المعنى ينحدر بالعاملين له والداعين إليه الى معنى من التعصب
الدينى أو التحزب المذهبى يمزق وحدة الوطن المجتمع ويفرق بين المسلم وغير المسلم
وهذا وهم خاطيء فنحن إنما ندعو الى الفضائل الروحية والمثل الدينية العليا التي يدعو
إليها أهل الأديان جميعاً كما ندعو الى الانتفاع في حياتنا العملية بهذا التراث القرائى المجيد
الذى هو للمسلم دين ونظام ولكل عربى قومية ومجد وللدنيا بأسرها طمأنينة وسلام .

أيها السادة الفضلاء :

حين نريد لأوطاننا وشعوبنا على أيديكم الوصول الى هذه الأهداف والحصول
كل كامل الحرية والأستقلال لاننكر ولا نغفل أن بيننا وبين دول العالم وأممهم وشعوبهم
صلات يجب أن تبقى ومصالح يجب أن تنظم حتى يقوم التعامل على أساس من الحب

والتعاون والأنصاف وأن من واجب مؤتمركم الموقر أن ينظم ذلك كله بحيث لا تسوى مصالح الدول والشعوب على حساب العرب كما لا يحال بين دوله وبين مصلحة من مصالحها الحقيقية التي لا تنتقص من استقلالنا ولا تقف عقبة دون رقينا ونهوضنا .

أيها السادة الفضلاء :

إن يومكم هذا له ما بعده وإنكم لتضعون بقرارتكم التي تقررون لبنات الأساس في نهضة العرب الحديثة بل في نهضة العالم الإسلامي كله وإنكم متى سمعتم عن الاعتبارات الشخصية ونصحتم بتقديم المصلحة العامة على المصالح الفردية فإنكم بأذن الله موفقون فاقدروا تبعثكم وحققوا الأمل في وطنيتكم وثقوا بمقدرة شعوبكم وتأيد الله إياكم والله معكم .

وسلام الله عليكم ورحمته وبركاته ؛

حسن البنا
المرشد العام للأخوان المسلمين

الفهرست

الصفحة

مقدمة	٣
- ١ -	
مسئولية فشل تجربة الدولة الإسلامية في العصر الحديث	٧
- ٢ -	
إخواني .. الإخوان	٤٢
- ٣ -	
غياب الرؤية الإسلامية	٦٣
- ٤ -	
بين التفرقة والتجميع	٨٠
- ٥ -	
الإسلام .. خط الدفاع الأخير في مواجهة الاذابة	٩١
- ٦ -	
نحو إطار لامركزي لحماية وحده الأمة الإسلامية	١٠٠
- ٧ -	
دستور إسلامي وضعه أحد أفراد النظام الخاص للإخوان المسلمين في الأربعينات ١٠٨	
- ٨ -	
الإخوان المسلمون والعمل النقابي	١٢٤
- ٩ -	
بعض الخطوط العريضة التي تحكم ظاهرة «الصحوة الإسلامية»	١٣٤
- ١٠ -	
رأى الإخوان المسلمين في الوحدة العربية	١٤٧
- ١٥٩ -	

بقلم المؤلف

أ - مؤلفات

- ١ - ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد (١٩٤٥)
- ٢ - ديمقراطية جديدة (١٩٤٦)
- ٣ - على هامش المفاوضات (١٩٤٧)
- ٤ - مسؤولية الانحلال بين الشعوب والقادة كما يوضحها القرآن الكريم (١٩٥٢)
- ٥ - ترشيد النهضة (صودر قبل التوزيع) (١٩٥٢)
- ٦ - الأزمة والبطالة في الرأسمالية (١٩٥٣)
- ٧ - موقف الفكر العربي تجاه المذاهب السياسية المعاصرة (١٩٥٧)
- ٨ - قصة فرسان العمل (١٩٦٢)
- ٩ - دور المنظم في الحركة النقابية (١٩٥٧)
- ١٠ - القاتون والقضاء في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٣)
- ١١ - نشأة الحركة النقابية وتطورها (طبعان) (١٩٦٦)
- ١٢ - التنظيم والبيان النقابي (ثلاث طبعات) (١٩٦٦)
- ١٣ - في التاريخ النقابي المقارن (طبعان) (١٩٦٧)
- ١٤ - دور النقابات في المجتمع الاشتراكي (١٩٦٧)
- ١٥ - مسؤولية القيادات النقابية - ملحق بمجلة العمل ، العدد ٣٦ (١٩٦٧)
- ١٦ - الثقافة العمالية بين حاضرها ومستقبلها (١٩٦٩)
- ١٧ - منظمة العمل الدولية - ملحق بمجلة العمل ، العدد ٦٤ (١٩٦٩)
- ١٨ - الحركة العمالية الدولية - ملحق بمجلة العمل ، العدد ٧٢ (١٩٧٠)
- ١٩ - العمل في الإسلام - ملحق بمجلة العمل ، العدد ٨٥ (١٩٧١)
- ٢٠ - محاضرات في الإدارة النقابية (١٩٧٢)
- ٢١ - الحرية النقابية - ملحق بمجلة العمل ، عدد شهر مارس (١٩٧٢)
- ٢٢ - روح الإسلام (١٩٧٢)

- ٢٣ - العمال والدولة العصرية - ملحق بمجلة العمل ، عدد شهر مايو (١٩٧٥)
- ٢٤ - قضية الانتاج (١٩٧٣)
- ٢٥ - ظهور وسقوط جمهورية فايمار (١٩٧٧)
- ٢٦ - حرية الاعتقاد في الإسلام (طبعتان) (١٩٧٧)
- ٢٧ - بحوث في الثقافة العمالية (١٩٧٨)
- ٢٨ - الدعوات الإسلامية المعاصرة ما لها وما عليها (١٩٧٨)
- ٢٩ - من نحو الأمة حتى الجامعة العمالية - ملحق بمجلة العمل ، عدد شهر مايو (١٩٧٨)
- ٣٠ - الجامعة العمالية (١٩٧٩)
- ٣١ - الأصول الفكرية للدولة الإسلامية (١٩٧٩)
- ٣٢ - بيان رمضان (طبعتان) (١٩٧٩)
- ٣٣ - الأصول العظيمة : الكتاب والسنة (١٩٨٢)
- ٣٤ - القريضة الغائبة : جهاد السيف أم جهاد العقل (١٩٨٤)
- ٣٥ - الحكم بالقرآن وقضية تطبيق الشريعة (١٩٨٦)
- ٣٦ - الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية (١٩٨٦)
- ٣٧ - الحركة العمالية الدولية (كبير) (١٩٨٨)
- ٣٨ - مشروع لإصلاح الحركة النقابية (١٩٨٧)
- ٣٩ - تاريخ الثقافة العمالية في مصر (١٩٨٧)
- ٤٠ - الحساسية الدينية (وسيط) - دار الزهراء (١٩٨٨)
- ٤١ - الإسلام هو الحل (٨١٣ صفحة) (١٩٨٨)
- ٤٢ - تفسير حديث «من رأى منكم منكراً... إلخ» (١٩٨٨)
- ٤٣ - خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه (١٩٩٠)
- ٤٤ - الإسلام والعقلانية (١٩٩١)
- ٤٥ - العمل الإسلامي لإرساء سيادة الشعب والحكم الدستوري (١٩٩١)
- ٤٦ - رسالة إلى الدعوات الإسلامية من دعوة العمل الإسلامي (١٩٩٢)
- ٤٧ - البرنامج الإسلامي (١٩٩٢)
- ٤٨ - الإيمان بالله (١٩٩٤)

- ٤٩ - كلاً ثم كلاً (١٩٩٤)
٥٠ - الجمع بين الصلاتين (١٩٩٤)

ب - مكتب الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل

- ٥١ - أزمة النقابية (١٩٨٠)
٥٢ - الاسلام والحركة النقابية (١٩٨٠)
٥٣ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل (كتيب تعريفى) (١٩٨٠)
٥٤ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يبدأ المسيرة (١٩٨١)
٥٥ - رسالة الإسلام (١٩٨١)
٥٦ - أخت الصلاة المهجورة (١٩٨٢)
٥٧ - الخيار الصعب (١٩٨٢)
٥٨ - الحركة النقابية من منطلق اسلامى (١٩٨٣)
٥٩ - الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل فى عامين (١٩٨٣)
٦٠ - الحساسية الدينية (وجيز) (١٩٨٣)
٦١ - العودة إلى القرآن (١٩٧٠)
٦٢ - نظم الثقافة العمالية فى الوطن العربى (١٩٨٤)
٦٣ - وجوه الائتلاف بين الرأسمالية والشيوعية والإسلام (١٩٨٤)
٦٤ - الدولة العصرية (١٩٨٥)
٦٥ - رؤية لمضنون الحكم بالقرآن (١٩٨٥)
٦٦ - محكمة العدل الدولية الإسلامية (١٩٨٥)
٦٧ - العودة إلى القرآن (١٩٨٥)
٦٨ - لا حرج (قضية التيسر فى الإسلام) (١٩٨٦)
٦٩ - نحن ودعوتنا (١٩٨٦)
٧٠ - لست عليهم بمسيطر (قضية الحرية فى الاسلام) (١٩٨٦)
٧١ - تعميق حاسة العمل (١٩٨٦)

- ٧٢ - العهد (١٩٨٧)
 ٧٣ - الشورى في الإدارة (١٩٨٨)
 ٧٤ - الحركة العمالية الدولية (وسيط) (١٩٨٨)
 ٧٥ - عمال السودان والسياسة (مع آخرين) (١٩٨٨)
 ٧٦ - الحرية النقابية (ثلاثة أجزاء) (١٩٨٩)
 ٧٧ - الحركة النقابية السودانية تجدد نفسها (١٩٨٩)
 ٧٨ - نحو حركة نقابية مثقفة ودون الكتاب في ذلك (١٩٩٠)
 ٧٩ - الحركة النقابية حركة إنسانية (١٩٩٢)
 ٨٠ - الاضراب والمواثيق الدولية التي تعترف به (١٩٩٢)
 ٨١ - النقابات المهنية المصرية في معركة البقاء (١٩٩٣)
 ٨٢ - لماذا يجب أن يكون للحركة النقابية عقيدة (١٩٩٣)
 ٨٣ - منظمة العمل الدولية (١٩٩٤)
 ٨٤ - نحو تعددية نقابية دون تفتت أو احتكار (١٩٩٤)

ج - مترجمات ومراجعات

- ٨٥ - النقابات في الولايات المتحدة (١٩٦٢)
 ٨٦ - النقابات في المملكة المتحدة (١٩٦٢)
 ٨٧ - النقابات في الاتحاد السوفيتي (١٩٦٢)
 ٨٨ - النقابات في السويد (١٩٦٢)
 ٨٩ - النقابات في بورما (١٩٦٣)
 ٩٠ - النقابات في الملايو (١٩٦٣)
 ٩١ - الأزمة المقبلة (١٩٦٣)
 ٩٢ - العمالة والتنمية الاقتصادية (١٩٦٦)
 ٩٣ - مدخل للدراسة الأجور (١٩٦٦)

- ٩٤ - الإدارة العمالية في يوجوسلافيا (١٩٦٧)
٩٥ - العمل يجابه عصرأ جديداً (١٩٦٨)
٩٦ - الديمقراطية النقابية (١٩٦٩)
٩٧ - دستور منظمة العمل الدولية (١٩٧٠)
٩٨ - توصيات منظمة العمل الدولية (١٩٧١)
٩٩ - اتفاقيات العمل الدولية (في مجلدين) (١٩٧١)
١٠٠ - البرنامج العالمى للعماله «تقرير المدير العام لمكتب العمل الدولى» (١٩٧١)
وكل هذه الكتب باستثناء كتابى الديمقراطية النقابية والأزمة المقبلة من مطبوعات منظمة العمل الدولية .

يصدر قريباً للمؤلف

نظرية العدل

ما بين الفكر الأوروبى والفكر الاسلامى

المعارضة العمالية

فى عهد لينين

رقم الایداع ٩٤ / ١١٧٠٠

دار الطباعة الحديثة
٧ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
تليفون ٩٠٨٣١٨

هذا الكتاب

يمرض البحث الرئيسى فى هذا الكتاب مسئولية فشل قيام دولة اسلامية فى العصر الحديث ، كما يقدم الحل . ويطلع هذا البحث (٤٠ صفحة) بحث آخر بعنوان «الحوالى .. الاخوان» يقدم فيه المؤلف الحديث الى الاخوان ويمرض جوانب خافية فى دعوتهم كما يقترح الخطوات التى يكون عليهم القيام بها تحقيقاً لدعوتهم ويناقش البحث الثالث «غياب الرؤية الإسلامية» ناحية لم تحظ بما هى جديرة به من الاهتمام . بينما يتصدى بحث «بين التوقع والتبع» لجنة المبعوثين والمجاليات الإسلامية فى الدول الأوروبية وكيف يحققون المعادلة الصعبة ما بين الإغادة من ثمرات الحضارة الأوروبية والاحتفاظ بشخصيتهم دون أن يتنكر لهم هذا المجتمع ويمرض الحلول بصراحة تامة . ويضم الكتاب بحثاً بعنوان «دستور اسلامى وضعه أحد أفراد النظام الخاص فى الاربعينات» ويجرى مقارنة ما بينه وبين أفكار الجماعات الإسلامية . وهناك بحثان أحدهما عن «الاخوان المسلمون والعمل النقابى» وآخر عن «نحو إطار لامركزى لحماية وحدة الأمة الإسلامية» ويختم الكتاب بوثيقة شديدة الأهمية عن «رأى الاخوان المسلمين فى الوحدة العربية» قدمها المرشد العام فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ للقيادات العربية التى اجتمعت للنظر فى تكوين جامعة الدول العربية . وثبتت هذه الوثيقة أن ليس هناك تعارض ما بين الفكرة الإسلامية وفكرة الوحدة العربية .

ويعد الكتاب إضافة منسقة فى موضوعه يقدمها كاتب عرف بإحكامه وصراحته ..

دار الفكر الإسلامى

الثنى ٦ جنيهات

To: www.al-mostafa.com